بسم الله الرحمن الرحيم

قال فضيلة الشيخ الإمام محمد متولي الشعراوى : الحج هو ركنُ الختام للإسلام ، واستكمال نعمة الله تعالى على الإنسان ؛ لأن هذا الركن يتطلب كثيرا من مُقوِّماته ، يتطلب عافية البدن للقدرة على الحركة ومشقّة السير ومتاعب السفر ، ويتطلب راحلة ، ويتطلب أن يترك الحاج لكل من يعوله فى بلده قُوته إلى أن يعود ، فالذى يُمكنه الله من كل ذلك يكون قد أتم عليه نعمة ربوبيته ؛ لأن نعمة الربوبية سبقت نعمة الألوهية ، فنعمة الربوبية عطاء من الله ، والذى يعطيك لا يطلب منك أن تقول له : « لبيك » ولكن الذى يطلب منك هو الذى يتطلب أن تقول له : « لبيك » فالعطاء مناولة من أعلى لأدنى ، ولكن طلب الألوهية هو الذى يحتاج إلى مغالبة النفس فى : افعل كذا وهو لا يحب أن يفعل ، ولا تفعل كذا وهو يحب أن يفعل .

إذن .. فمرحلة التكليف فى افعل ولا تفعل هى التى تتطلب أن يقول العبد فيها : « لبيك يا ربى » أى : إجابة لدعائك لى .

وأما عطاء الله له فى النعمة فلا يتطلب منه أن يقول : « لبيك » والمؤمن حين يهتف بشعار الحج فى قوله : « لبيك اللّهم لبيك » يلاحظ أنه يجيب الله ، وإجابة الله إنما تتطلب أن يخرج الإنسان عن اختياره فيما يرى أنه مريحٌ له وأنه مُسعد به ؛ إلى اختيار الله تعالى له .

والحق سبحانه وتعالى لم يكلف بافعل ولا تفعل إلا بعد أن أدى عطاء ربوبية كاملة ؛ خلقا للإنسان من عدم ، وإمدادا له من عدم ، ومعونة له على الحركة بطاقات وأجهزة وانفعالات ، وكم من منفعل له انفعل معه .

ولذلك لا يطلب الله منا إلا التكليف ، وقبل التكليف يظل عطاء الربوبية سائدا ، كما ظل عطاء الربوبية للكافر أيضا . فحين يقول المؤمن : « لبيك اللّهم لبيك » أى : إجابةً بعد إجابة ، لا يقول : « لبيك يا ربى » أولا ؛ وإنما يقول : « لُبيك اللّهم » أى لبيك فيما كلفت به وأخرجتنى عن مشتهيات نفسى فى افعل كذا ولا تفعل كذا . فكأن المؤمن حين يقول « لبيك اللّهم » يُرحب بالتكليف من الله ، ومعنى الترحيب

من لا تنتهى
على ذلك ؛
م مادة الحياة
لك ، نلحظ
ال سبحانه :
ةِ فَتِعِلُونَ ﴾ ،
كاة ، أى أن
، فيعمل وفى
ا لغير القادر .
، قدر طاقته ،
عمة من اللّٰه ،

أعتنى بالطاقة
مقر حركتى ،

. والنعمة لك »
مد لا يكون إلا
» . لماذا ؟ لأنك
ة أخرى ، وهى
عليك أن تحمده

حمده عليها بعطاء
. هذه يجب أن
ه كمية عطاءات
﴾ [النحل : ٩٦] ؛

وما دام الـمُلك باق للّٰه فعطاء اللّٰه ا
ينعم به باق ، فكن أيها المؤمن واثـ
« يا ابن آدم لا تخش من ضيق الرز
وقوله : « لا شريك لك » يطمئنك
نعمةٌ تحمد اللّٰه عليها ، ونعمة تعينك
الإسلام .

(١) روى الترمذى [٢٤٦٦] وابن ماجه [
اللّٰه عليه وسلم قال : إن اللّٰه تعالى يقـ
وإلا تفعل ملأت يدك شغلا ولم أسـ
وروى مسلم [٢٥٧٧/٥٥] عن أبى
روى عن اللّٰه تبارك وتعالى أنه قال
محرمًا فلا تظالموا ... » الحديث .
قاموا فى صعيد واحد فسألونى فأعـ
ينقص المخيط إذا أدخل البحر ... »

بالتكليف من اللّٰه : أن المؤمن أصبحتْ له شفافية ، يدرك بها أن اللّٰه لا يُكلّفه إلا أمرا محببا إليه ؛ لأن النعمة حين تكون من الرب نعمة متفق عليها فى أنها مُسعدةٌ من المكلف ، ولكن الـمُكلف قد يأخذها بمشقاتها فتصعب عليه ، ولا يستطيع أن يحمل نفسه عليها ، فحين يعلم أن اللّٰه لم يكلفه لحاجةٍ منه إلى تكليفه وإنما يكلفه إلى أمر ينفعه ؛ فذلك أيضا من عطاء الربوبية أن يُكلِّف .

فالولد الذى يطلب من أبيه مثلًا أن يمده بأسباب خيره ونعمه ورفاهيته ؛ لا يشك فى أن ذلك أمر يسعده ، والـمُعطى وهو الأب والمعطى له وهو الابن يتفقان فى ذلك ، ولكن الخلاف إنما ينشأ فى أوامر التكليف من الراعى ، أو من الوالد ، أوامر التكليف : لا تفعل كذا يا بنى ، لا تعبث بهذه ، أدِّ واجبك ، قم صلِّ ، لا تصاحب أهل السوء ، كل فعل يطلب منه أو فعل يكف عنه يكون فيه مشقة على النفس ، فالولد الذى يدرك أن أباه يحبه ويعلم له ما ينفعه فى حياته يستقبل كل تكليف وإن شقَّ عليه ؛ لأنه يخرجه من اختياره ، يستقبله بالحب ، ويستقبله بالرضا ، فكذلك حين يقول المؤمن : « لبيك اللّٰهم لبيك » : إنك يا ربى إن أخرجتنى إلى مشقات ، وأول هذه المشقات أن أترك بيتى ، وأن أترك وطنى الذى أَلِفْتُهُ وأَنِستُ به ، وأن أترك أهلى ، وأن أترك ولدى وأن أترك مالى ، وأن أتحمل مشقات السفر ، وأن أخرج من بِزَّةِ نفسى وهيئتها التى تصوره وتصور مقامه فى مجتمعه ، وأن أمتنع عن أشياء كثيرة أحلها لى اللّٰه .

كل ذلك مشقات ؛ فالذى يتنعم بصيد لا يصيد ، والذى يتنعم بطيب لا يتطيب ، والذى يتنعم بنكاح لا ينكح ، والذى مهمته تقطيع الشجر أو تقليمه يمتنع تمامًا عن قطع أى شجرة ، أو حتى جزء منها .

إذن .. أدبٌ مع الكون كله ، مع جماده ، ومع نباته ، ومع حيوانه ، وأدب مع الخلق جميعا : ﴿ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي ٱلْحَجِّ ﴾ [البقرة : ١٩٧] .

كل تلك مشقات ، هذه المشقات يستقبلها المؤمن ويقول : « لبيك اللّٰهم لبيك » إجابة بعد إجابة ؛ لأننى أدركت أنك لا تكلفنى إلا بالخير ليعود إلى وإن كان فى ظاهره مشقَّة .

والحاج حين يقول : « لبيك اللّٰهم لبيك إن الحمد والنعمة لك » يشير إلى عطاءات الربوبية ؛ لأنه ما دخل فى استطاعة الحج إلا بإمكانيات متوفرة له ، هذه الإمكانيات عاشها المؤمن إيمانا بها ، حين سمع من رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم : « بنى الإسلام على خمس »[(١)] فآمن بأن الحج ركن من أركان الإسلام ، فعاش معه عقيدة وعبادة ، فهو يتجه إلى ربه كل يوم خمس مرات ، وقبلته ذلك البيت ، فهو لا يزال عائشا فى نفسه ، عائشا فى تفكيره ، عائشا على أَمَلٍ أن ييسر اللّٰه تعالى فريضة الحج له ليُتِمَّ به نعمة الإيمان للّٰه ، وأركان الإسلام للّٰه ، فإذا ما دخل فى باله ذلك أعَدَّ نفسه إعدادا حركيا فى الحياة ليفوز بهذا . والإعداد فى حركة الحياة إنما يتطلب مجهود طاقة ، ومجهود الطاقة مُعانٌ من اللّٰه بالقوة ومعان من اللّٰه بالتيسير ، ويتطلب إخلاصا فى مجهود الطاقة ؛ لأن الزمن الذى يتحرك فيه الإنسان يكون له عطاء على قدر زمنه ، يعمل اليوم ليقوت نفسه اليوم ، فحركته اليوم متسع لانتفاعه بآثار هذه الحركة فى اليوم . ولكنه لا يبقى له شئ بعد ذلك لينتفع به فى زمن آخر . وتكون له وحده ، فإذا ما اتسعت طاقته وطموحه استطاعت أن تأتى حركة اليوم بما يكفى اليوم لذاته ويكفى اليوم لمن يعوله أيضاً .

إذن .. فذلك امتدادٌ لطاقة الحركة . فإذا ما أراد أن يَحُج لا يصنع ذلك لُيعطى حركة اليوم قوت اليوم ولا قوت من يعول ، وإنما يعطيه وفرا يستطيع أن يدخره فترةً من الزمن يتسع لها الحج : شهرًا أو شهرين أو ثلاثا ، على حسب مقتضيات المواصلات والإقامة ، فلا شكَّ أنه يُرَبِّى طاقته فى العمل تربيةً تتسع ليومه وليوم من يعول وليدخر ما يستطيع أن يعينه اللّٰه تعالى به لأداء فريضة الحج .

إذن .. فالمؤمن حين يستعرض مناسك الحج وأركان الإسلام يدخل على حركة العمل وفى باله الأشياء الأخرى ليعمل لها ؛ لأنه لو اقتصر على الحركة ليقوت زمنه أو ليقوت زمن من يعول ولا وفر عنده فلا يستطيع أن يقوم بكل أركان الإسلام ؛ فلا يستطيع أن يُزَكِّى ولكنه إن أدْخَل مثلًا مثلاً الزكاة والحج فى باله ضاعف من حركته ، وضاعف من

(١) رواه البخارى [٨] ومسلم [١٩/١٦] والترمذى [٢٦٠٩] والنسائى [٥٠٠١] عن ابن عمر رضى اللّٰه تعالى عنهما .

الحج إعلان بتمام نعمة الله على الإنسان

نلاحظ أن كثيرا من غير المؤمنين يأخذون على المؤمنين أنهم حين يحُج الواحد منهم يخص نفسه بلقب هو : الحاج فلان ، ويرون ذلك شيئا من التعالى بِرُكْنٍ من أركان الإسلام لم يوجد فى المصلى فلان ولا فى المزكى فلان ، ولكن نقول : الحاج فلان .

نقول له : لا .. إن هذا إعلان بتمام نعمة الله على الإنسان وتمام نعمة الله فى عطاء الربوبية يناسبه تمام نعمة الله فى تكليف الألوهية ؛ لأنك ما حججت إلا عن قدرة ، وما حججت إلا عن غنى وعن فائض مال ، وما حججت إلا عن أمن طريق .

وتلك هى استكمالات وسائل الحياة . فكأنك حين تقول : « الحاج فلان » يعنى : تُعْلِمُ أن الله أنعم عليه إنعاما اتسع له إيمانا برسوله صلى الله عليه وسلم وإقامة للصلاة ، وأداءً للزكاة ؛ لأنه ما دام قد قدر له الاستطاعة على أداء فريضة الحج فلا بد أن يكون قد زكى ، وما دام قد قدر أن يحج فلا بد أنه صام .

إذن .. فكلمة : « الحاج فلان » دلت على أن المؤمن أصبح مستوفيا لكل أركان الإسلام ؛ لأن الله وفاه من عطاء الربوبية ما يجعله أهلاً ؛ لأن يكون مؤديا لها .

وهذا يلفتنا إلى شئ من رحمة الله بالخلق ، فمثلاً : الإيمان الذى لا يتكلف مجهودا ولا طاقة ولا حمل ظهر ؛ لأنه يقين فى القلب ، واليقين فى القلب لا يثقله ولا يتعبه وإنما يملؤه فقط إشراقا ويملؤه نورا ، ولكن الصلاة التى تتطلب من الإنسان حركة من قيام وقعود وقراءة وتسبيح الله سبحانه وتعالى على قدر ما أعطى من عطاء الربوبية كلف بعطاء الألوهية ، فهذا يصلى قائما ، ومن لم يستطع صلى قاعدا ، ومن لم يستطع صلى نائما ، ومن لم يستطع صلى بإيماء ، ومن لم يستطع صلى بخواطر يمررها على قلبه .

إذن .. فالله لا يكلف تكليفا بألوهيته إلا على مقدار ما أعطى من نعم ربوبيته . فمثلاً الذى لا يكون عنده مال يصل إلى حد النصاب ويزيد عنه : لا يُطلب منه أن يُزَكِّى ، والمسافر والمريض يرخص لهما فى عدم الصيام ، والذى يُسافر : يقصر الصلاة . كل هذا دليل على أن عطاء الألوهية فى التكليف مناسبٌ لعطاء الربوبية فى التشريع .

إذن .. فالحج حينما تنظر إليه تجده موافقا لما نزل فيه من قول الله سبحانه : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾ [المائدة : ٣] لأنكم بمجيئكم فى هذا قد استوفيتم كل نعم تكوين حياتكم : قدرة بدن ، وقدرة رزق ، وأمن طريق .

إذن .. فذلك هو الإتمام ، وكأن الله تعالى يقول : لم أكلف إلا على قدر ما أعطيت من عطاء ربوبية ، فإذا شاءت حكمتى أن أنقصك شيئا من عطاء الربوبية فمن حكمتى أيضا ورحمتى أن أنقصك شيئاً من التكليف .

ولذلك قلنا : إنه يجب أن نفهم أن أركان الإسلام ليست هى أركان المُسْلم .

أركان الإسلام يعتقدها المسلم ، ولكن ينفذها سلوكا هى شئ واحد : أن نؤمن بالله وأن نؤمن برسوله وأن نصلى . وأن نزكى إن كان عندنا فائض ، ونصوم إن كانت لنا قدرة ، وأن نحج إن كانت لنا استطاعة ، فقد يكون الشئ ركنا فى الإسلام ولكنه ليس ركنا فى المسلم .

ولكن بالحج استوفى الإنسان كل أركان الإسلام فأدى مطلوبات الألوهية بافعل كذا ولا تفعل كذا ؛ لأن الله أدى له كل نعم الوجود فى حركات حياته بما لا يدع له مجالاً للتخفيف عنه .

والحق سبحانه وتعالى حين يطلب منا إقامة هذه الأركان إنما يطلب منا السوية فى التكوين الإنسانى المراد لله تعالى ، وهو الاستخلاف فى الأرض .

والخلافة معناها : أن الله استخلفه لعمارة هذا الكون ؛ ولكن الحق سبحانه وتعالى يتحمل عنه مقومات حياته ، فلا يطلب منه فى مقومات الحياة الأساسية شيئا لأنه يهبها له .

فمثلاً : الشمس تشرق . الهواء يمر . المطر ينزل ، الأرض بعناصرها تعطيك ما قدره الله تعالى فيها ؛ وتعطيك الزرع .

وبعد ذلك إن أردت أن ترتقى أنت فى فطرية الحياة ارتقاء فأعمل طاقاتك المخلوقة لربك فى الأرض المخلوقة لربك .

وإن أردت أن تعيش كما تعيش الأنعام تأكل مما تنبت الأرض ، وتشرب مما ينزل من السماء فَعِشْ عيشة الفقر ، عش عيشة الكسالى الغير منتجين .

أما إن أردت أن تُسْعِد نفسك إسعادا آخر فانفعل مع الأشياء التى خلقها الله تعالى لك والأشياء التى خلقها الله للإنسان لو نظرنا إليها لوجدناها : شيئا يعطيك إن طلبت منه . والشئ الذى يعطيك وإن لم تطلب منه . وتستطيع بعد ذلك أن ترقى رُقيًا آخر فيعطيك إن طلبت منه .

ثلاث مراحل : فالأشياء التى تعطيكَ مثلاً وأنت لا تطلبُ منها كالمطر . فأنت لا تطلب المطر ، بمعنى أن تقول له : انزل لى . ولكن الله ينزله لك . كذلك لا تطلب ضوء الشمس حرارة ودفئا ونورا وإشراقا ... إلخ ، بل الله يأمرها فتعطيك ، وكذلك لا تطلب من عناصر الأرض شيئاً بل هى تعطيك بإذن ربها ما شاء لها أن تعطيك .

ولكنك تجد شيئاً آخر إن انفعلت فيه انفعل لك .

فالأرض مثلًا إن بذرت فيها ورويتها : أَعْطَتْك وإن لم تفعل : لا تعطيك .

إذن .. ففى الكون أجناس تعطيك وإن لم تطلب منها ، وذلك الناس فيه سواء ؛ وأشياء إن انفعلت معها انفعلت لك وأعطتك .

وبهذا يختلف الناس قوة وضعفاً وحضارة وارتقاء ؛ فالذين ينفعلون فيما ينفعل لهم هم الذين يسودون . فالذى يحرث الأرض ويزرعها ، ويروى الزرع ويحرص على أن يضع فى الأرض البذرة التى تناسبها يرتقى .

والذى يعطيك وإن لم تطلب منه إذا انفعلت معه انفعل معك وأعطاك شيئا جديدا ترتقى به ؛ وخذ مثلاً : حينما عزت الطاقة على الناس وفكروا فى بديل للطاقة ؛ كان فى البداية : الخشب والحطب ، ثم الفحم ، ثم البنزين ... وكل هذه وسائل طاقة ، ثم فكر وارتقى وأخذ الطاقة من الشمس .

إذن .. فالشمس كانت تعطيك وإن لم تطلب منها ، ولكن بالارتقاءات الثانية أصبحت تعطيك إن طلبت منها ، تأخذ من حرارتها الزائدة وتخزن وتستفيد منها . تلك عطاءات من عطاءات الربوبية للخلق جميعًا . وباختلافهم فى هذا يختلفون رقيا وحضارة وارتقاء .

الإنسان منا حين ينفعل فيما ينفعل له يأخذ خيرا من خير الوجود فوق الآخر . هذا الذى يأخذ من خير الوجود فوق الآخر لن يأكل ببطنين ، ولن يأكل بفمين ، وإنما هى وجبة كوجبة الآخر .

إذن .. فأين يذهب الأمر الزائد ؟ الأمر الزائد لا بد أن يفيض قهرا عنه رضى أو لم يرض إلى الغير .

إذن .. فكل حركة من حركات الوجود هى نافعة ؛ تحرك بها مؤمن ، تحرك بها كافر ، تحرك بها طائع ، تحرك بها عاص .

إلا أن الفاعل إن جعل فى باله الله تعالى الذى وهب له هذا يأخذ ثوابا عظيما فى الدنيا والآخرة ، وإن لم يجعل الله تعالى فى باله يأخذ حظه من الدنيا ، ولا نصيب له فى الآخرة .

○○○

في الإسلام المساواة .. وعدم التعالي

حين يتعالى الناس بالأشياء ، يريد الحق سبحانه وتعالى أن يخلعهم خلعا من تعاليهم ، حتى يضمن تعادل الخلق . ومعنى تعادل الخلق : الاستطراق الأدبي في الكون ، ومعنى الاستطراق الأدبي أن لا يتعالى أحد على أحد ؛ لأنك إن تعاليت على أحد بمظهر من مظاهر حياتك فانظر : أهذا المظهر ذاتي فيك أم موهوب من الله تعالى لك ؟ والفرق بين الذاتي والموهوب أن الذاتي يظل معك والموهوب يمكن أن يُسْلَبُ منك .

فإن تعالى واحد على واحد بقوة ، أتدوم له قوته هذه ؟ أم من الممكن أن يضعف غداً ؟

ولو تعالى واحد على واحد بغنىً ، أمن الممكن أن يدوم له غناه هذا ؟ أم من الممكن أن يذهب عنه غداً ويصير فقيرا يسأل الناس ؟

إذن .. فكل أمر ليس ذاتيًا فإن الله تعالى يضع في تشريعه وفي منهجه ما يدرك هذا التعالي . هذا التعالي الذي نسميه « الأغيار » ، ومعنى الأغيار : هي الأشياء التي لا تثبت عند مكون واحد .

وما دامت لا تثبت عند مكونٍ واحد ، فلا بد أن يكون لها مكون أعلى من ذلك الواحد .

إذن .. فكل وسائل تعالي الإنسان ليست ذاتية فيه وإنما هي موهوبة من الله تعالى .

فيشاء الحق سبحانه وتعالى بما شرع من أركان الإسلام أن يضمن ذلك ليظل الإنسان مستخلفا في الأرض ، ليس أصيلاً فيها ؛ لأن الذي يفسد الكون أن الإنسان يظن أنه أصيل ، فيستغنى .

فنقول له : إن كنت أصيلاً فحافظ على مقومات تعاليك ! وما دمت لا تستطيع أن تحافظ على مقومات تعاليك فلست أصيلاً . واقرأ قول الله تعالى : ﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ۝ ﴾ [العلق] .

فما دمت استغنيت بشيء ليس ذاتيا فيك فتأدَّب بعض الشيء ، وإذا تأدبْتَ بعض الشيء فستذكر الواهب لك ، وإذا ذكرت الواهب لك فستنفذ منهجه .

ولذلك كانت أول الأركان أن تشهد أنه لا إله إلا الله وحده لا شريك له ؛ خاضعين لأوامره . وما دمنا أنا وأنت خاضعين لإله واحد فذلك أول مظهرية من مظاهر التساوي ، وما دمنا تساوينا في هذه فالحق سبحانه وتعالى يدعونا إلى إعلان هذا التساوي في أول ركن من أركان الإسلام بعد الشهادتين ، وهو الصلاة .

فإذا نودي للصلاة سعى الناس جميعاً إلى بيت الله ليؤدوا الصلاة وسعى الناس ساعة النداء لا بترتيب مقاماتهم ، ولكن بترتيب إجابتهم للأذان ، فالذي سمع الأذان وبادر متوجها يذهب أولاً .

كل هذا يدل على أننا جميعا نصدر عن أمر واحد ونهي واحد ، فلا تعالي لإنسان على إنسان .

وحين يكون الإنسان عبدا لله تعالى يكون غيره عبدا لله أيضا . ويقولون دائماً : « عبدُ غيرك حرٌ مثلك » ، حتى في البشر ، لو أن إنسانا عنده عبد ، هذا العبد عندك أنت عبد فقط ، أمّا صاحبك فلا يقول له أنت عبد ؛ لأنه عبد لغيره .

وكذلك الإنسان ، إذا ما استحضر عبوديته لله وعبودية غيره أيضا لله تعالى مُنع مبدأ التعالي في الأرض .

○○○

المساواة فى الصلاة والحج

إن الصلاة حين ندعى إليها نذهب جميعا ، لا بأقدارنا فى ذواتنا ، ولكن بأقدارنا بالنسبة لمنهج الله ، فالذى يُسرع خُطاهُ ساعة يسمع النداء إلى المسجد ، يذهب أولاً ليجلس فى الصف الأول ، ولا يزاحمه من يأتى بعده ، ويمتنع على المسلم أن يتخطى الرقاب ليصل إلى صف لم يؤهله زمنه له (١) ، وبعد ذلك تكون أقدار الناس واحدة ، فالعظيم يراه من دونه فى حركة الحياة ، وهو ذليلٌ بين ربه ، وساجدٌ بجبهته مثله ، وضارعٌ إلى الله دعاءً ورجاء .

إذن .. فالعظمة والأُبَّهة خارج المسجد انتهت ، وكل واحد منا شهد الغير على مشهدٍ من الذلة لإله واحد . حين يرانى من هو أعظم منى فى حركة الحياة خارج الصلاة وأرى من دونى يرانى مثله ؛ استطرقت الحياة ، واستحيى الإنسان بعد ذلك حين يخرج من المسجد أن يُظهر عليه التعالى ؛ لأنه سجد لمن سجد له ، وركع لمن ركع له ، وبكى لمن بكى له ، وتضرع لمن تضرع له . إذن .. فالمساواة هنا واحدة ، وما دامت المساواة واحدة فإن مبدأ الاستغناء والتعالى فى الخلق لا يتأتى .

وكأن الحق سبحانه وتعالى يريد بذلك فى ركن الصلاة أن يُعلن ذلك التساوى ، ولكن إعلان التساوى فى الصلاة يقولون إنه إعلان بيئى ؛ يعنى : كل جمعة فى مسجد من المساجد رأوا بعضهم البعض فى عبودية وضراعة وخضوع وذلة لله تبارك وتعالى .

ويريد الله أن يصنع لهذا الاستطراق ليس بيئة محدودة ، بل بيئة عالمية . فعالمية الاستطراق لكل أجناس أهل الأرض ؛ الأمم القوية ، الأمم الضعيفة ، الغنى ، الفقير ،

---

(١) روى أبو داود [١١١٨] والنسائى فى السنن الكبرى [١٧٠٦] وأحمد فى المسند [١٨٨/٤] وابن حبان فى صحيحه [٢٧٩٠] واللفظ له عن عبد الله بن بسر رضى الله تعالى عنه قال : « كنت جالسا إلى جنب المنبر يوم الجمعة ، فجاء رجل يتخطى رقاب الناس ورسول الله صلى الله عليه وسلم يخطب الناس ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اجلس فقد آذيت وآنيت » . وقال الأرناؤوط : إسناده صحيح على شرط مسلم . وهو عند ابن ماجه [١١١٥] عن جابر رضى الله تعالى عنه ، وصححه الألبانى .

صاحب الجاه ، هذا استطراق يتأتى فى الحج الذى نحج إليه وقد نُسيت أقدارنا .

ولذلك يُرَبِّى الله تعالى فينا مقومات هذا الاستطراق فيقول : إنكم تختلفون فى بيتكم ، وتختلفون فى هيئاتكم ، وتختلفون فى لباسكم . فكل واحدٍ يحدد مكانه فى مجتمعه وهندامه ولباسه ونوع الأقمشة ونوع التفصيلة ، ونوع الهيئة التى عليها : مغسولة جيدا أم لا ، مكوية أم لا ... وهذه الهيئة تختلف فيها مقامات الناس ، فيريد الله أول كل شئ فى الاستطراق أن نخلع هذه الهيئة جميعا ، وأن نلبس لباسا واحدا لا نختلف فيه أبدا . حتى نطرح أول مُقوِّم لهيئة الإنسان ؛ لأن من الذى يعطى النعمة للإنسان ، أهو ماله الذى فى البنوك ، أو ماله الذى عنده فى الخزنة ؟ أهى ضيعاته . أهى عماراته ؟ هل سأحمل العمارات أو الشيكات وأقول للناس ها أنا ذا ؟ بالطبع لا . إنما الذى يبين مكانة الإنسان فى مجتمعه هيئته ، فنقول له : أول شئ فى الهيئة أن تنتهى حتى تفصيلها : لا تتفصَّل ولا تخيط ، ليس فقط قماشها ، لا ، ويأتى بالإزار والرداء ، كلنا بإزار ورداء يكاد يكون كله شكلا واحدا ويكاد يكون كله نوعا واحدا ، فإذا ما لبسنا لباسًا واحدا انتهت أوَّل مظهرية من مظاهر التمايز والتعالى بالهيئات والبزَّات .

وبعد ذلك يخرجه الله مما ألف : من أهل ومن ولدٍ ، ومن مال ، ومن بيته ومن حياةٍ رتيبة ، ومن وسائل مرفهة فى تنقلاته ، كل هذا يخرجه منه .

وبعد ذلك يعلمه أدب الجوارح . فيقول له أنت كنت حرا فى أن تتزين ، وأن تتطيب ، وأن تقصر شعرك ، وتقلم أظافرك . لا . التزم هنا ، أنت فقط تتزين وتتطيب وتستحم إلى أن تحرم ، وقبل ذلك أنت حُر فى أن تُرجِّل شعرك وكذا ... الآن إياك أن تفعل شيئا فتسقط شعرة .

انظر إلى الأدب مع الذات ، إياك أن تسقط شعرة منك ، إياك كذا ، إياك كذا . أدبٌ فى تكوين الذات .

وأدب مع الجماد ، وأدب مع النبات : إياك أن تقلع هذه الشجرة . إياك أن تصطاد هذا الحيوان . وأدبٌ مع الناس : إياك أن تجادل ، إياك والفسوق ، فأخرجه الله تعالى من كل مقُومات تكوينه ، ومقوماته : وطناً ، أهلاً ، مالاً ، هنداماً ، كل هذا خرج منه .

إذن .. هو أدب مع الكون : بداية مع النبات يقول له : إياك أن تقلع هذه الشجرة ، اتركها ، إياك أن تصطاد هذا ، إياك أن تقاتل أحدا ، إياك أن تجادل أحدا ، إياك ... كل هذا لأنك ذاهب إلى بيت الله .

ما هذا ؟ ما هذا القالب الجديد الذى يأتى للإنسان الذى استكمل كل مقومات الحياة ؛ لأنه ما أصبح مستطيعا للحج إلا وعنده كل شئ نفقة إلى أن يعود ، فحينئذ يقول له : تأدب إذن هنا .

وبعد ذلك يذهب إلى البيت فى أدب من أرقى أنواع الأدب : مجموعة أحجار ، الله تعالى نصبها فى مكان البيت وقال لك : طُف حولها ، وحج منها ، قَبِّل هذا الحجر ، أو يكفى أن تسلِّم عليه بإشارة . إنما رغبتك أنك لا بد أن تلمس الحجر ، فتحاول وتعافر حتى تلمسه ، وإن لم تلمسه تقول لا بد أن أطوف مرة ثانية حتى ألمسه !! فما هذا الحجر ؟!

إنك لو نظرت إلى أجناس الوجود لوجدت هذا الجماد هو الجنس الأدنى فى الوجود ؛ لأن أجناس الوجود إن تفاوتت ؛ فإنما تتفاوت بقدر نقصانها فى الخصائص ، الإنسان لماذا هو السيد فى هذا الكون ؟ لأنه متميِّز عن الأجناس كلها بأن عنده فِكر ، ميزه الله بهذا الفكر عن الحيوان ، مع أن الحيوان له أجهزة وله دورة دموية ، ودورة كذا ؛ لكن ليس عنده الفكر .

إذن .. فأنا أخذت خاصية الفكر ، وهو نقص فيه . فصار جنسا أدنى بفقد خاصية الكمال فيه .

والحيوان أيضا زاد على النبات بالحس والحركة ؛ والنبات زاد على الجماد فى النمو ، فالحجارة تظل ملقاة وتطؤها بالأقدام ، أما النبات فينمو وفيه حياة .

إذن .. فتوجد تعاليات فى الأجناس : جنس أدنى ، يأتى له نمو فيكون نباتا ، وآخر يأتى له حس وحركة فيكون حيوانا ، وآخر يأتى له كل هذا ثم يميزه الله تعالى بالفكر فيكون إنسانا .

إذن فالإنسان هو السيد . وما دام هو السيد فتحته كم عبد ؟ الحيوان عبد ولكن الحيوان عبد وسيد أيضا ؛ لأن النبات يخدمه والجماد يخدمه ، إذن فهو عبد لمن هو أعلى منه ، سيد لمن هو أدنى منه ؛ لأنه يأكل من النبات ، وكل الخصائص التى فى الأرض تنفعه .

والنبات : سيد ، ولكنه عبدٌ للحيوان وعبد الإنسان ، وسيِّدٌ للجماد ؛ لأن الجماد هو الذى يعطى له غذاءه وعناصر تكوينه .

والجماد : عبد للكل . إذن .. فهو أدنى منزلة فى الوجود .

فالله سبحانه وتعالى أدَّبنى مع نفسى حركة وهنداما . وأدَّبنى مع النبات ، لا أقتلعه ، وأدَّبنى مع الحيوان فلا أصطاده ، وبقى أن يؤدِّبنى مع الجماد ، فجعل حجرا يوضع فى الكعبة ، ويقول لى : لا يصلح حجك أو عمرتك إلا بأن تسلم عليه ، أو تقبِّله أو تلمسه ، أو حتى تشير له فقط !!

إذن .. الإنسان الأعلى يخضع هنا لهذا الحجر الذى هو الأدنى ؟!

نعم .. فهذا هو الاستطراق ، انظر كيف أنزل الله الإنسان من كبرياء سيادته إلى أدنى العبيد والمخلوقات وهو الجماد .

إذن .. فالإنسان استوفى كل الاستطراقات مع الكون ، ويصبح عظمة كل فرد فى الكون بأداء مهمته ، لا يوجد شئ عظيم بذاته ، ولكن عظيم بأداء مهمته .

وما دام بأداء مهمته ، فمن له اختيارٌ فى أداء مهمته ؟

إذن .. فلا تعالى لحيوان على نبات ، ولا لنبات على جماد ، ولا لشئ من هذا ، إنما التعالى من الإنسان على هذه الأشياء .

ولذلك فى الحج – وهو الركن الخامس الخاتم لأركان الإسلام – يقول له : الزم أدبك والزم حدَّك وانزل من سيادتك إلى أن تقف حتى تستلم هذا الحجر .

وحتى لا تفهم إنه حجر لأنه حجر ؛ لا .. فكأن مراد الله تعالى أن ينزل الجنس الأعلى إلى الجنس الأدنى ، فأصبح ذلك مشروطاً فى صحيح الإيمان .

إذن .. فالجنس الأدنى أصبحت منزلته هنا والجنس الأعلى سواء ، ولكن إياك أن تفهم أن الحجرية هنا مَلْحظ ؛ لأن الذى أمرك هنا أن تستلم هذا الحجر وتقبله أو حتى تشير إليه إن لم تتمكن قال لك ارجم حجرا آخر ، حتى يخرج من ذهنك أن هناك سيادة للحجر كجنس .

فتصبح كل المسائل منتهية فى أنه لا جنس أفضل من جنس إلاَّ فيما يُؤدى به كل جنس مهمته . وكل جنس من الأجناس ما عدا الإنسان يؤدى مهمته ، فلا تعالى بينهما أبدا ، لم نر أبدا شجرة تفاح تعالت على شجرة طماطم ! ولم نر أبدا طاووسا تعالى على أرنب ، كل شئ فى الوجود لازمٌ حَدُّ أدبه مؤد لمهمته إلا الإنسان : ﴿ كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ ۝ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ ۝ ﴾ [العلق] . فإذا ما ذهب الإنسان وطاف حول الكعبة حينئذ يستشعر ذُل العبودية ، ويلزم حده .

○○○

البكاء عند رؤية الكعبة

كثير من الناس يقول لك : أنا حين أدخل البيت أو أطوف تنتابنى حالة من البكاء لا أعرف لها سببا ، فإذا سألته لماذا تبكى ؟ لا يجيبك بشئ ، البكاء هذا غسولٌ لكبرياء ماضيه ، فيأتى أمام هذه الكعبة التى هى مبنية من هذه الأحجار وفيها الحجر الأسود فيظل يبكى . وهذا البكاء هو مظهرية الضعف ومظهرية الحُزن .

لأن الإنسان بفطرته التكوينية أدرك أنه كان يوجد تعاليات متعدِّدة . التعاليات كلها ذهبت ، ولكنها أتت من العقل الباطن ، وهو لا يشعر بها ، ولكنه عندما يبكى ، ويظل يحكى أنه بكى بشئ من الفرحة ؛ فهذا دليل على أن البكاء صنع معه توازنا كيماويا فى ذاته ، كمية الكبرياء التى كانت عنده مُخبأة توازن انتهت ، فيرتاح .

إذن .. فكل تكوين من التكوينات يتأبى على نفسه إن كان على غير ما أراد الله وشرعه .

فعندما يبكى على قدر ما أسرف ، وعلى قدر ما أتى وعلى قدر ما خالف ، فيجد نفسه ارتاحت ، ثم يشتاق إلى ما يبكيه ، ويتمنى أن يأتى مرّة ثانية ويبكى كما بكى المرة الأولى .

ولذلك لا يبكى كل مرة مثل الأولى ، فى المرة الأولى يبكى بحرارة شديدة ، أما التى بعدها فيبكى أقل ، والتى بعدها أقل ، حتى يأتى عنده استطراق صفائى ويجد نفسه وذرَّاته وتكويناته اعتدلت فى ذاتها ، وما دامت ذراته اعتدلت فى ذاتها فقد أُصبح إنسانا سويا ، وما دام أُصبح إنسانا سَويًّا فقد أُصبح راضيا [1] .

---

(1) ورد فى السنة المشرفة على صاحبها صلاة الله تعالى وسلامه عند دخول مكة ورؤية الكعبة ودخول المسجد الحرام ما يلى :

أولاً : عند دخول مكة المكرمة : « الله أكبرُ ، اللهمَّ أنت السَّلامُ ، ومنك السلام ، فحيِّنا ربَّنا بالسلام . اللهم زد هذا البيت تشريفا وتعظيما وتكريما ومهابة وبِرًّا ، وزد مَن حَجَّه أو اعتمره تكريما وتشريفا وتعظيما وبِرا »[1] . =

---

(1) رواه البيهقي فى الكبرى [٨٩٩٥] وابن أبى شيبة فى مصنفه [٢٩٦٢٤] عن مكحول رضى الله عنه .

ثم إننا نلاحظ أن الناس جميعاً فى هذا المقام - وهم لا يزالون فى الدنيا - كل واحد حول الكعبة مشغول بأن يستحضر : بماذا يدعو ، ماذا يقول ، كيف يمشى وقد أصبح مذهولاً عمن حوله ، يعنى أنه لم يعد مشغولا بالخلق ؛ لأنه فى بيت الخالق ، وما دام فى بيت الخالق فهؤلاء الناس لم يعودوا يشغلوا باله ، ولذلك تجد الناس يقولون : يا أخى النساء والرجال يختلطون فى الحج والزحام كذا وكذا !!

وهل يشعر أحد بشئ ، فإنك رُبما تطوف والمرأة الأجنبية فى كتفك وأنت لا تدرى من بجوارك .

= اللهم إن هذا البلد بَلَدُك ، والبيت بيتُك ، جئت أطلب رحمتك وَأَؤُمُّ - وأقصد - طاعتك ، مُتبعًا لأمرك ، راضيا بقدرك ، مُبلِّغا لأمرك ، أسألك مسألة المضطر إليك ، المشفق من عذابك أن تقبلنى وأن تتجاوز عنى برحمتك ، وأن تدخلنى جنتك[1] .

ثانيا : عند رؤية البيت الحرام : اللهم زِد هذا البيت تشريفا وتعظيما وتكريما ومهابة ، وزد من شرفه وكرمه ، ومن حجه أو اعتمره تشريفا وتكريما وتعظيما وبرا [2] .

ثالثا : عند دخول المسجد الحرام يدخل برجله اليمنى ويقول : بسم الله ، والحمد لله ، اللهم صل على محمد وعلى آل محمد ، اللهم اغفر لى ذنوبى ، وافتح لى أبواب رحمتك[3] .

رابعا : عند رؤية الكعبة المشرفة تقول مشيرا إليها بيدك اليمنى : الله أكبر ، الله أكبر ، الله أكبر ، لا إله إلا الله ، لا إله إلا الله ، لا إله إلا الله : اللهم زد هذا البيت تشريفا وتعظيما وتكريما ومهابة [4] . اللهم أنت السلام ، ومنك السلام ، حينا ربنا بالسلام ، اللهم إنى أعوذ برب البيت من الكفر والفقر ، ومن ضيق الصدر ، ومن عذاب القبر . اللهم إنى أسألك رضاك والجنة ، وأعوذ بك من سخطك والنار . اللهم أدخلنى الجنة بلاسابقة عذاب ، ولا مناقشة حساب ، وحاسبنى يا رب حسابا يسيرا بعفوك وكرمك وإحسانك ، أستغفر الله ، أستغفر الله العظيم وأتوب إليه ، اللهم صل على النبى محمد وعلى آله وأصحابه وأتباعه وسلم تسليما كثيرا .

(١) ذكره صاحب شرح المهذب ؛ ونقله فى الدين الخالص .

(٢) رواه الشافعى فى مسنده [٥٨٥] عن ابن جريج رضى الله تعالى عنه .

(٣) رواه ابن ماجه [٧٧٣] عن فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم بلفظ : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا دخل المسجد يقول : « بسم الله والسلام على رسول الله ، اللهم اغفر لى ذنوبى ، وافتح لى أبواب رحمتك » . والترمذى [٣١٤] ، وأحمد فى المسند [٢٨٣/٦] وقال الأرناؤوط : صحيح لغيره دون قوله : « اللهم اغفر لى ذنوبى ؛ فحسن .

(٤) سبق تخريجه .

فإذا كان هذا ولا نزال فى الدنيا ، وكل واحد مشغول بنفسه ؛ ولذلك السيدة عائشة رضى الله تعالى عنها لما أخبرها رسول الله صلى الله عليه وسلم إننا سنُحْشَر عراة قالت : يا رسول الله : الرجال والنساء ينظر بعضهم إلى بعض وهم عرايا ؟!

فقال : الأمر أكبر من أن يهمهم هذا ، لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه [1] . فكذلك ترى هذه الصورة فى الحج .

○○○

(١) رواه البخارى [٦٥٢٧] بلفظ : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « تحشرون حفاة عراة غرلا . قالت عائشة : فقلت : يا رسول الله الرجال والنساء ينظر بعضهم إلى بعض ؟ فقال : الأمر أشد من أن يهمهم ذاك » .

ومسلم [٥٦/٢٨٥٩] والنسائى [٢٠٨٣/٢٠٨٤] وابن ماجه [٤٢٧٦] وأحمد فى المسند [٥٣/٦] عن عائشة رضى الله تعالى عنها .

سر الاتجاه للكعبة

الإنسان منا حين يكون فى بلده يتّجه فى صلاته إلى الكعبة اتجاها مضبوطا ، يعنى : تتجه شرق ، نتّجه شرق ، نتجه غرب ، نتجه غرب حسب موقعنا من البيت ، فمثلاً الذى فى القسم الشرقى يتجه للغرب ، والذى فى القسم الغربى يتجه للشرق ، والذى فى القسم الشمالى من الكعبة يتجه للجنوب ، والذى فى القسم الجنوبى يتجه للشمال ، والذى فى الجهات الفرعية يتجه بحسب جهته .

إذن .. فلكل مكان فى الأرض مُتّجهٌ ثابت ، القبلة التى نصلى لها هنا هى القبلة كل يوم لا تتغير .

إذن .. لماذا فى سيالى الكعبة اتجاه وخط ؟ لأننى غائب مقيمٌ وبعيد عنها .

إذن .. فاتجاهى هنا ، والمقابل لى فى ظاهره اتجاهه غير اتجاهى ؛ لأننى متجه شمالاً ، وهو متجه جنوبا ، وهذا متجه شرقا وهذا متجه غربا .

وحتى يتأكد هذا ، يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ﴾ [البقرة : ١٥٠] .

﴿ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة ١١٥] يعنى : إياك أن تعتقد يا من تتجه إلى الشرق أن الله فى الشرق ، وإياك أن تعتقد يا من تتجه إلى الغرب أن الله فى الغرب .

لا .. كل مكان فيه متجه ، فإذا ما كنت غريبا كان لك متجه فأنا أتجه مثلاً ناحية الركن اليمانى ، وآخر يتجه ناحية الركن العراقى ، وثالث يتجه ناحية الركن الشامى .

فإذا ما ذهبنا هناك إلى أى متجه نتجه ؟

نحن كنا نتجه فى الغيب للمكان الذى يؤدى بنا بخط معتدل إلى الكعبة .

فإذا ذهبت أنا هناك . أتجه إلى المكان الذى كنت أتجه إليه فى بلدى ؟ لا .. أصبحت الكعبة كلها لك متجهاً ، فلا بد أن تعظم كل مكان فى الكعبة ، تعظم هذا ، وتعظم

هذا ، وتعظم هذا ... لا تعظيم المكان الذى كنت تتجه إليه فى بلدك فقط ، لا . إذن .. فلا بد أن تطوف[1] .

○ ○ ○

(١) ولذلك تحية المسجد الحرام ليس بصلاة ركعتين كبقية المساجد ؛ إنما هى بالطواف حول البيت سبعة أشواط ؛ وسيأتى دليل ذلك إن شاء الله تعالى فى الطواف .

قالوا : فى الطواف كان يكفى أن يكون مرة ، حتى يحقق هذا المعنى ، وأنك حين أصبحت فى الكعبة مشاهدا لها ، فكل مكان فيها يجب أن تعظمه .

وقالوا : إن الكعبة على سَمْت البيت المعمور . يعنى : أنه فوقها ، فكأن جو الكعبة هذا يصير فى الجو إلى أن ينتهى إلى البيت المعمور .

فالذين يصلون فى الدور الثالث من الكعبة « فى الحرم » يتجهون بوجوههم إلى أى شئ ؟

هل ينظر المصلى إلى أسفل لينظر إلى الكعبة التى هى أسفل منه ؟

أم ينظر أمامه أيضاً ؟ بالطبع ينظر أمامه فى محل سجوده .

وإلى أى شئ يتجه والكعبة ارتفاعها لا يتجاوز عدة أمتار ، فهى لا تحاذى حتى الدور الأول فضلًا عن الثانى والثالث ؟

قالوا : يتجه إلى جوّها . وكذلك من هو أعلى من ذلك يتجه إلى جوّها ، فمن يصلى فى الطائرة أيضًا يتجه إلى جوّها ، والذى يركب الصاروخ أيضًا يتجه إلى جوّها .

إذن .. جوها بداية من أول مقامها فى الأرض إلى أن تلتقى بالبيت المعمور .

فكل طواف تطوفه حول البيت يُمثِّل مصعدا ومعراجا من معارج السماء ، حتى إذا ما قضيت السبعة أشواط كأنك عرجت إلى السبع سماوات ، ولكن بشرط أن يكون بالصفاء الإشراقى .

فإذا ما جئت وذهبت لتصلى ركعتين بعد الطواف مثلًا فمن الناس من يقول : نصليها عند مقام إبراهيم ، ومقام إبراهيم بعيد عن الكعبة بمقدار خمسة أمتار .

ooo

قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا ﴾ [آل عمران : ٩٦] ، إن بعض الناس يظن أن إبراهيم عليه السلام هو الذى بنى البيت . ولمثل هذا القائل نرد : لنفهم القرآن معًا . إن مثل هذا القول يناقض القرآن ؛ لأن القرآن قد قال : ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ ﴾ وهذا يوضح أن إبراهيم كان من قبله أناس سابقون له .

إذن .. فكيف لا يكون للناس من قبل إبراهيم بيت ، وكذلك للناس من بعد إبراهيم[1] .

---

(١) عن أبى ذر رضى الله تعالى عنه قال : قلت : يا رسول الله أى مسجد وضع فى الأرض أول ؟ قال : « المسجد الحرام » ، قال : قلت : ثم أى ؟ قال : « المسجد الأقصى » ، قلت : كم كان بينهما ؟ قال : أربعون سنة ، ثم أينما أدركتك الصلاة بعد فصَلِّه ، فإن الفضل فيه » .
رواه البخارى [٣٣٦٦،٣٤٢٥] واللفظ له ، ومسلم [١/٥٢٠] ، وابن ماجه [٧٥٣] ، والبيهقى فى الدلائل [٢/٤٤] ، وأحمد فى المسند [٥/١٥٠] .
وعن خالد بن عرعرة قال : سأل رجل عليا رضى الله تعالى عنه عن ﴿ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا ﴾ [آل عمران : ٩٦] هو أول بيت وضع فى الأرض ؟ قال : لا ، ولكنه أول بيت وضع فيه البركة والهدى ، ومقام إبراهيم ، ومن دخله كان آمنًا ، وإن شئت أنبأتك كيف بناؤه . « إن الله تبارك وتعالى ، أوحى إلى إبراهيم عليه السلام : أن ابن لى بيتًا فى الأرض ، فضاق به ذرعًا ، فأرسل الله عز وجل إليه السكينة ، وهى ريح خجوج لها رأس ، فأتبع أحدهما صاحبه حتى انتهت ثم تطوقت إلى موضع البيت تطوق الحية ، فبنى إبراهيم ، فكان يبنى هو ساقًا كل يوم ، حتى إذا بلغ مكان الحجر ، قال لابنه : ابغنى حجرًا فالتمس ثَمَّ حجرًا حتى أتاه به ، فوجد الحجر الأسود قد ركب ، فقال له ابنه : من أين لك هذا ؟ قال : جاء به من لم يتكل على بنائك ، جاء به جبريل عليه السلام ، من السماء فأتمه . قال : فمر عليه الدهر ، فانهدم ، فبنته العمالقة ، قال : فمر عليه الدهر ، فانهدم ، فبنته جرهم ، فمر عليه الدهر ، فبنته قريش ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم ، يومئذ رجل شاب ، فلما أرادوا أن يرفعوا الحجر الأسود اختصموا فيه ، فقالوا تُحَكِّمُ بيننا أول رجل يخرج من هذه السكة ، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم أول من خرج عليهم ، فقضى بينهم أن يجعلوه فى مرط ، ثم ترفعه جميع القبائل كلهم » . وقوله : خجوج : شديدة .
=

إن الذين كانوا يعيشون قبل مجيء إبراهيم عليه السلام لهم نفس الحقوق عند الله التى وضعها لمن بعد إبراهيم ؛ لذلك فلابد أن الله قد جعل بيته لهم ، والنص القرآنى : ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ ﴾ وما دام قد جاء الفعل مبنيا للمجهول فواضعه غير الناس . هل هم الملائكة ؟ قد يصح ذلك ، وأن يكون الملائكة قد تلقوا الأمر من الله بمزاولة هذا البناء ، لكن قول الحق : ﴿ وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴾ فهذا البيت أيضًا هدى للملائكة لأنهم عالم ، وهذا يعنى أن البيت قد وضعه الله من قبل ذلك ، ولا أحد يقدر أن يصنع الكون على قدر العقل البشرى .

إن على العقل البشرى أن يكون فى ركاب الكون ، وإياك أن تجعل أيها المؤمن الكون فى ركاب عقلك ، أما مسألة أن إبراهيم قد بنى الكعبة فهذا عدم فهم للنص القرآنى : ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ [البقرة : ١٢٧] ما هو الرفع ؟ فى الآية إيجاد بعد الارتفاع ، فأين الطول والعرض ؟ إن وجود الطول والعرض سابقان للارتفاع دليل على وجود البيت قبل أن يقيم إبراهيم عليه السلام ارتفاع البيت .

إذن .. فالذى كان مطموسًا هو القواعد والارتفاع ، إن وجود الطول والعرض هو الذى يحدد المكان ، أما البنية فهى التى تحدد « المكين » وعندما انهدم البيت الحرام ،

* رواه الحاكم فى المستدرك [٢٩٣/٢] ، وصححه على شرط مسلم ووافقه الذهبى ، ورواه ابن جرير فى التفسير [٧١،٦٩/٣] ، والبيهقى فى الدلائل [٥٦،٥٥/٢] ، والأزرقى فى تاريخ مكة [٢٥،٢٤/١] . وزاد السيوطى عزوه فى الدر [١٢٦/١] لابن أبى شيبه وإسحاق بن راهويه فى مسنده وعبد بن حميد ، والحارث بن أبى أسامة وابن أبى حاتم .

وقال الحافظ ابن حجر رحمه الله فى فتح البارى [٦٢/٧] : أخرجه إسحاق بن راهويه وابن أبى حاتم ، وغيرهما بإسناد صحيح .

وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنه قال : « جاء إبراهيم عليه السلام فوجد إسماعيل يصلح له بيتًا من وراء زمزم فقال له إبراهيم : يا إسماعيل إن ربك قد أمرنى ببناء البيت ، فقال له إسماعيل : فأطع ربك فيما أمرك ، قال : فأعنّى عليه ، قال : فقام معه فجعل إبراهيم يبنيه وإسماعيل يناوله الحجارة ، ويقولان : ﴿ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ . رواه الحاكم فى المستدرك [٥٥٢/٢] ، وصححه على شرطهما ووافقه الذهبى وله شواهد من الأحاديث التى قبله .

كان الناس يتجهون إلى نفس المكان ، وعندما نصلى نحن فى الطابق الثالث فى الحرم فإننا نتجه إلى الهواء الموجود فوق الكعبة ، ولو حفرنا نفقًا تحت الأرض بألف متر ، وأردنا أن نصلى فإننا سنتجه إلى أساس الكعبة . إذن فجو الكعبة « كعبة » فعمل إبراهيم عليه السلام كان فى إيجاد المكين لا المكان ، لقد رفع البيت .

ولتقرأ بالفهم الإيمانى ما حدث لإبراهيم عليه السلام ، لقد أخذ إبراهيم هاجر وابنها إسماعيل وخرج بهما ليضعهما فى هذا المكان ، فماذا قالت هاجر لزوجها : هل أنزلك الله هذا المكان أم أنه من اختيارك ؟ إنها تعرف أن مكونات الحياة هى المياه والهواء والقوت ، وهذا المكان لا توجد به حتى المياه ؛ لذلك قالت هاجر سائلة إبراهيم : كيف تتركنا هنا ؟ وهل أنزلتنا هنا برأيك أم بتوجيه من الله ؟ فقال لها إبراهيم عليه السلام : إنه توجيه من الله . لذلك قالت : لقد اطمأننت والله لا يضيعنا أبدًا ، إنه الإيمان العالى ؛ لذلك لم تقلق هاجر ؛ لأن إبراهيم اتجه إلى ما أمره الله .

هكذا نرى الإيمان فى قمته ، ولو لم يكن الإيمان على هذه الدرجة الرفيعة فأى قلب لأم تترك الزوج يذهب بعيدًا عنها ويترك ابنها فى هذا المكان الذى لا يوجد به طعام أو ماء ، إنها لا تؤمن بإبراهيم ، ولكنها تؤمن برب إبراهيم .

وعندما تقرأ القرآن الكريم تجد قول الحق سبحانه وتعالى على لسان إبراهيم : ﴿ رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴾ [إبراهيم : ٣٧] . هكذا نعرف أنه ساعة إسكان إبراهيم لذريته كان هناك بيت محرم ، وعندما نقرأ عن رفع البيت الحرام نجد أن إبراهيم عليه السلام لم يرفع قواعد البيت بمفرده ، بل شاركه ابنه إسماعيل عليه السلام ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ هكذا نعلم أن إسماعيل عليه السلام كان قد نضج بصورة تسمح له أن يساعد والده خليل الرحمٰن إبراهيم عليهما السلام فى إقامة قواعد البيت الحرام ، لكن عندما كان إسماعيل طفلًا فقد أسكنه والده إبراهيم عند البيت الحرام .

هكذا نتيقن أن البيت المحرم كان موجودًا من قبل إبراهيم عليه السلام ، وعندما ندقق النظر فى معنى كلمة : « بكة » التى وردت فى هذا القول الكريم : ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا ﴾ [آل عمران : ٩٦] ، ونحن نعرف أن هناك اسمًا لمكان البيت الحرام هو : « بكة » وهناك اسما آخر هو : « مكة » ، وبعض العلماء يقول : إن « الميم » و « الباء » يتعاونان ، وتلحظ ذلك فى الإنسان الأخنف أو المصاب بزكام أنه ينطق « الميم » كأنها « باء » و « الميم والباء » حرفان قريبان من طريق النطق والألفاظ منها تأتى مع بعضها .

ولننظر إلى اشتقاق « مكة » واشتقاق « بكة » ، إننا نقرأ « بك المكان » أى : ازدحم المكان ، وهكذا نعرف أن قول الحق : ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا ﴾ أى : أنه المكان الذى ازدحم ، وهو مكان الازدحام الذى يأتى إليه كل الناس وكل الوفود ؛ لتحج بيت الله الحرام ، ولا أدل على ازدحام البيت الحرام من أن الرجال والنساء يختلطون بعضهم ببعض ، والإنسان يطوف بالبيت الحرام ولا يدرى أنه يسير وقد يلمس امرأة أثناء الطواف . و « بكة » هى المكان الذى فيه الطواف والكعبة . و « مكة » هو اسم مكان البيت الحرام ، إن « بكة » هو اسم مكان البيت الحرام و « مكة » اسم البلد الذى يوجد به البيت الحرام ، و « مكة » مأخوذة من « مك الفصيل الضرع » أى : امتص كل ما فيه من لبن ، والفصيل -كما نعرف- هو صغير الإبل أو صغير البقر ، وما دام الفصيل قد امتص كل ما فى الضرع من لبن ، فمعنى هذا أنه جائع وكما نعرف أن مكة ليس فيها مياه والناس تكاد أن تمتص المياه القليلة عندما تجدها [1] .

﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴾ وفى كلمة « مباركًا » نجدها مأخوذة من « الباء والراء والكاف » والمادة كلها تدور حول شىء

(١) بكة : بالباء هى مكة : ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا ﴾ سميت بكة ؛ لأنها تبك أعناق من يعتدى عليها ، كما سميت « القاهرة » لأنها تقهر من يعتدى عليها ، أو سميت « بكة » لأنها تبك أعناق الأنعام التى تذبح ضحايا وهَدْيًا للكعبة ، من بكَّ الشىء : هشمه ومزقه أو من بكة : أى زحمة ، وتباكَّ الناس تزاحموا ؛ لأن الناس يتزاحمون فيها . وقيل : مكة سائر البلد ، وبكة : مكان البيت . [القاموس القويم للقرآن الكريم]

اسمه الثبات . و « الثبات » هل هو الثبات الجامد أو الثبات المعطى النامى الذى مهما أخذت منه فإنه ينمو أيضًا ؟ ، ونحن فى حياتنا العادية نقول : إن هذا المال فيه بركة مهما صرفت منه فإنه لا ينتهى . أى : أنه ثابت لا يضيع ويعطى ولا ينفد ، وكلمة « بِرْكة » فى حياتنا تعنى : تجمعٌ من الماء نأخذ منه بعض الماء ، ولكن الماء يأتى إليها مرة أخرى ، وكلمة : « تبارك الله » تعنى « ثبت الحق » ولم يزل أزلًا ولا يزال هو واحد إنه الثبوت المطلق ، وهكذا نجد أن الثبات فى معنى البيت الحرام ، إن البيت الحرام مبارك ، وإذا سأل أحد كيف ؟ نرد على هذا القائل : أليست تضاعف فيه الحسنة [1] ؟ وهل هناك بركة أحسن من هذه ؟ وهل هناك بركة أفضل من أنه بيت تجبى إليه ثمرات كل شئ ولا تنقطع ، فقد كان الراحل إلى البيت الحرام يأخذ معه حتى الكفن ، ويأخذ الإبرة والخيط ، والملح ، والآن فإن الزائر لبيت الله الحرام يأتى بكماليات الحياة من هناك .

﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴾ ما هو الهدى ؟ قلنا : إن الهدى هو الدلالة الموصلة للغاية ؛ ومن يزر البيت الحرام يخرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه [2] ، فهل اهتدى للجنة أم لا .؟ إنه يعرف بحج البيت الحرام الطريق إلى الجنة ، وحينما ننظر إلى هذه المسألة نجد أن الحق سبحانه وتعالى لما تكلم عن البيت ، لم يتكلم إلا عن آية واحدة فيه مع أن فيه آيات كثيرة ، قال الحق : ﴿ فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [آل عمران : ٩٧] ، إننا نجد صيغة الجمع موجودة فى قول الحق : ﴿ فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ ﴾ ، وبينات هى وصف الجمع ، وبعد ذلك قال الحق : ﴿ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ تدل على الآيات البينات ، وقد يقول قائل : أليس فى المقدور أن نضيف الأمان الممنوح لمن دخل البيت مع مقام إبراهيم ؛ لتكون هذه هى الآيات

(١) عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « صلاة فى مسجدى هذا خير من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام » . رواه البخارى [١١٩٠] .

(٢) عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من حج هذا البيت فلم يرفث ولم يفسق رجع كما ولدته أمه » . وفى رواية : « كيوم ولدته أمه » . رواه البخارى [١٨١٩، ١٨٢٠] .

الموجودة فى البيت الحرام ؟ لكن الآيات فى البيت الحرام أكثر من هذا بكثير ؛ بل إننا عندما نرى مقام إبراهيم نجد فيه الآيات البينات ، ونحن نقرأ : ﴿ مَقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ بفتح الميم الأولى فى كلمة : « مقام » ولا ننطقها « مُقام » بضم الميم الأولى ؛ لأن « المُقام » بضم الميم تعنى مكان إقامة إبراهيم ، أما « مَقام » بفتح الميم فهى مكان القيام .

لماذا كان قيام إبراهيم عليه السلام ؟ لقد كان إبراهيم يقوم ليرفع قواعد البيت الحرام ، وكان إبراهيم يقوم على « حجر » وعندما تنظر إلى ﴿ مَقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ فإنك تجد فيه كل الآيات الدينية لماذا ؟ لأن الله طلب من إبراهيم عليه السلام أن يرفع قواعد البيت ، وكان يكفيه حين يرفع قواعد البيت أن يعطيه الارتفاع الذى يؤديه طول يديه وبذلك يكون إبراهيم عليه السلام قد أدى مطلوب الله ، لكن إبراهيم عليه السلام تعود مع الله أن يؤدى كل تكليفات الله بحب وإكمال وإتمام ، لذلك تساءل إبراهيم عليه السلام ، ولماذا لا أرفع البيت أكثر مما تطول يداى ؟ ولم تكن هناك فى ذلك الزمن القديم فكرة « السقَّالات » ولم يكن مع إبراهيم عليه السلام إلا إسماعيل ، وأحضر إبراهيم عليه السلام حجرًا ووقف عليه ، وعندما يأتى إبراهيم بحجر يضعه تحت قدميه ليقف عليه ، فإنه يرفع القواعد قدر الحجر .

إذن .. فإبراهيم خليل الرحمٰن أراد أن ينفذ أمر الله بالرفع للقواعد لا بقدر الاستطاعة البدنية له ، ولكن بقدر الاستطاعة البدنية وبقدر الاحتيال على أن يرفع القواعد فوق ما يطلبه الله ، وهذا يوضح لنا معنى ما يقوله عن إبراهيم عليه السلام : ﴿ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [البقرة : ١٢٤] أى : أنه أدى مطلوب الله أداءً كاملًا ، ولا أدل على الأداء من أنه أخذ الحجارة وأتى بحجر منها ليقف عليه وليزيد من ارتفاع البيت قدر هذا الحجر ، نحن نعرف أن إسماعيل قد شارك فى رفع القواعد للبيت الحرام ، وعندما ننظر إلى الحجر نجده لا يسع إلا وقوف إنسان واحد عليه ، وهكذا نفهم أن إسماعيل كان يساعد ويناول والده الأحجار .

أما مكان الأقدام الموجودة فى هذا الحجر فهذا يعنى أن إبراهيم عندما كان يقف ويحمل حجرًا من المفروض أن يحمله اثنان كان لابد من ثبات القدمين فى مكان آمن ،

وكان إسماعيل يساعد فقط فى نقل الأحجار وكان إبراهيم هو الذى يحمل الحجر ، وعندما يحمل إبراهيم وزنًا لا يحمله إلا اثنان ويقف ليرفعه فلعله خاف أن يقع من على الحجر ، فهل يا ترى أن الله سبحانه وتعالى جلت قدرته ساعة أن رأى إبراهيم يحتال هذه الحيلة قال لخليله : سأكفيك مئونة ذلك ، وجعل الحق القدمين تغوصان فى الحجر غوصًا يسندها إن هى زلت ، والذى لا يتسع ذهنه إلى أن الله ألان لإبراهيم الحجر ، نقول له : إن إبراهيم قد احتال وخاف أن يتزلق أو تزل قدمه من على الحجر فنحت مكانًا فى الحجر على قدر قدمه ، وحتى يثبت قدمه فى الحجر وحتى يستطيع أن يحمل ويرفع الحجر الذى يحمله اثنان ، وهذه آيات بينات ، والذى يرجح هذا أننا نجد أن مكان القدم فى الحجر هى تعليمة مستوية ؛ لأن الإنسان حين يضع رجلًا فإن للرجل بصمة خاصة ، لكن المكان للقدمين فى حجر إبراهيم مستوٍ . ولمن لا يتسع ذهنه أن الله ألان له الحجر ، فليتسع ذهنه إلى أن إبراهيم حفر بنفسه مكانًا للقدمين فى الحجر[1] .

إذن .. إما أن الله أقر وأعان إبراهيم ؛ لأن إبراهيم فكر أن يبنى القواعد ويرفعها أكثر مما تطول يداه ، ولذلك أعانه الله ونحن نعلم أن الهداية تكون هداية الدلالة وهداية المعونة : ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴾ [محمد : ١٧] .

وإما أن يكون إبراهيم عليه السلام هو الذى صمم مكان القدم فصارت له .

○○○

---

(1) قال أبو طالب فى قصيدته اللامية المشهورة :

وموطئ إبراهيم فى الصخر رطبة   على قدميـــه حافيًا غير ناعـل

إعادة بناء الكعبة

فى عصر إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام

أوضح الحق لنا فى قرآنه الكريم أن أبا الأنبياء إبراهيم عليه السلام قد استحق الإمامة بنجاحه فيما ابتلاه الله من تكليفات ، قام إبراهيم عليه السلام بأدائها وأتم القيام بها بإتقان وتمام محبا لتكليف الله ، ولذلك كافأ الحق سبحانه وتعالى إبراهيم عليه السلام وجعله إمامًا .

وأراد خليل الرحمن أن تستمر الإمامة فى الأرض ؛ لتكون الإمامة سمة على وجود خلق يتمسكون بمنهج الله على طريق الوفاء والإكمال والإتمام ، لكن الحق جل وعلا وهو أعلم بكل خلقه ، عرف أن بعضًا من ذرية إبراهيم سيكونون على غير عهد الله وسيخالفون المنهج ، ولسوف يدَّعون لأنفسهم الأفضلية والتمايز على كل البشر لمجرد أنهم من نسل إبراهيم خليل الرحمن .

لذلك أخبر الحق جل وعلا إبراهيم خليل الرحمن أن عهده لا يناله الظالمون ، ولهذا جاء قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَـٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ [البقرة : ١٢٤] .

إذن .. فهذه الآية دلت على أن الله أنبأ إبراهيم من قديم الزمن على أن بعضًا من ذريته سيكون ظالمًا ، وما دام بعض ذرية إبراهيم سيكون ظالـمًا بالخروج عن منهج الله ، ويدعون لأنفسهم أنهم خير خلق الله لمجرد أنهم ينتسبون لإبراهيم عليه السلام ، ويدعون لأنفسهم أنهم شعب الله المختار ، وأنهم موطن النبوة ، والإمامة تكون فيهم وحدهم ، وكان هذا البعض من ذرية إبراهيم هم بنو إسرائيل ؛ لذلك جاء القول الفصل من الحق : ﴿ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ لقد كان هذا القول الفصل إشعارًا بأن من ذرية إبراهيم من سيصير ظالـمًا ، ولقد أوضحنا أن النبوة لها بنوة تختلف عن البنوة فى سائر البشر ، إن البنوة فى البشر العاديين تعنى الانتماء الدموى أو النسبى أو الجنسى ، أما البنوة فى الأنبياء فهى الانتماء للعقيدة والمنهج الذى يجىء به النبى المرسل من عند الحق سبحانه وتعالى ، ولنا أن نعرف أن الانتماءات فى ذلك الكون متعددة .

ومعنى الانتماء هو أن يحسب الإنسان نفسه على شىء ، وهذا الشىء يطلب من الإنسان أن يسير على مقتضاه ، فمثلًا : قد ينتمى الإنسان إلى الأرض ، ولنا أن نعرف أن كلمة : « الوطنية » قد خرجت إلى الكون من أجل انتماء الإنسان إلى الأرض ؛ لذلك يقول المصرى مثلًا : « وطنى مصر » وقد ينتمى الإنسان إلى الجنس فيقول الإسرائيلى : أنا من أبناء إسرائيل ، وهذا يعنى أنه يختص نفسه بمقولة أنه من أحفاد يعقوب عليه السلام بن إسحاق بن إبراهيم عليه السلام ، وقد يقول العربى : أنا عربى . وهذا يعنى أنه ينتمى إلى العروبة ، ولنا أن نفرق بين انتماء الإسرائيلى إلى بنوة يعقوب ذلك أن الاحتفاظ بسلالة نقية عبر عصور طويلة أمر غاية فى الاستحالة ، أما الانتماء للعروبة رغم أنه بدأ من سلالة إسماعيل عليه السلام ، إلا أنه انتماء لا يضيق بساكن للمنطقة التى ينطق أهلها اللغة العربية .

وقد يكون الانتماء إلى مذهب ، ومثال ذلك : أن سكان البلاد الغربية تتبع حكوماتهم وأغلبيتهم النظام الرأسمالى ، وسكان البلاد الشرقية الخاضعة لحكومات شيوعية ينتمون إلى هذا المذهب الشيوعى .

إذن .. فمعنى الانتماء هو الجهة التى يحسب الإنسان نفسه عليها ليخدم قضيته ، وليس عند الله لون من الانتماء من تلك الأنواع ، إن الانتماء المعترف به عند الله هو الانتماء القيمى أى الانتماء لمنهج الله ، فالإسلام لا يفرق بين وطن ووطن ، أو جنس وجنس ، أو دم ودم . إن الإسلام يُعرف بالقيم التى يرتبط بها الإنسان أيًّا كان لونه وأيًّا كان جنسه ، وأيًّا كان مذهبه ، إن الإسلام انتماء قيمى .

إذن .. فقول الحق : ﴿ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ هذا القول يحدد موقع الانتماء فى البشر ، وبعد ذلك أراد الحق أن يصفى أيضًا قضية بيت المقدس والقبلة ، فأثبت الحق لنا أن بيت المقدس بيت حديث من إنشاء داود وسليمان ، لكن الكعبة هى بيت من اختيار الله ، فأيهما إذن أولى فى الاتجاه إليه ؟ أنتجه إلى البيت القديم باختيار الله ، أم نتجه لبيت هو لله أيضًا ، ولكنه باختيار خلق الله ؟!

إذن .. فالقضايا التى كان يتاجر بها اليهود المعاصرون لرسول الله صلى الله عليه وسلم على المؤمنين الأوائل فى الإسلام ، إنما كان الهدف منها أن يصرفوا المؤمنين بالإسلام عن

دينهم ، ولذلك أراد الله أن يبطل هذه المتاجرة ، لذلك نزل حكمه الكريم بقوله تعالى : ﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ۖ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَـٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴾ [البقرة : ١٢٥] ، البيت معناه يطلق على الدار وعلى المنزل ؛ لأن الإنسان يخرج إلى العمل والسعي للرزق في الأرض ثم يعود إلى البيت ليأوي إليه ، وقد جعله الله مثابة للناس - أي ليثوب الناس إليه ويرجعوا - لأنه بيت ربهم .

فإذا أفزعك شئ فاذهب إلى بيت رحمة ربك لتجد رحمة ربك في استقبالك ؛ فيزيح عنك كل ما يمكن أن يتعبك في الحياة ، وما دام الإنسان يثوب إلى الله فلابد أن يكون في أمن ، ومادام الإنسان في بيت الله فلا فزع ، وقلنا : إن الله قد جعل بيته آمنًا فليس ذلك إخبارًا منه لنا ، ولكنه طلب من الحق إلى المؤمنين به أن يجعلوا البيت الحرام آمنًا ، فإن أطاعوا الله جعلوا البيت آمنًا ، وإن لم يطيعوا الله جعلوا الناس يفزعون فيه .

ونأتي إلى قول الحق : ﴿ وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ۖ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَـٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴾ وهكذا كان الأمر الإلهي الصادر بأن نجعل من مقام إبراهيم خليل الرحمن مصلى ، والمصلى معناه مكان الصلاة ، والصلاة تطلق ويراد بها الدعاء[1] ، وفي ذلك يقول الحق جل وعلا : ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [التوبة : ١٠٣] وهذه الآية الكريمة تتضمن التوجيه الصادر من الله إلى الرسول الكريم أن يأخذ من أموال التائبين صدقات تطهرهم بها من الذنوب والشح ، وترفع درجاتهم عند الله ، وأن يدعو الرسول لهم بالخير والهداية ، فدعاء الرسول تسكن به النفوس وتطمئن به القلوب ، والله سميع للدعاء ، عليم بالمخلصين في التوبة ، وتطلق الصلاة أيضا على الصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم عندما نقول في التشهد :

(١) عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من صلى عليّ واحدةً ، صلى الله عليه عشرًا » . رواه مسلم [٧٠/٤٠٨] وأبو داود [١٥٣٠] واللفظ لهما ، والترمذي [٤٨٥] .

« اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم في العالمين إنك حميد مجيد »[1] ، وتطلق الصلاة أيضا على الصلاة الشرعية التي نعرفها جميعًا وهي التي نفتتحها بالتكبير ونختتمها بالتسليم وبشرائطها المخصوصة[2] ، وحين نأتي إلى المعنى العام في الصلاة ، فإننا نقصد الصلاة الشرعية فهي تشمل دعاءً إلى الله ، وصلاةً على رسول الله صلى الله عليه وسلم وتشمل الشكل والمضمون ، والمراد المخصوص بالصلاة الذي أراده الله سبحانه وتعالى .

وقد يسأل أحد : ما معنى كلمة « مقام »[3] ؟ إن كلمة « مقام » تأتي أحيانًا مفتوحة الميم كما في قوله تعالى : ﴿ وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ﴾ ، وتأتي كلمة : « مُقام » في أحيان أخرى مضمومة الميم كما في قوله سبحانه وتعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَـٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ۚ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴾ [الأحزاب : ١٣] ، وقد نزلت هذه الآية في بعض من ضعاف النفوس والمنافقين الذين حاولوا أن يهربوا من مواجهة العدو ، وكان ضعاف النفوس هؤلاء من أهل المدينة ؛ لذلك ادَّعوا أن بيوتهم عورة ولابد من حراستها ، وكان ذلك تغطية للهرب من المعركة[4] ولنا أن نعرف أن « مقام » المفتوحة الميم هي اسم

(١) عن كعب بن عُجرة رضي الله تعالى عنه قال : خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلنا : قد عرفنا كيف نسلم عليك ، فكيف نصلي عليك ؟ قال : « قولوا : اللهم صلِّ على محمد وعلى آل محمد ، كما صليت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد ، اللهم بارك على محمد وعلى آل محمد ، كما باركت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد » . رواه مسلم [٦٦/٤٠٦] .

(٢) عن علي رضي الله تعالى عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مفتاح الصلاة الطُّهور ، وتحريمها التكبير وتحليلها التسليم » . رواه أبو داود [٦١٨] وصححه الألباني .

(٣) المَقام والمُقام : قد يكون كل واحد منهما بمعنى الإقامة ، وقد يكون بمعنى موضع القيام ؛ لأنك إذا جعلته من قام يقوم فمفتوح ، وإن جعلته من أقام يقيم فمضموم ، وقرئ قوله تعالى : « لا مَقامَ لكم » أي : لا موضع لكم ، وقرئ : ﴿ لَا مُقَامَ لَكُمْ ﴾ بالضم ، أي : لا إقامة لكم . لسان العرب [٤٩٨/١٣]

(٤) يقول الله تعالى مخبرًا عن ذلك الحال حين نزلت الأحزاب حول المدينة ، والمسلمون محصورون -

مكان من قام ، أما « مُقام » المضمومة الميم فهى اسم مكان من أقام ، وهكذا نفهم أن قول الحق : ﴿ وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ﴾ كان هذا القول مقصودًا به اسم مكان ، مأخوذًا من الفعل قام . أى : أن الحق ينبهنا إلى أن المكان الذى قام إبراهيم عليه السلام عليه ليعيد بناء الكعبة هو المقصود بتلك الجملة ، أى أن الحجر الذى نراه فى الكعبة ، وعليه أراد إبراهيم أن يرفع قواعد البيت الحرام ، هذا الحجر يمكن الصلاة حوله وفيه ، ونحن متجهون بوجوهنا إلى الكعبة ، فالمسلمون الأوائل كانوا يتحرجون من الصلاة فى هذا المكان ؛ لأن المقام كان موجودًا بين المصلى وبين الكعبة ، وكان الناس يتحرجون أن يقيموا الصلاة وبينهم وبين الكعبة شىء ، لذلك كان هذا المكان يخلو من المصلين فلا يصلى فيه أحد ، وهنا قال عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه لرسول الله صلى الله عليه وسلم : « ألا نتخذ من مقام إبراهيم مصلى ؟ » لقد أراد ابن الخطاب رضى الله تعالى عنه أن تعم الصلاة كل المكان بحيث لا توجد جهة من جهات الكعبة إلا وفيها صلاة ، وهنا أنزل الحق تبارك وتعالى هذا القول الحكيم : ﴿ وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ﴾ [البقرة : ١٢٥] ، وكان هذا القول الحكيم من المواضع التى وافق فيها القرآن الكريم عمر ، وهناك أكثر من موقف وافق فيها القرآن عمر بن الخطاب .

ها هو ذا ابن الخطاب رضى الله تعالى عنه يقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم : « يا رسول الله إن من زوار بيتك البر والفاجر ألا أمرت نساءك بأن يحتجبن ؟ » وينزل القرآن الكريم بآيات الحجاب ، وهناك أكثر من موقف نزل فيه القرآن ليؤيد رأيًا لعمر بن الخطاب[1] ، ونحن نلحظ أن الموافقات القرآنية لها ملحظ تشريعى ، وعمر بن الخطاب

= فى غاية الجهد والضيق ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم بين أظهرهم إنهم ابتلوا واختبروا وزلزلوا زلزالا شديدًا ، فحينئذ ظهر النفاق وتكلم الذين فى قلوبهم مرض بما فى أنفسهم .. إلخ انظر تفسير ابن كثير [٣/٤٥٥-٤٥٦] .

(١) عن أنس رضى الله تعالى عنه قال : قال عمر رضى الله تعالى عنه : وافقت الله فى ثلاث - أو وافقنى ربى فى ثلاث - قلت : يا رسول الله ! لو اتخذت من مقام إبراهيم مصلى . وقلت : يا رسول الله يدخل عليك البر والفاجر ، فلو أمرت أمهات المؤمنين بالحجاب ؟ فأنزل الله آية الحجاب . قال : وبلغنى معاتبة النبى صلى الله عليه وسلم بعض نسائه ، فدخلت عليهن =

بشر غير مؤيد بالوحى ، وكأن الله يريد أن يثبت للناس أن الفطرة إذا سلمت وإذا صفت ، فإنها بذاتها تستطيع أن تهتدى إلى حكم الله ، فكأن الله لم يكلفنا بأى شىء تعنتًا إنما هو يكلفنا بما يهدينا إلى الفطرة الصافية السليمة ؛ ولكن ما أقل أن تصفو الفطرة .

إننا عندما نتحدث عن عدالة عمر وحزم عمر ، إنما نتحدث عن الفطرة فى قمة صفائها ، ولقد أراد الله لنا أن يكون أمر الفطرة الصافية واضحًا فى واحد من الخلفاء الراشدين ، وأحد صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم المؤيد بالوحى والذى اختاره الله أسوة حسنة ، إنها فطرة إنسان مؤمن تستطيع أن تصفو وأن تصل إلى حكم الله ، هكذا كان أمر اتخاذ مقام إبراهيم مصلى ، ومقام إبراهيم عليه السلام كان مكان قيام إبراهيم عليه السلام ببناء البيت[1] .

= قلت : إن انتهيتن أو ليبدلن الله رسوله صلى الله عليه وسلم خيرا منكن حتى أتت إحدى نسائه ، قالت : يا عمر أما فى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يعظ نساءه حتى تعظهن أنت ؟! فأنزل الله : ﴿ عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَٰتٍ ﴾[1] [التحريم : ٥] . والترمذى مختصرا بلفظ : عن أنس رضى الله تعالى عنه قال : قال عمر بن الخطاب : قلت يا رسول الله لو اتخذت من مقام إبراهيم مصلى ؟ فنزلت : ﴿ وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ﴾[2] .

(١) يقول ابن كثير فى تفسير قوله تعالى : ﴿ وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ﴾ . وقد كان هذا المقام ملصقًا بجدار الكعبة قديما ؛ ومكانه معروف اليوم إلى جانب الباب مما يلى الحجر يمنة الداخل من الباب ، فى البقعة المستقلة هناك ، وكان الخليل عليه السلام ، لما فرغ من بناء البيت وضعه إلى جدار الكعبة ، أو أنه انتهى عنده البناء فتركه هناك ، ولهذا - والله أعلم - أمر بالصلاة هناك عند الفراغ من الطواف ، وناسب أن يكون عند مقام إبراهيم حيث انتهى بناء الكعبة فيه ، وإنما أخره عن جدار الكعبة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه أحد الأئمة المهديين والخلفاء الراشدين ، الذين أُمِرنا باتباعهم ، وهو أحد الرجلين اللذين قال فيهما رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اقتدوا باللذين من بعدى : أبى بكر وعمر » ، وهو الذى نزل القرآن بوفاقه فى الصلاة عنده ولهذا لم ينكر ذلك أحد من الصحابة رضى الله تعالى عنهم أجمعين [١/١٦٢] . =

(١) رواه البخارى [٤٤٨٣] .

(٢) رواه الترمذى [٢٩٦٠] وصححه الألبانى .

لقد أمر الحق إبراهيم وإسماعيل أن يرفعا القواعد ، وأن يطهرا البيت ولم يكن هذا الأمر قابلًا للتنفيذ ، إلا بعد أن أوجد الله البيت وبعد ذلك ترفع فيه القواعد . إن الحجر الذى كان يقوم عليه إبراهيم عليه السلام ليرفع القواعد من البيت هذا هو المقام ، ويريد الله أن يلفتنا إلى أشياء هى أحداث قصة هذا المقام .

إن العلماء قد اختلفوا فى بداية البيت الحرام بعضهم قال : إن البيت الحرام قد تم بناؤه فى عهد إبراهيم عليه السلام ، وبعضهم قال : إن البيت الحرام قد تم بناؤه فى عهد آدم عليه السلام ، وبعضهم قال : إن البيت الحرام قد أوجده الله قبل آدم عليه السلام ، ولننظر بالمنطق والاستقراء العقلى أى الآراء الثلاثة هو الصحيح[1] .

إن العلماء الذين قالوا : إن البيت الحرام قد تم بناؤه فى عهد إبراهيم عليه السلام لابد أن نقول لهم : لقد أقمتم الدليل على رأيكم من قول الحق : ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ [البقرة : ١٢٧] .

لابد هنا أن نفرق بين الرفع والبناء ، إن البناء يستدعى ألا يوجد البيت ثم يتم بناؤه بعد ذلك . أما الرفع فهو الإعلاء والصعود ، أى أن البيت الحرام كان موجودًا قبل

= والحديث رواه الترمذى عن حذيفة بن اليمان [٣٦٦٢] عن ابن مسعود رضى الله تعالى عنه [٣٨٠٥] ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اقتدوا باللذين من بعدى من أصحابى ، أبى بكر وعمر ، واهتدوا بهدى عمر ، وتمسكوا بعهد ابن مسعود » . وذكره الألبانى فى صحيح الجامع الصغير [١١٤٤] .

(١) وقال عبد الرزاق أيضًا أخبرنا معمرعن قتادة قال : وضع الله البيت مع آدم ، أهبط الله آدم إلى الأرض ، وكان مهبطه بأرض الهند وكان رأسه فى السماء ورجلاه فى الأرض ، فكانت الملائكة تهابه فنقص إلى ستين ذراعًا فحزن آدم إذ فقد أصوات الملائكة وتسبيحهم ، فشكا ذلك إلى الله عز وجل ، فقال الله : يا آدم إنى قد أهبطت لك بيتًا تطوف به كما يطاف حول عرشى وتصلى عنده كما يُصلى عند عرشى ، فانطلق إليه آدم فخرج ومد له فى خطوه ، فكان بين كل خطوتين مفازة فلم تزل تلك المفازة بعد ذلك ، فأتى آدم البيت فطاف به ومن بعده من الأنبياء .

انظر تفسير ابن كثير [١/١٧٠] .

إبراهيم عليه السلام ، وأقام البيت : أى جعل له ارتفاعًا ، وصار بذلك له طول وعرض وارتفاع أى صار له حجم[1] .

كأن الحق تبارك وتعالى حين يقول : ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ ﴾ . كان المقصود والمفترض من ذلك القول : أن خليل الرحمن أقام الجدران فقط أما الطول والعرض فقد كانا موجودين قبل إبراهيم عليه السلام ، وهكذا نعرف أن قواعد البيت قد انطمست بالسيل أو عوامل التعرية أو امتدادات الزمن ، إن الحق أراد أن يُظهر لنا المكين : وهو مكان البيت الحرام أى المساحة التى أقام عليها إبراهيم جدران الكعبة ، والحق يوضح لنا أن قواعد البيت كانت معلومة لإبراهيم عليه السلام ، ونحن نعرف أن الناس تصلى فى أى مكان فى العالم وتتجه إلى المكين ، وهو البيت الذى كان موجودًا قبل إبراهيم وأقام جدرانه إبراهيم عليه السلام . إن المكين هو مساحة البيت الحرام التى نتجه إليها عندما نقيم الصلاة ؛ سواء كنا فى بطن الأرض أو فى الفضاء أو فى نفق تحت الأرض أو على سطح الأرض . دليل آخر على أن المكين كان موجودًا قبل إبراهيم عليه السلام ، هذا الدليل هو غيرة سارة عندما لم تُطِقْ وجود هاجر معها بابنها إسماعيل ، كانت سارة بغير ولد وكانت هاجر لها ولد هو إسماعيل ، وكان من الطبيعى أن تغار سارة من هاجر ، وأخذ إبراهيم عليه السلام هاجر وابنها إسماعيل إلى الكعبة إلى مكان البيت الحرام وهنا يقول الحق : ﴿ رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴾ [إبراهيم : ٣٧] ، وهكذا نفهم أن إبراهيم أسكن ابنه إسماعيل وهاجر عند البيت الحرام ، ولم يكن مكان البيت الحرام محددا بالضبط لإبراهيم ، إنه يعرف المنطقة لكنه لا يعرف المساحة ولا يعرف حدود المكين .

ooo

(١) يقال : ارتفع الشيء ارتفاعًا بنفسه إذا علا . لسان العرب [٨/١٢٩]

أول من بنى الكعبة

قال الله سبحانه وتعالى : ﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴾ [الحج : ٢٦] . ساعة أن تسمع كلمة : ﴿ وَإِذْ ﴾ فافهم أنها ظرف زمان لحدث يأتى بعدها الخبر الذى حدث فى ذلك .

فإذا قال الله تعالى : ﴿ وَإِذْ ﴾ فإنه يخاطب رسوله قائلًا اذكر هذا الوقت الذى قيل فيه لإبراهيم هذا الكلام .

إذن .. فكل كلمة : ﴿ وَإِذْ ﴾ فى القرآن الكريم معناها خطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم بحدث وقع فى ذلك الوقت وكلمة : ﴿ بَوَّأْنَا ﴾ من المباءة ومعناها الرجوع يقول الله تعالى : ﴿ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ﴾ ، أى : رجعوا بغضب من الله ، والمكان المتبوأ : بقعة من الأرض يختارها الإنسان ليرجع إليها من متاعب حياته ، ويجعلها مستقرا له يعود إليه بعد قضاء مصالحه وأثناء عمله .

فالمباءة هى المكان الذى يرجع الإنسان إليه من حركة حياته ، ولا يرجع الإنسان إلى مكان يختاره من حركة حياته ، إلا إذا كانت فيه كل مقومات الحياة ، ولذلك يقول تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [يوسف : ٥٦] .

إذن .. قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ ﴾ أى جعلناه مباءة يرجع إليه من حركة حياته ، وأعلمناه بمكان البيت ، ونحن قلنا : إن المكان دائمًا غير المكين . فالمكان هو البقعة التى تقع فى المكين .

مسألة بناء البيت تكلم فيها العلماء كثيرًا ، وبعضهم ذهب إلى أن أول من بنى البيت هو إبراهيم عليه السلام[1] ، ونحن نقول : إن معنى أن الله بوأ لإبراهيم مكان

(١) قال صاحب سبل الهدى والرشاد فى عدد المرات التى بنيها البيت :
المرة الثالثة : عمارة أولاد آدم عليه السلام .

البيت أى بينه له . فكأن البيت كان موجودًا والذى يشهد لذلك أن الله تعالى يقول فى هذه القصة : ﴿ رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ ﴾ [إبراهيم : ٣٧] وهذا السكن كان حينما كان إسماعيل رضيعًا صغيرًا ، وتركه أبوه إبراهيم مع أمه هاجر فى هذا المكان المقفر الموحش .

وبعد ذلك كبر إسماعيل وساعد أباه فى رفع قواعد البيت ، فهذا يدل على أن البيت كان موجودًا قبل إبراهيم عليه السلام . والقرآن الكريم يقول : ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴾ [آل عمران : ٩٦] ، ولكن من هم الناس ؟ هم آدم وذريته إلى أن تقوم الساعة .

إذن .. آدم من الناس ، فإذا كان البيت قد وضع للناس فلابد أن يكون قد وضع لآدم أيضًا ، فوضع البيت كان قبل آدم ؛ لأن البيت موضوع للناس وآدم من الناس ، ومن هنا

= المرة الرابعة : عمارة سيدنا إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام : وجزم ابن كثير بأن الخليل أول من بنى البيت مطلقًا ، وقال : إنه لم يثبت خبر عن معصوم أن البيت كان مبنيًا قبل الخليل . انتهى . وفيه نظر لما ذكر من الآثار السابقة واللاحقة .

قلت : والبيت موجود قبل إبراهيم عليه السلام وقد حجه هود وصالح عليهما السلام لما ورد فى حديث ابن عباس رضى الله تعالى عنهما قال : لما مرّ رسول الله صلى الله عليه وسلم بوادى عسفان حين حج ، قال : « يا أبا بكر أى واد هذا ؟ » قال : وادى عُسفان . قال : « لقد مر به هود وصالح على بكرات حمر ، خطمها الليف ، أزرهم العباء ، وأرديتهم النمار يلبون يحجون البيت العتيق » .

رواه أحمد فى المسند [٢٣٢/١] وضعفه الشيخ شاكر [٢٠٦٧] ، وقال ابن كثير فى قصص الأنبياء [١١٤/١] : إسناد حسن ، وزاد السيوطى عزوه فى الدر [٩٧/٣] لأبى يعلى وابن عساكر . كما حجه موسى ويونس عليهم السلام بعد إبراهيم لما ورد فى صحيح مسلم [٢٦٨/١٦٦] ، وابن ماجه [٢٨٩١] .

عسفان : اسم موضوع بين الجحفة ومكة على طريق المدينة إلى مكة المكرمة .
بكرات : جمع بكرة ، وهى الفتية من الإبل .
الخطم : جمع خطام وهو الحبل الذى تقاد به الناقة .
النمار : جمع « نمرة » وهى الشملة المخططة من مآزر الأعراب كأنها أخذت من لون النمر .
سبل الهدى والرشاد [١٤٨/١] .

فمن قال : إن الملائكة هى التى بنته فقد صدق ، ويكون إبراهيم قد ذهب إلى هذا المكان بوحى من الله .

إذن .. هناك فرق بين إقامة مكين على مكان ، فالبيت موجود ولكن الطوفان لما جاء جرف معالم البيت ، فلما ذهبت معالم البيت أوحى الله لإبراهيم أن يبنيه فى هذا المكان من الوادى ، وقالوا : إن الله سبحانه بعث سحابة ظللت المكان ونطقت وقالت : يا إبراهيم خذ على قدرى[1] .

إذن .. نتنهى إلى أن البيت كان قبل إبراهيم ؛ لأن إبراهيم لم يكن عمله فى المكان وإنما كان عمله فى المكين لقول الله تعالى : ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَـٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ وكلمة يرفع معناها أن يوجد البعد الثالث ؛ لأن المساحة لها طول وعرض ، والارتفاع هو البعد الثالث ، فكأن الذى بوأه الله له هو المساحة طولًا وعرضًا ، وبعد ذلك أمره برفع القواعد وبدأ فى رفعها هو وإسماعيل عليهما السلام ، وهما قد أتيا إلى هذا المكان ليبنيا البيت ويقيما الصلاة لله سبحانه ، ويجب عليه أن يطهر هذا المكان من أى شىء يشعر بالشرك أو القذر .

هنا أول أمر صدر إلى إبراهيم عليه السلام فى الآية الكريمة : ﴿ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ ﴾ [الحج : ٢٦] ، فأول أمر هو عدم الشرك . وهل كان معقولًا أن يدخل إبراهيم فى الشرك ؟ فليس معقولًا أن يحدث منه هذا ، ولكن الله سبحانه حين يرسل رسولًا يصدر أمره إلى الرسول أولًا ، فهو أول من يتلقى الأمر من الله ليطبقه على

(١) روى البيهقى ، عن وهب بن منبه رحمه الله تعالى قال : « لما أغرق الله الأرض رفع البيت فوضع تحت العرش ، ومكثت الأرض خرابا ألفى سنة ، فلم تزل على ذلك حتى كان إبراهيم عليه السلام فأمره الله سبحانه وتعالى أن يبنى بيته ، فجاءت السكينة كأنها سحابة فيها رأس يتكلم ، ولها وجه كوجه الإنسان ، فقالت : يا إبراهيم خذ قدر ظلى فابن عليه ولا تزد شيئًا ولا تنقص . فأخذ إبراهيم قدر ظلها ثم بنى هو وإسماعيل البيت ، ولم يجعل له سقفا ... » .
وفى رواية عند الأزرقى فى أخبار مكة ، عن على رضى الله تعالى عنه : « قال الله تعالى لإبراهيم : قم فابن لى بيتا . قال : يا رب وأين أبنى ؟ فبعث الله سبحانه وتعالى سحابة فيها رأس تكلم إبراهيم ، فقالت : يا إبراهيم إن ربك يأمرك أن تخط قدر هذه السحابة ، فجعل ينظر إليها ويأخذ قدرها ، فقال له الرأس : قد فعلت » . راجع سبل الهدى والرشاد [١/١٠٥-١٠٦] .

نفسه ثم يبلغ به أمته بعد ذلك ، حتى لا يأمرهم بأمر هو عنه بنجوى . فمثلًا حينما يقول الله سبحانه وتعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ ﴾ [الأحزاب : ١] ، ثم يأتى النبى ليقول لنا اتقوا الله يكون الأمر سهلًا علينا ؛ لأن الله أمر به رسوله قبل أن يأمرنا به .

بعض الناس يفهمون أن كلمة اتق الله لا تقال إلا لمن حدث منه ما يخالف التقوى ، وهذا ليس صحيحًا ؛ لأن المعنى المقصود هنا : ابدأ حركة حياتك بتقوى الله ، والحق سبحانه قال : ﴿ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا ﴾ فذكر كلمة شىء لينفى أقل مظهر من مظاهر الشرك وألوانه ، من شجر أو حجر أو وثن مرسوم أو نجوم أو كواكب أو غير ذلك .

ومعنى ﴿ وَطَهِّرْ بَيْتِىَ ﴾ : يشمل الطهارة الحسية والطهارة المعنوية معًا ؛ لأن الطوفان كان قد ضيع معالم البيت الحرام وجرف إليه الرمال وأعواد الحطب وغيرها ، فلابد أن يطهره مكانًا بأن ينظفه من هذه الأشياء التى جاء بها السيل ، ثم يطهره عبادة بأن تكون العبادة فيه خالصة لله تعالى ، وهذا التطهير من أجل الطائفين الذين يطوفون بالبيت ثم يرحلون عنه ﴿ وَٱلْقَآئِمِينَ ﴾ أى : المعتكفين فى البيت للعبادة والصلاة ﴿ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴾ هم الذين يذهبون فى وقت الصلاة [1] .

فهناك ثلاث حالات : إما أن يذهب الإنسان ليطوف ثم يخرج ، وإما أن يقيم فيه معتكفًا وإما أن يأتى إليه وقت الصلاة ليؤديها ، والركع السجود هم المصلون .

وبعد ذلك قال سبحانه : ﴿ وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴾ [الحج : ٢٧] . البيت بيت الله والخلق كلهم خلق الله ، فلماذا تقتصر رؤية العين لبيت الله على من قدر على الذهاب والإقامة عند البيت مثل إبراهيم عليه السلام ؟

(١) فى تفسير ابن كثير [٣/٢٠٩-٢١٠] : ﴿ وَطَهِّرْ بَيْتِىَ ﴾ قال قتادة ومجاهد : من الشرك ﴿ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴾ أى : اجعله خالصًا لهؤلاء الذين يعبدون الله وحده لا شريك له ، فالطواف به معروف وهو أخص العبادات عند البيت فإنه لا يفعل ببقعة من الأرض سواها ﴿ وَٱلْقَآئِمِينَ ﴾ أى : فى الصلاة ولهذا قال : ﴿ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴾ فقرن الطواف بالصلاة ؛ لأنهما لا يشرعان إلا مختصين بالبيت ، فالطواف عنده والصلاة إليه ... إلخ » .

لذلك أراد الحق سبحانه وتعالى لعباده أن يذهبوا لرؤية بيته الحرام ؛ لأن هذا هو بيت الله باختيار الله فهو سبحانه الذى اختره ووضعه للناس ، ومساجدنا هذه هى بيوت الله أيضًا ، لكنها بيوت الله باختيار خلق الله ، فالحق سبحانه أراد أن ينشر هذا الفضل على خلقه حتى يذهبوا لرؤية بيت الله الذى اختاره لهم .

كلمة : ﴿ وَأَذِّن ﴾ معناها : أَعلِم بفتح الهمزة وكسر اللام ، والعلم أول مرتبة من مراتبه ، الوسيلة فيه السماع بالأذن ، ولذلك الأذان هو الإعلام ، مثل قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾ [إبراهيم : ٧] . فمعنى أَذِّن : أَعلِم ، وكلها جاءت من الأذن ؛ لأنها وسيلة السماع الأولى والخطاب البدئى الذى به نتعلم كيف نقرأ ، فقبل أن نقرأ لابد أن نسمع .

حينما قال الحق : ﴿ وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ ﴾ ، لم يكن بجوار البيت الحرام أحد إلا إبراهيم وزوجه وابنه إسماعيل ، فى واد غير مسكون ولا مأهول ، والناس بعيدون عنه ، فإبراهيم سأل ربه ، ومن الذى سيسمع صوتى بالأذان يا رب ؟ فقال له الحق سبحانه : عليك أن تؤذن وعلىَّ أن أُبلغ الآذان كلها [1] ، وذلك مثل قوله تعالى : ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ ﴾ [الأنفال : ١٧] . ولذلك قالوا : فى أصلاب بنى آدم وفى أصلاب الذرية كلها بعد إبراهيم عليه السلام كل من سمع فى عالم الذر أذانًا وقال : لبيك اللهم لبيك . فقد حج مرتين ، وإن قال : لبيك اللهم لبيك ، وأخذ يكررها يحج بمقدار ما لبى ؛ لأن معنى كلمة لبيك أى إجابة بعد إجابة « نجيبك يا رب فى هذه » والله

(١) قال أبو جهم : وأمر إبراهيم بعد فراغه من البناء أن يؤذن فى الناس بالحج ، فقال : « يا رب وما يبلغ صوتى ؟ قال الله جل ثناؤه : أذن وعلىَّ البلاغ ... » .

سبل الهدى والرشاد [١/١٥٧] .

وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما قال : « لما فرغ إبراهيم من بناء البيت قال : رب قد فرغت ، فقال : ﴿ وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ ﴾ قال : رب وما يبلغ صوتى ؟ قال : أذن وعلىَّ البلاغ . قال : رب كيف أقول ؟ قال : قل : يا أيها الناس كتب عليكم الحج ، حج البيت العتيق فسمعه من فى السماء والأرض ، ألا ترى أنهم يجيئون من أقصى الأرض يلبون » .

رواه الحاكم فى المستدرك [٢/٣٨٨-٣٨٩] ، وقال : حديث صحيح الإسناد على شرط الشيخين ولم يخرجاه .

سبحانه طلب منا أشياء كثيرة ، ولكن الأركان فى الإسلام ، أول ما نشهد ، نشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمدًا رسول الله ، وهذه مرة واحدة فى العمر لندخل بها فى الإسلام ، ثم بعد ذلك نقيم الصلاة ونزكى ونصوم ونحج [1] .

انظروا إلى هذه الأركان تجدوا الركن الوحيد الذى يدخل المسلم نفسه فيه دون أن يكون مستطيعًا ، فيحرم نفسه ويحاول أن يستكمل المال اللازم لنفقات هذا الأمر وهو الحج ، ولا يتكلف هذه المشقة فى عبادة أخرى أبدًا ، وذلك لأن الله تعالى حكم وقال : ﴿ وَأَذِّن .... يَأْتُوكَ ﴾ [الحج : ٢٧] ، فهم يأتونه مسرعين إلى هذا المكان الطاهر مصداقًا لدعاء إبراهيم عليه السلام فى قول الله تعالى : ﴿ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴾ [إبراهيم : ٣٧] ، فالقلوب تهوى إلى هذا المكان والهُوِىُّ أمر لا يملكه الإنسان باختياره ؛ لأن الإنسان ساعة أن يكون فى مكان مرتفع ثم يسقط ويَهْوِى إلى أسفل لا يكون له اختيار فى ألا يسقط ، فتجد الإنسان يكون فقيرًا وقد يدخر من قوته وقوت عياله ويحرم نفسه من متع الحياة ؛ ليوفر من المال ما يساعده على السفر لأداء فريضة الحج ، ولا يفعل ذلك فى أى ركن من أركان الإسلام بالذات ، وفى الأمور الأخرى طَلب الله من الناس قد يطاع فيها أو لا يطاع ، لكن فى هذه القضية حكَم المولى سبحانه فقال : ﴿ وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا ﴾ .

إذن صدق القضية موجود ، بعض أهل الفهم قالوا : هل الأمر بالأذان للحج كان لإبراهيم أو لأحد غيره ؟ قالوا : الأمر كان لأحد غير إبراهيم عليه السلام لأن الله تعالى يقول : ﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴾ ومعنى ﴿ وَإِذْ ﴾ كما قلنا : أى اذكر يا من أنزل عليه كتابى إذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت وأذن فى الناس بالحج .

إذن .. الأمر هنا للرسول صلى الله عليه وسلم هل تجد نصرانيا أو يهوديا يأتى إلى الكعبة ؟! لا . فهذا النسك لا تشاهده فى أمة من الأمم الأخرى إلا فى أمة محمد صلى الله

(١) روى البخارى [٨] عن ابن عمر رضى الله تعالى عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « بنى الإسلام على خمس : شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمدًا رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، والحج ، وصوم رمضان » .

عليه وسلم مع أنه ثبت أن موسى عليه السلام حج إلى الكعبة[1] . إذن فعل الأمر : ﴿ وَأَذِّن ﴾ إن أخذته على هذا المعنى كان المقصود به النبى محمد صلى الله عليه وسلم .

نقول : صحيح ، إننا لا نجد أحدًا من الأمم السابقة يحج إلى بيت الله الحرام ؛ ولذلك نحن نحتج عليهم حين يزعمون أن الذبيح هو إسحاق ، ونقول لهم : لو كان إسحاق هو الذبيح لكانت عملية الذبح والفداء ورمى الجمرات وغير ذلك عندكم فى الشام ، ولكنها هنا فى مكة ؛ لأن إسماعيل كان هنا فى هذا المكان ، ثم تذكروا جيدًا أنكم قلتم فى كتبكم فى الإصحاح [٢٤،٢٣ من سفر التكوين] إن الله سبحانه وتعالى أوحى لإبراهيم أن يصعد على جبل فاران وأن يأخذ ولده الوحيد ويذبحه .

فولده الوحيد هو إسماعيل وليس إسحاق ؛ لأن الله تعالى أخبرنا فى القرآن الكريم ، أنه فدى إسماعيل وبشر إبراهيم بإسحاق ، ومن وراء إسحاق يعقوب .

قال تعالى : ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ ﴾ [الأنبياء : ٧٢] فربنا يقول الصدق ويؤيد الحق ويجعل له منافذ تخفى على من يكذب ، ولذلك يقولون : إن الذى يرتكب جريمة لا يمكن أن يصنع الجريمة الكاملة أبدًا ؛ لأن الله تعالى يجعل فيها منفذًا للحق يمكن من خلاله الإمساك بالمجرم ومعاقبته ، فمعنى الجريمة لا تفيد : إنك لا تستطيع أن تحتاط للجريمة أبدًا ؛ بل لابد أن تترك فيها منفذًا يدل عليك ويجرك إلى العقاب ، وهذه مهمة القاضى الفاهم الذى يستطيع بذكائه أن يكشف المجرم .

مثل القاضى الذى جاءه أحد الناس يشكو إليه من صديق كان يجلس معه فى مكان معين وأعطاه أمانة لحفظها له ، ولما طلبها منه أنكر أنه أخذها ، فلما سأله القاضى : أين

(١) عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما قال : كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بين مكة والمدينة فمررنا بواد فقال : « أى واد هذا ؟ » . قالوا : وادى الأزرق . قال : « كأنى أنظر إلى موسى عليه السلام – فذكر من طول شعره شيئًا لا يحفظه ، وداود – واضعا إصبعيه فى أذنيه ، له جؤار إلى الله بالتلبية مارا بهذا الوادى » . قال : ثم سرنا حتى أتينا على ثنية فقال : « أى ثنية هذه ؟ » قالوا : ثنية هَرْشَى أو لفت . فقال : « كأنى أنظر إلى يونس على ناقة حمراء عليه جبة صوف ، وخطام ناقته ليفٌ خُلْبَةٌ ، مارا بهذا الوادى ملبيا » .
رواه ابن ماجه [٢٨٩١] وصححه الألبانى .

الأمانة التى أعطاها لك فلان فى مكان كذا ؟ أنكر أنه ذهب معه إلى هذا المكان أو أخذ منه شيئًا . فقال القاضى لصاحب الأمانة : اذهب إلى المكان الذى كنتما فيه وابحث جيدًا ؛ فربما كنت قد نسيتها هناك وظننت أنك أعطيتها له أو ربما يكون أخذها منك ونسيها فى هذا المكان .

فلما ذهب الرجل إلى هذا المكان وتأخر قال القاضى للمتهم : فلان تأخر ، فقال المتهم : المكان بعيد . فقبض عليه وعلم أنه أخذ الأمانة فعلًا . فالمسألة تحتاج إلى فطنة القاضى وبصيرته حتى يصل إلى الحق .

ومعنى ﴿ يَأْتُوكَ رِجَالًا ﴾ كلمة : « رجال » بعض الناس يفهم أنها جمع رجل ولكنه جمع راجل[1] ، وهو الذى يمشى على رجليه ، والضامر[2] أى الذى يركب فرسًا والفرس الضامر هو النحيف من كثرة الجرى ، ومن ضمن تأكيد الفعل ﴿ يَأْتُوكَ ﴾ أنه ذكر الماشين قبل الراكبين ، والفج هو الطريق المتسع ، والعميق هو الطويل الممتد .

ثم يقول تعالى : ﴿ لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ۖ فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ ﴾ [الحج : ٢٨] فالحجاج يشهدون فى الحج منافع لهم ، هذه المنافع هل هى دينية أخروية أم دنيوية ؟ هذه المنافع تشمل الناحيتين معًا ، فالذى يحج يستعد لهذه الرحلة فيجهز وسيلة ركوبه مثلًا ، ويحضر لمن يعولهم مصالح حياتهم حتى يعود ، وبعد ذلك يذهب إلى الأماكن المقدسة ليؤدى المناسك فى هذا الوادى الذى ليس فيه زرع ، فينفق ويشترى من البائعين فهذا يبيع وهذا يشترى .

فإذا نظرت إلى المنافع المادية تجدها موجودة ، وكذلك الذى يحج حينما يذهب إلى هناك يأكل ويشرب وينام . فلابد أنه سيؤجر البيت الذى سيقيم فيه هذه الفترة ، هذه الأجرة يستفيد بها صاحب البيت ويعيش عليها فترة بعد موسم الحج . والحاج نفسه

(١) الرجال : جمع راجل أى ماشٍ ، والراجل خلاف الفارس .
لسان العرب [٢٦٩/١١] .
(٢) الضُّمْرُ والضُّمُر : الهزال ولحاق البطن .
لسان العرب [٤٩١/٤] .

لكى يجمع هذه الأموال أدى حركة حياة فى الكون وعمل واجتهد ليحصل عليها ، هذه الحركة كان فيها نفع لغيره من المجتمع وإن لم يشعر بها ، فمثلًا حينما يشترى الحاج خروفًا ليذبحه فى الحج ، هذا الخروف اشتراه تاجر وجاء به ليبيعه للحجاج ، وهو اشتراه من منتج يربى هذه الأغنام ويتعهدها بالرعاية . فهذا المنتج انتفع والتاجر انتفع ، وكذلك الراعى انتفع والسيارة التى نقلت هذه الأغنام انتفع صاحبها أيضًا ، وحتى الذى سيذبحه انتفع أيضًا فكل هذه وغيرها منافع دنيوية ورزق يسوقه الله إلى أهل هذه البلاد الطيبة .

وهناك أيضًا البضائع التى يشتريها الحجاج من هناك من ملابس وهدايا وحلى ؛ والمصريون مشهورون بهذه الصفة ، فقبل أن يؤدى الحاج المصرى نسكه تجده يشترى ما يحب من ملابس وسجاجيد للصلاة ومسابح وغيرها من الهدايا الأخرى .

فهذه وغيرها من المنافع المادية التى يشهدها الحاج حينما يذهب إلى هذه الأماكن ، كذلك فإن الحاج منذ أن ينوى الحج ويبدأ فى تجهيز نفسه والإعداد لهذه الرحلة تجده يسمو بنفسه فى ملكوت الطاعة ، ولا يمكن أن يفكر فى معصية ، بعد ذلك حينما يحضر الملابس وينوى السفر ويرتدى ملابس الإحرام نقول له : انتبه هناك أشياء كانت مباحة لك قبل ذلك ، أصبحت غير مباحة لك الآن ، فملابسك وهندامك[1] الذى كنت تفتخر به لابد أن تنساه حتى نهاية الرحلة ؛ لأن الناس يتميزون عن بعضهم بهندامهم فأنت تعرف قدْر الناس عادة من ملابسهم .

فالحق سبحانه يريد أن ينهى هذا التميز والاختلاف بين عباده المؤمنين فيجعل الجميع يلبسون شيئًا واحدًا هو ملابس الإحرام ، وبعد أن كنت ترتدى من الثياب أفخرها وأجملها وأطيبها ، ومن العطور أزكاها ، وتذهب إلى الحلاق لتقص شعرك ، أصبح كل هذا ممنوعًا عليك ، وهذا كله نوع من الأدب والالتزام والمساواة بين الناس أمام الخالق سبحانه وتعالى .

فاستعداد المسلم للحج يجعله إنسانًا آخر لا يفكر فى معصية ؛ بل يسعى فى الطاعة ويسمو إلى أفعال الخير ؛ لأنه يجهز نفسه لهذه الرحلة التى يمحو الله بها ذنوبه وخطاياه

(١) هندام : قال الأزهرى : الهندام لحسن القَدّ . انظر لسان العرب [١٢/٦٢٤] .

ويطهره من كل معصية ، وبعد ذلك تجد أن إزالة التمييز بين الناس فى ملابسهم وهندامهم يجعلهم كلهم سواء ، فكلهم يرتدون ملابس الإحرام وكلهم شعثٌ غبرٌ[1] مثل بعضهم ، ثم يؤدب الله جوارحهم فيأمرهم بعدم قتل الصيد أو قطع الشجر ، وعدم الحلق أو التقصير أو حتى خلع شعرة واحدة وعدم التطيب إلى غير ذلك[2] .

فهذا انضباط أقوى من انضباط الجنود فى الجيش ، فالحاج تأدب أولًا مع بنى جنسه فى أن كل تميز أو فوارق بينهم انتهت ، ثم تأدب مع جوارحه ، فكل جارحة لها عمل تلتزم به ، ثم تأدب مع النبات فلا يخلعه أو يقطعه ، ثم تأدب مع الحيوان فلا يصطاده أو يتعرض له بأذى ، فهو بذلك تأدب مع كل الأجناس ولم يبق إلا الجماد فقط ، هذا

(١) فى الحديث ، عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله تعالى عنهما ، أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يقول : « إن الله عز وجل يباهى ملائكته عشية عرفة بأهل عرفة ، فيقول : انظروا إلى عبادى أتونى شعثا غبرا » .
رواه أحمد فى مسنده [٢/٢٢٤] وقال الشيخ شاكر : إسناده صحيح .
الشَّعثُ : المغبر الرأس ، المتفش الشعر الذى لم يدَّهن . لسان العرب : [٢/١٦٠] .
غبرا : أغبر الشيء : علاه الغبار ، أى التراب . والمعنى ركبهم غبار الطريق لطول السفر وعدم الاعتناء بالمظهر . لسان العرب [٥/٥] .

(٢) قال عبد الرحمن الجزيرى : نهى الشارع المُحْرِمَ عن أشياء بعضها لا يحل فعله ، وبعضها يكره فعله : يحرم على المحرم عقد النكاح ، وكذا الجماع ودواعيه ، ويحرم الخروج عن طاعة الله بأى فعل محرم ، وتحرم المخاصمة مع الرفقاء والخدم وغيرهم ، ويحرم التعرض لصيد البر بالقتل أو الذبح ، ويحرم استعمال الطيب كالمسك فى ثوبه أو بدنه ، وقلْم الظفر ، ويحرم على الرجل أن يلبس مخيطًا ، أو محيطًا ببدنه ، أو بعضه : كالقميص والسراويل ، والعمامة والجبة ، ويحرم أن يزيل شعر رأسه بالحلق أو القص أو غيرهما كما يحرم إزالة شعر غير الرأس .
الفقه على المذاهب الأربعة [١/٦٥٤،٦٥٥،٦٥٦،٦٥٧] .
روى سالم عن أبيه قال : سأل رجل رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما يترك المحرم من الثياب ؟ فقال : « لا يلبس القميص ، ولا البرنس ، ولا السراويل ولا العمامة ، ولا ثوبًا مسه ورس ، ولا زعفران ، ولا الخفين ، إلا لمن لا يجد النعلين ، فمن لم يجد النعلين فليلبس الخفين وليقطعهما حتى يكونا أسفل من الكعبين » .
رواه أبو داود [١٨٢٣] وصححه الألبانى .

الجماد الذى تعتبره أدنى الأجناس سيأخذ منك دورًا ، فتأتى للحجر الأسود لابد أن تستلمه وتجتهد فى أن تقبله (1).

والحجر رمزية الجماد ؛ لأن الجماد كل شيء ليس فيه النمو أو الحس فتجد الحاج الذى لا يتمكن من تقبيل الحجر الأسود يحزن ويشعر أن شيئًا قد نقص من حجه ويحاول ويتعب ويزاحم حتى ينال هذا الشرف ويقبل الحجر .

فانظر إلى انكسار نفس هذا الإنسان ، وهو السيد الأعلى لجميع الأجناس يتأدب مع كل الأجناس ويأتى لأدنى الأجناس ليقبله ، فانظر إلى طمأنينة النفس البشرية إلى أدنى أنواع أجناس الأرض .

إن المنافع التى يشهدها الحجاج تشمل المنافع الدينية والدنيوية ؛ لأن الحاج يظل فى طاعة لله ومراقبة له وهو يقول : « لبيك اللهم لبيك » ومعنى لبيك ، أى أن كل مشاغل الدنيا تطلبنى وأنت يا رب طلبتنى ، فأنا أُلبيك أنت أولًا ؛ لأنك خالقى وخالق الأشياء التى تشغلنى عنك ، والأيام المعلومات هى : أيام التشريق .

معنى : ﴿ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلۡأَنۡعَٰمِۖ ﴾ [الحج : ٢٨] أى : يذكرون الله ويشكرونه على الرزق الذى أعطاه لهم من بهيمة الأنعام استمتاعًا بها أكلا ، واستمتاعًا بأثمانها بيعًا ، وقبل ذلك تشكر الله على أنه سخر لك هذه الأشياء(2) ؛ لأن الله سبحانه وتعالى خلق خلقًا ذلله لنا قال تعالى : ﴿ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا خَلَقۡنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتۡ أَيۡدِينَآ أَنۡعَٰمٗا فَهُمۡ لَهَا مَٰلِكُونَ ۝ وَذَلَّلۡنَٰهَا لَهُمۡ فَمِنۡهَا رَكُوبُهُمۡ وَمِنۡهَا يَأۡكُلُونَ ۝ وَلَهُمۡ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَمَشَارِبُۚ أَفَلَا يَشۡكُرُونَ ۝ ﴾ [يس] فأنت لم تأخذ هذه المخلوقات وتطوعها لخدمتك بقوتك أنت ؛ بل لأن الله هو الذى ذللها لك ، ولذلك الحق سبحانه يترك بعض خلقه غير مستأنس ولا مذلل ، ليبين لك أنه لولا أن الله سخر لك هذا وذلله ما كنت تستطيع أن تنتفع به .

---

(1) عن ابن شهاب عن سالم أن أباه حدثه قال : قبّل عمر بن الخطاب الحجر ثم قال : « أما والله لقد علمت أنك حجر . ولولا أنى رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبلك ما قبلتك » رواه مسلم [١٢٧٠/٢٤٨] وفى لفظ : « رأيت رسول الله بك حفيًا » .

(2) يعنى : الإبل ، والبقر ، والغنم كما فصلها سبحانه وتعالى فى سورة الأنعام : ﴿ ثَمَٰنِيَةَ أَزۡوَٰجٖۖ ﴾ [الأنعام : ١٤٣] . تفسير ابن كثير [٢١١/٣] .

وكنت ضربت لكم مثلًا بالبرغوث وهو حشرة ضئيلة ، ولكن لأن الله لم يسخره لك ، فهو يستطيع أن ينغص عليك عيشك ، يحرمك من النوم ويحرمك من الراحة ، كذلك أى ثعبان صغير يستطيع أن يفزع مجموعة من الناس ويرعبهم ، ومثله أى ذئب أو حيوان مفترس ، لكن انظر إلى الجمل هذا الحيوان الضخم الذى يقوده طفل صغير لماذا ؟ لأن الله سخره لك وذلله .

فالله تعالى يريد أن يذكرك أنك لم تذلل لنفسك هذه الأشياء ولكن الله هو الذى ذللها لك وسخرها لخدمتك .

مع أن هذا الجمل أو هذه الجاموسة أو البقرة ، لو هاجت لما استطاع أحد أن يقف فى طريقها ، ولكن أنت تستخدمها وتستفيد بها وتشرب ألبانها وتأكل لحومها ؛ لأنها مسخرة لك من الله .

ومنتهى التذليل أن الحيوانات التى أحلها الله لك تظل تنتفع بها طوال عمرك ، فإذا حدث لها أى شيء يزهق روحها تجدها تمد رقبتها طالبة الذبح ، والفلاحون عندما يقولون : « البهيمة طلبت الحلال » فكأنها تقول لك أنا لم أعد أنفعك فى حياتك ، فاجتهد أن تأكل لحمى بتذكيتى .

والحيوان الذى لم يُبح الله لنا أكله تجده يموت دون أن يمد رقبته للذبح فسبحان الله ! فالشكر لله يكون على أنه خلق لنا هذه الحيوانات النافعة وذللها لنا مع أن منها ما هو أضخم وأقوى منا ، ونحن لم نستطع أن نذلل ما هو أضعف وأصغر منها .

ولذلك الفلاح يستخدم حماره فى حمل مخلفات وروث المواشى إلى الحقل لتسميد التربة ، ويحمل عليه الغلال إلى السوق ثم يركبه ويقضى به مصالحه فى المدينة ، والحمار فى كل ذلك مطيع لصاحبه لا يكل ولا يمل ولا يتمرد ؛ لأنه مذلل .

وقوله تعالى : ﴿ فَكُلُواْ مِنۡهَا وَأَطۡعِمُواْ ٱلۡبَآئِسَ ٱلۡفَقِيرَ ﴾ مع أن الذبح فى الحج مقصود به إطعام الفقراء والمحتاجين من أهل الحرم ، إلا أن الله تعالى فى هذه الآية قدم الأكل على إطعام البائس الفقير ، وذلك لأن السادة من العرب قبل الإسلام كان الواحد منهم إذا ذبح ذبيحة للفقراء والمساكين يستنكف أن يأكل منها ، وما دام يستنكف أن يأكل منها فلا يهمه أن تكون سمينة مليئة بالشحم واللحم ، أو أن تكون نحيفة مهزولة

ليس فيها شيء من ذلك ، لكن لو عرف أنه سيأكل منها لابد أن يختارها سمينة ومليئة باللحم[1] .

والبائس[2] هو الذى يبدو على شكله وهيئته أنه مسكين ، لكن الفقير قد لا يملك شيئًا ولكن هنا لا يمنع أن تكون ملابسه نظيفة وهيئته معقولة ؛ والأكل يكون من لحوم الهدى التى تتطوع بها دون أن يكون عليك شيء ، مثل القران أو دم التمتع ، أو دم لجبر مخالفة من المخالفات فى الإحرام فتجبره بدم ، مثل التعطر خلال فترة الإحرام ، أو تقليم الأظافر ، أو قص الشعر ، أو تقصيره ، كل هذه تستوجب الكفارة بدم[3] .

(١) وقال سفيان الثورى عن منصور عن إبراهيم ﴿ فَكُلُوا مِنْهَا ﴾ قال : كان المشركون لا يأكلون من ذبائحهم ، فرخص للمسلمين فمن شاء أكل ومن لم يشأ لم يأكل .

تفسير ابن كثير [٢١١/٣] .

(٢) البؤس والبأس والبأساء : الشدة والمكروه إلا أن البؤس فى الفقر والحرب أكثر ، والبأس والبأساء فى النكاية . معجم مفردات ألفاظ القرآن للأصفهانى [٣٢] .

(٣) الدماء فى الحج :

١ – دم هدى : وهو ما يهدى من النعم للحرم ، ويكون من الإبل ماله خمس سنين فأكثر ومن البقر ما له سنتان فأكثر ، والغنم ما له سنة فأكثر ، وهو واجب على من ترك واجبًا من واجبات الحج أو العمرة كالتمتع والقران أو ترك الحلق أو التقصير .

٢ – الهدى المنذور : وهو واجب بالنذر .

٣ – هدى التطوع وهو ما يتطوع به المحرم وفى الهدى خلافات كثيرة مفصلة فى كتب الفقه .

والأشياء التى إذا تركها الحاج لزمه دم :

١ – عند ترك الإحرام من الميقات .

٢ – عند ترك طواف الإفاضة .

٣ – عند ترك طواف السعى .

٤ – عند ترك واجب من واجبات الحج – الرمى – المبيت بمنى – الوجود بالمزدلفة .

٥ – عند فعل ما يبطل الحج فعليه دم وعليه القضاء .

٦ – دم الإحصار : ﴿ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ ﴾ [البقرة : ١٩٦] .

٧ – التمتع : ﴿ فَمَن تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ ﴾ .

٨ – القران : لحديث رواه الشيخان : أن النبى صلى الله عليه وسلم ذبح شاتين وكان قارنا . =

فالأكل يكون من لحوم الهدى التى تتطوع بها للبيت دون أن يكون عليك شيء ، لكن إن نذرت هديًا لا تأكل منه ، وإن كان دم قران لا تأكل منه ، وإن كان دم تمتع لا تأكل منه ، وإن كان دم جبر لذنب صنعته فى الإحرام لا تأكل منه ، وإنما تأكل من الصدقة المحض أو التطوع المحض .

وانظر إلى رحمة الله تعالى فى أنه أراد أن يجعل الغنى القادر هو الذى يشترى الجمل أو البقرة أو الخروف ، ثم يذبحها ويبحث عن البائس الفقير المحتاج ليأكل منها .

فالغنى هو الذى يتعب ويبحث ويشترى ويذبح ، والفقير لا يكلف نفسه عناء شيء من ذلك ، وما عليه إلا أن يأكل ويشكر الله ؛ فكأن الله تعالى يقول للفقير : أنا لم أحرمك ولكن سخرت لك من يتعب من أجلك .

بعد ذلك يقول سبحانه : ﴿ ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴾ [الحج : ٢٩] القضاء إما أن يكون قضاء من الله على الإنسان بأمر لازم محكوم به ، وإما أن يكون قضاء من إنسان بين اثنين متخاصمين والقضاء يقطع الخصومة أولًا .

إذن .. القضاء هنا معناه القطع أى : ليقطعوا تفثهم ، ولكن ما هو التفث ؟ قال العربى : والله ما عرفنا كلمة التفث فى لغتنا إلا فى القرآن الكريم ، فلم تكن كلمة معروفة ودائرة على ألسنة العرب . فلما سألوا رجلا من البادية عن معنى التفث قال : هو الوسخ الذى يأتى على الجسم من التراب والعرق مثلًا ؛ لأن الحاج يظل مدة بلباس

= ٩ – دم قتل الصيد : لقول عمر لمن قتل ظبيًا : « اعمد إلى شاة فاذبحها وتصدق بلحمها واسق إهابها » .

ومن احتاج إلى الحلق وهو محرم فهو مخير بين ثلاثة :

١ – صوم ثلاثة أيام . ٢ – إطعام عشرة مساكين .

٣ – ذبح شاة للفقراء . لقوله سبحانه وتعالى : ﴿ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ ﴾ [البقرة : ١٩٦] من تصيد صيدًا فقتله عامدًا عالمًا فعليه مثل ما قتل من النعم – أو إطعام مساكين أو عدل ذلك صيامًا .

الإحرام لا يتطيب ولا يحلق شعره أو يقص أظافره أو شاربه فكل هذا من التفث فبعد أن يتحلل من إحرامه يقطع هذا التفث(١) .

فمعنى : ﴿ لْيَقْضُواْ تَفَثَهُمْ ﴾ أى : يقطعون ويزيلون الأدران التى لحقتهم من التزام موجبات الإحرام ، وإن كان على أحدهم نذر فليوفه ، ثم يطوفون بالبيت العتيق طواف الإفاضة . والطواف هو أن تدور حول شىء فتبدأ من نقطة وتنتهى عندها .

والطواف حول الكعبة معروف .

والبيت العتيق : هو الكعبة المشرفة ، وكلمة عتيق تستخدم فى اللغة استعمالات واسعة ، والعتيق : بمعنى القديم ، وما دام هو أول بيت وضع للناس فهو قديم .

والعتق يُمدح ؛ لأن الشىء حين يكون قديمًا فمعنى ذلك أنه هام ومحافظ عليه ، ولا يحافظ على شىء إلا إذا كان مهمًا أو له مكانة فى النفوس ، ومن ذلك الآثار والتحف ، والعتيق أيضًا : هو الشىء الجميل الحسن .

والعتيق : هو المعتوق من سيطرة الغير مثل عتق العبد أيام وجود الرق والاستعباد ، فبيت الله عتيق لقدمه ؛ لأنه أول بيت وضع للناس ، وعتيق بمعنى نفيس ومهم ؛ لأننا حينما نزوره يطهرنا الله من الذنوب ، وهذا شىء يحبه ويتمناه كل مسلم ، كما أنه بيت الله ، وهو أيضًا معتوق من سيطرة الغير ؛ لأن الله يحميه من سيطرة الجبابرة وتحكمهم(٢) .

---

(١) التفث : هو نتف الشعر ، وقص الأظفار ، وتنكُّب كل ما يحرم على المحرم ، وكأنه الخروج من الإحرام إلى الإحلال . لسان العرب [١٢٠/٢]

﴿ ثُمَّ لْيَقْضُواْ تَفَثَهُمْ ﴾ قال ابن عباس : التفث : حلق الرأس ، وأخذ من الشاربين ، ونتف الإبط وحلق العانة ، وقص الأظفار ، والأخذ من العارضين ، ورمى الجمار ، والموقف بعرفة والمزدلفة . تفسير الطبرى [١٤٩/١٧]

(٢) عن عبد الله بن الزبير رضى الله تعالى عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إنما سُمّى البيت العتيق لأنه لم يظهر عليه جبار » . رواه الترمذى [٣١٧٠] واللفظ له ، وقال : هذا حديث حسن صحيح ، وضعفه الألبانى ، ورواه الحاكم فى المستدرك [٣٨٩/٢] وقال : هذا حديث صحيح على شرط البخارى ولم يخرجاه .

والبيت العتيق بمكة لقدمه ؛ لأنه أول بيت وضع للناس ، قال الحسن : هو البيت القديم ، دليله قوله تعالى : ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴾ . وقيل لأنه =

فأبرهة حين أراد أن يهدم الكعبة أهلكه الله ودمر جيشه بأن سلط عليه أضعف جند من جنود الله وهى الطير الأبابيل ، وجعله عبرة لكل طاغية يحاول أن يمس بيت الله بالسوء . وحتى الفيل وهو حيوان أعجمى كانوا إذا وجهوه إلى الكعبة برك(١) . وقد ذكر أن الفيل كان اسمه محمود وقيل له فى أذنه : ابرك محمود وارجع راشدًا ، فإنك فى بلد الله الحرام ، فرفض الفيل أن يتحرك خطوة واحدة إلى الأمام .

وحينما ذهب عبد المطلب إلى أبرهة ليكلمه فى الإبل التى أخذها جيشه قال له أبرهة متعاليًا : كنت قد تهيبتك لأنك سيد قريش ، وبعد ذلك تأتى لتكلمنى فى مائة بعير أصبتها لك ولا تذكر أى شىء عن البيت الذى فيه مجدكم والذى جئت لأهدمه ؟! لقد سقطت من نظرى . فما كان من عبد المطلب إلا أن قال له : أنا رب هذه الإبل ، وللبيت ربٌ يحميه . وهذه حجة قوية فهو لم يترك البيت لمصيره خوفًا أو ضعفًا ، وإنما تركه ؛ لأنه يعلم يقينًا أن له ربا يحميه ويدافع عنه ، وهذا الكلام زلزل أبرهة وأغاظه(٢) .

= أعتق من الغرق أيام الطوفان ، دليله قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ ﴾ وهذا دليل على أن البيت رفع وبقى مكانه . وقيل : إنه أُعتق من الجبابرة ، ولم يدَّعه منهم أحد . وقيل : سمى عتيقًا ؛ لأنه لم يملكه أحد ، والأول أولى . لسان العرب [٢٣٦/١٠] .

(١) برك البعير : إذا أناخ فى موضع فلزمه . لسان العرب [٣٩٦/١٠] .

(٢) قصة أصحاب الفيل معروفة متواترة ، وجعلها العرب مبدأ تاريخ يؤرخون به ؛ فيقولون : حدث ذلك عام الفيل ، أو بعد عامين من عام الفيل ، وهكذا .

والقصة كما تروى : أن أبرهة بن الصباح ملك اليمن من قبل أصحمة النجاشى ، بنى كنيسة فى صنعاء تسمى « القُلَّيس » ، وعزم على أن يصرف حج العرب إليها كما يُحج إلى الكعبة بمكة ، فخرج رجل من بنى كنانة فقعد فيها ليلًا ، ويقال : إنه قضى بها حاجته أو أنه أحرقها ، فأغضب الملك ذلك ، فحلف ليهدمن الكعبة .

فخرج بالأحباش راكبا فيلًا عظيما قويا كبير الجثة لم ير مثله ، يقال له : « محمود » ويقال : كان معه اثنا عشر فيلًا غيره لإرهاب العرب قاصدًا مكة متغلبًا على كل من وقف فى طريقه ، حتى وصل إلى المغمس قرب مكة ومعه رجل من ثقيف يقال له : « أبو رغال » دليلا . ثم =

○○○

= أرسل أبرهة رجلًا من الحبشة يقال له : الأسود بن مقصود ليغير على الأمكنة القريبة ، فساق إلى أبرهة أموال قريش ، ومنها مائتا بعير لعبد المطلب بن هاشم ، وبعث حناطة الحِمْيَرِى إلى مكة ليأتى له بسيد هذا البلد وشريفهم ، ليخبره أنه لم يأت لحربهم وإنما أتى لهدم البيت العتيق .
وقال : إن عبد المطلب أقبل على أبرهة ، وكان رجلًا جسيمًا حسن المنظر ، فلما رآه أبرهة أجلّه وأعظمه وأكرمه ، فنزل أبرهة عن سريره ، فجلس على بساطه وأجلسه معه عليه إلى جنبه ، ثم قال لترجمانه : قل له ما حاجتك ؟ قال : حاجتى أن يرد علىّ الملك مائتى بعير أصابها لى ، فلما قال له ذلك قال أبرهة لترجمانه : قل « قد كنت أعجبتنى حين رأيتك ثم زهدتنى فيك حين كلمتنى ، أتكلمنى فى مائتى بعير أصبتها لك ، وتترك بيتًا هو دينك ودين آبائك قد جئت لهدمه ، لا تكلمنى فيه ؟! قال له عبد المطلب : إنى أنا رب الإبل ، وإن للبيت ربا سيمنعه ، وقال : ما كان ليمتنع منى ، قال : أنت وذاك .
ثم رجع عبد المطلب وأخبر قومه بضرورة الخروج من مكة والتحصن والتحرز بالجبال ، وذهب هو إلى البيت يدعو ويلح فى الدعاء .
وعبأ أبرهة جيشه فى الصباح ، وهيأ فيله ، فلما وجهوا الفيل « محمود » إلى مكة أقبل نفيل بن حبيب حتى قام إلى جنب الفيل ثم أخذ بأذنه ، فقال : ابرك محمود ، أو ارجع راشدًا من حيث جئت ، فإنك فى بلد الله الحرام ، ثم أرسل أذنه ، فبرك الفيل وخرج نفيل بن حبيب يشتد حتى صعد الجبل ، فكانوا كلما وجهوا الفيل إلى جهة البيت برك ولم يبرح ، وإذا وجهوه إلى اليمن أو الشام أو الشرق أسرع وهرول .
وفى اليوم الثانى أرسل الله عز وجل جنده بحجارة من سجيل على جند أعدائه ، فتناثر لحمهم وتساقط ، وهلكوا فى كل طريق ودرب ، وحفظ الله بيته وحمى حرمه ، وجعل نفيل يقول :

أين المفـــر والإله الطالب   والأشرم المغلوب ليس الغالب

قال السهيلى فى الروض الأنف : إنه سمع من يقول : إن الفيلة صنف منها يبرك كما يبرك الجمل .
راجع : السيرة النبوية لابن هشام [١٦٣/١] ، والروض الأنف للسهيلى ، وسبل الهدى والرشاد للصالحى [٢١٤/١] ، والتفسير الكبير للفخر الرازى [٩٦/٣٢] ، وغيرهم .

البيت قبل إبراهيم .. والله الذى أرشده إليه

قال الله تعالى : ﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴾ [الحج : ٢٦] . إذن : الحق سبحانه هو الذى أرشد إبراهيم عليه السلام إلى المكين ، أى إلى مكان البيت الحرام ومساحته بالضبط ، ليبدأ بعد ذلك إقامة البيت ومعه إسماعيل عليه السلام بعد أن كبر قليلًا ليعاونه فى رفع البيت الحرام .

إذن .. نتعرف هنا على الترتيب التالى :

أولًا : أن المكين كان موجودًا من قبل إبراهيم عليه السلام .

ثانيًا : أن إبراهيم عليه السلام كان يعرف المنطقة التى يوجد بها البيت الحرام - المكين - وإن كان لم يتعرف بعد على مساحته بالتحديد .

ثالثًا : أن إبراهيم عليه السلام أسكن هاجر رابنها إسماعيل فى هذه المنطقة .

رابعًا : صدر أمر الحق لإبراهيم أن يقيم البيت الحرام بعد أن أوضح له مكانه بالضبط . لقد أوضح الحق مساحة المكين والذى يجب عليه أن يقيم القواعد له هو وابنه إسماعيل عليهما السلام .

خامسًا : أننا عندما نبحث أى أمر أو قضية فى القرآن الكريم فإننا نجمع كل ما يتعلق بها من القرآن ، حتى لا نبحث فى آية بمعزل عن أخرى ، والحق تبارك وتعالى يقول : ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ ومعنى ذلك أن الحق قد أوضح لنا أن هناك بيتًا للناس هو أول بيت وضعه الحق للخلق[1] من قبل أن يهبط آدم إلى الأرض ، ذلك أن الناس هم آدم وزوجه وأبناؤه إلى أن تقوم الساعة .

(١) عن أبى ذر رضى الله تعالى عنه قال : قلت : يا رسول الله أى مسجد وضع فى الأرض أول ؟ قال : « المسجد الحرام » قال : قلت : ثم أى ؟ قال : « المسجد الأقصى » قلت : كم كان بينهما ؟ قال : « أربعون سنة ، ثم أينما أدركتك الصلاة بعد فَصَلِّ ، فإن الفضل فيه » . رواه البخارى [٣٣٦٦] واللفظ له ، ومسلم [٥٢٠/١] ، وأحمد [١٥٠/٥] .

إن الحق يوضح لنا أن البيت وضع للناس قبل أن يوجد الناس ، وهكذا نعرف أن البيت الحرام كان موجودًا قبل إبراهيم عليه السلام ؛ بل وقبل آدم عليه السلام ، إن آدم لم يضع البيت ولكنه نزل إلى الأرض ليجد البيت[1] ، وهكذا يرد الحق على الخلق بأنه هوَ الذى أمر الملائكة أن تقيم البيت ليستقبله آدم وأبناؤه من بعده ، ليصير البيت مثابة للناس جميعًا من أول آدم ، وعندما جاء إبراهيم عليه السلام إلى « المكين » كان يعرف

(١) قال صاحب سبل الهدى والرشاد [١٤٦/١] فى عدد المرات التى بنيها البيت :

الأولى : عمارة الملائكة :

روى الأزرقى عن على بن الحسين رضى الله تعالى عنهما أن رجلًا سأله ما بدء هذا الطواف بهذا البيت ؟ ولم كان ؟ وأنى كان ؟ وحيث كان ؟ فقال : أما بدء هذا الطواف بهذا البيت فإن الله تعالى قال للملائكة : ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ - وساق القصة إلى أن قال : فوضع الله سبحانه وتعالى تحت العرش بيتا على أربع أساطين من زبرجد وغشاهن بياقوتة حمراء ، وسمى البيت الضُراح ، ثم قال للملائكة : طوفوا بهذا البيت ودعوا العرش . فطافت الملائكة بالبيت وتركوا العرش فصار أهون عليهم ، وهو البيت المعمور الذى ذكره الله تعالى ، يدخله كل يوم وليلة سبعون ألف ملك لا يعودون إليه أبدا ، ثم إن الله سبحانه وتعالى بعث ملائكة فقال : ابنوا لى بيتا فى الأرض بمثاله وقدره ، فأمر الله سبحانه وتعالى من فى الأرض من خلقه أن يطوفوا بهذا البيت كما يطوف أهل السماء بالبيت المعمور .

المرة الثانية : عمارة آدم عليه السلام :

روى البيهقى فى الدلائل عن ابن عمر رضى الله تعالى عنهما ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « بعث الله تعالى جبريل إلى آدم وحواء فقال لهما : ابنيا لى بيتا ، فخط لهما جبريل ، فجعل آدم يحفر وحواء تنقل حتى أجابه الماء ونودى من تحته : حسبك يا آدم . فلما بناه أوحى الله تعالى إليه أن يطوف به ، وقيل له : أنت أول الناس ، وهذا أول بيت وضع ، ثم تناسخت القرون حتى حجه نوح ، ثم تناسخت القرون ، حتى رفع إبراهيم القواعد من البيت .

وانظر أول من بنى الكعبة ص [٥٧٧] فيها العمارة الثالثة ، والرابعة .

ورواه ابن أبى حاتم وابن جرير والطبرانى موقوفا . وزادوا : زعم الناس أن آدم بناه من خمسة أجبل : من حراء ، ولبنان ، وطور زيتا ، وطور سيناء ، والجودى . وذكر الحديث المتقى الهندى فى كنز العمال [٣٤٧١٨] وعزاه للبيهقى وابن عساكر ، قال : وقال البيهقى : تفرد به ابن لهيعة هكذا مرفوعًا . [المصدر السابق] .

أن هناك أرضًا لبيت وضعه الله للناس ليثوبوا إليه ، وبعد أن كَبُرَ إسماعيل قليلًا تلقى إبراهيم العلم عن الله بمكان البيت الحرام ليقيمه مع ابنه إسماعيل .

إن قصة البيت الحرام تبدأ منذ اللحظة التى أراد فيها الحق أن يجعل فى الأرض خليفة خلق الله الأرض وقدر فيها أقواتها ، وأعد الله لآدم وزوجه بيتًا ؛ ليثوب إليه آدم وأبناؤه من بعده ليكونوا فى أمان .

وتلقى إبراهيم عن الحق العلم بمكان البيت فأقام جدرانه ، فقام إبراهيم بإتقان المهمة التى كلفه بها الحق . لقد أقام إبراهيم جدران الكعبة على قدر ما تطول يداه ، فذلك الزمن لم يكن به أدوات بناء كالتى نعرفها حاليا بل كان زمانًا بدائيا ؛ لذلك أراد إبراهيم عليه السلام أن يحتال بالعقل البشرى وأراد أن يزيد ارتفاع جدران البيت فأوجد الحجر الذى يقف عليه ليزيد فى الارتفاع .

إذن .. فاتخاذ المقام الذى وقف عليه إبراهيم وهو يبنى ، إنما هو دليل على أن إبراهيم عليه السلام لا يؤدى تكليفات الحق أداءً شكليا إنما يؤدى أداء المحب . لقد أحب إبراهيم عليه السلام تكليف الرحمن له فحمل حَجَرًا يبنى به الجدران للبيت الحرام ، وهو حجر من حجم متوسط يستطيع أن يحمله إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما السلام .

ولذلك فعندما يرى المسلم الحجر الذى وقف عليه إبراهيم ليعلى جدران البيت الحرام فإنه يجد أن ذلك الحجر من ناحية الحجم والوزن ، فى طاقة الإنسان أن يحمله مع ابنه .

إن هذا الحجر هو سمة المحبة لإكمال التكليف ، وكان إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام ينقلان هذا الحجر من مكان إلى مكان ، يضع إبراهيم الحجر فوق الحجر وإسماعيل يناوله الأحجار ، ولقد وجد الناس فى مقام إبراهيم غورًا يشبه القدمين وليس فيه التنوءات التى توجد فى القدم ، وعندما سُئلت عن سر عدم وجود التنوءات قلت بالاجتهاد البشرى : يمكننا أن نظن أن خليل الرحمن قد حفر هذا القدر فى الحجر ليثبت به قدميه وهو يرفع الحجر فوق الحجر ليعلى من جدران البيت الحرام ، وهكذا جعل الحق هذا المقام سمة وآية بينة لنرى الدليل على حب التكليف الربانى .

- إن كل منهج الله بالنسبة لخلقه هو تكليف ، ويريد الحق أن يبقى مقام إبراهيم خليل الرحمن سمة لحب التكليف الربانى ، وكأن الحق يريد أن يعلم الخلق أن إبراهيم كان

بشرًا قد أحب التكليف فأتمه وأكمله ، ولذلك كان أمر الحق أن نجعل هذا المقام مصلى وبعد ذلك يأتى قول الحق : ﴿ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴾ . ولنا أن نسأل كيف يصدر أمر الحق إلى إبراهيم وإسماعيل بتطهير البيت رغم أنهما قد أكملا بناءه فورًا ؟

ألم يكن المكان طاهرًا ؟ إن هذا السؤال يدلنا على أن البيت الحرام قبل أن يطهر ، كانت الناس تذبح فيه الذبائح وتترك فيه بقايا الدم وغير ذلك ، ولذلك صدر أمر التطهير للبيت[1] ولكن لمن يتم تطهير البيت الحرام ؟

إن الحق تبارك وتعالى يحدد الفئات الثلاث التى يتم من أجلهم تطهير البيت الحرام .

الفئة الأولى : هم الطائفون أى : الذين يطوفون حول البيت ، وكان تطهير البيت الحرام من بقايا القاذورات أو الأصنام التى تخلفت من عهود وثنية سابقة على تكليف إبراهيم عليه السلام بإقامة البيت الحرام[2] .

والفئة الثانية : هم العاكفون والمقصود : المقيمون حول البيت الحرام .

والفئة الثالثة : هم الركع السجود : أى المصلون ، ويستطيع الإنسان أن يكون من الفئات الثلاث فى آن واحد حين يحج أو يعتمر إلى بيت الله الحرام فهو يدخله طائفًا ويجلس فيه عاكفًا ، ويقيم الصلاة فيه ، فيصبح من الراكعين الساجدين .

---

(١) قال صاحب سبل الهدى والرشاد [١/١٥٥] : وفى حديث أبى جهم ، عند ابن سعد : وحلّقت السكينة كأنها سحابة على موضع البيت فقالت : ابْنِ عليّ . فلذلك لا يطوف بالبيت أحد أبدًا كافر ولا جبار إلا رأيت عليه السكينة ، فبنى إبراهيم البيت فجعل طوله فى السماء تسعة أذرع وعرضه ثلاثين ذراعا ، وطوله فى الأرض اثنين وعشرين ذراعا ، وأدخل الحِجْر وهو سبعة أذرع فى البيت ، وكان قبل ذلك زربًا لغنم إسماعيل ، وإنما بناه بحجارة بعضها على بعض ولم يجعل له سقفًا ، وجعل له بابين ، وحفر له بئرًا عند بابه خزانة للبيت يلقى فيها ما يهدى للبيت وجعل الركن عَلَمًا للناس .

(٢) قلت : وكذا تطهير البيت من زَرْب غنم إسماعيل عليه السلام ، كما جاء فى حديث أبى جهم المذكور بالتعليق السابق .

كأن الحق تبارك وتعالى قد أوكل إلى خليله إبراهيم عليه السلام أن يطهر هو وابنه إسماعيل البيت الحرام ؛ لأنه سيكون قبلة لكل مؤمن يطوف به أو يعتكف فيه ، أو راكع أو ساجد فى أى مكان فى الدنيا .

وبعد ذلك يقول الحق : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [البقرة : ١٢٦] ، وكأن الحق يريد أن يذكرنا هنا بأن البيت الحرام الذى كلّف الخلق بأن يجعلوه آمنًا ، هذا البيت هو بدعاء إبراهيم مطلوب له دوام الأمان .

إن الحق قد قال من قبل : ﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا ﴾ . وهكذا يكون مطلوب إبراهيم بالدعاء وهو طلب لاستمرار تكليف البشر بدوام الأمان فى البيت الحرام إنه طلب لموجود أى طلب لدوام ذلك المطلوب ، ومثال على ذلك قول الحق : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴾ [النساء : ١٣٦] .

إن الحق يكلف المؤمنين به بأن يديم كل منهم الإيمان بالله ورسوله والكتاب الذى أنزله على رسوله ، والكتب السابقة المنزلة على الرسل .

إذن .. فإنْ كان المطلب موجودًا ، فلنا أن نفهم أن ذلك يعنى أن يظل الموجود دائمًا ، وأن يتواصل التكليف الإيمانى من جيل إلى جيل . ويمكننا أن نفهم دعاء إبراهيم عليه السلام ، على أنه دعاء بالاطمئنان للمقيمين حول البيت ، ذلك أن بيت الله الحرام موجود بواد غير ذى زرع ، لذلك فقد يعيش فزعًا وغير آمن ؛ لأن قوت بدنه غير موجود ، وإمكانية استخراج هذا القوت بالزراعة غير متوافرة .

فإن أردنا الأمن المطلق فلنعلم أن الله حين يخاطب المؤمنين بطلب الإيمان فمراد ذلك الدوام على الإيمان ، وإن أردنا الأمان على نوع خاص فإبراهيم يدعو ربه بأن يجعل من بلد بيته الحرام بلدًا آمنًا على وجه الخصوص ، ولنا أن نلحظ أن دعاء إبراهيم فى هذه الآية جاء بكلمة « بلد » نكرة أى بدون ألف ولام تسبقها ، وجاءت فى آية أخرى وهى معرفة أى تسبقها ألف ولام فى قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ

آمِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴾ [إبراهيم : ٣٥] . إن دعاء إبراهيم يختلف فى الآيتين حتى نفهم فضل الله على العباد ، فالدعاء الأول هو فضل تحقيق ما تمناه إبراهيم ، فهذا المكان لم يكن بلدًا ، إنما كان مكانًا مطمورًا فيه البيت الحرام من غفلة الناس ، والدعاء الثانى هو أن يديم الله الأمن على هذا البلد بعد أن أصبح بلدًا بالفعل . ولنا أن نعرف أن كلمة « بلد » حين نسمعها ، فإن الذهن ينصرف إلى المدينة التى بها بيوت وأسواق وخلاف ذلك من المرافق ، وكلمة « بلد » مأخوذة من الأثر الذى ينشأ فى الجلد فيتميز عن بقية الجلد ، وانتقلت التسمية إلى الأرض التى تقام عليها المبانى وغيرها ؛ لأن المبانى تصبح واضحة كالندوب أو العلامات التى وُجِدَت فى الجلد(١) .

ولنا أن نلحظ فطنة النبوة فى دعاء إبراهيم حين قال : ﴿ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا آمِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ ﴾ إن دعاء إبراهيم عليه السلام يوضح أنه حصر مطلبه فى رزق المؤمنين بالله واليوم الآخر ، هذا الدعاء يوضح أن إبراهيم عليه السلام قد استوعب الدرس الذى سبق أن لقنه له الله ﴿ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ ، لذلك فعندما جاء إبراهيم ليطلب الرزق لأبنائه ، طلبه للمؤمنين منهم وطلب رزق الثمرات لهم وحدهم .

هكذا كانت اليقظة فى استقبال التكليف عن الله ، وهكذا كان أدب التعلم عن الله ، لكن رحمة الله لا تتوقف . إن رحمة الله قادرة على استيعاب المؤمن والكافر معًا ، إن الرزق فى الأرض مقدر للمؤمن وللكافر ، إن الحق ينبه إبراهيم ويصحح له : ﴿ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [البقرة : ١٢٦] ، إن الحق يبلغ إبراهيم أن المؤمن من ذريته له رزق الدنيا وجنة الآخرة ، ولهم فى الدنيا الإمامة فى القيم أما فى رزق المادة من طعام وشراب فذلك منحة للمؤمن ومنحة للكافر رغم أنى أعذبه فى الآخرة (٢) .

---

(١) بلد : قال الأزهرى : كل موضع متحيز من الأرض عامر أو غير عامر ، خالٍ أو مسكون ، فهو بلد والطائفة منها بلدة ، وفى الحديث : « أعوذ بك من ساكن البلد » . لسان العرب [٣/٩٤]

(٢) قال الله تبارك وتعالى : ﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ۝ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ۝ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ۝ ﴾ [الإسراء] .
=

كأن الله يقول لإبراهيم : إننى حين استدعيت الخلق إلى الدنيا استدعيت المؤمن والكافر ، وسخرت ما فى الأرض للمؤمن والكافر ، وما دمت قد استدعيت المؤمن والكافر فلابد أن أضمن له مقومات حياته ، لكن حساب القيم يختلف ، إن للمؤمنين أن تظل فيهم الإمامة ؛ لأن الإمامة هى اتباع المنهج والتكليف الإيمانى بحب . أما الكافرون فلهم عذاب الجحيم فى الآخرة .

نسأل الله أن ينجينا من عذاب الآخرة وأن يهدى قلوبنا إلى اتباع منهجه .

○○○

= قوله تعالى : ﴿ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ ﴾ أى : الكافرين ترتيبا على الآية الأولى ﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ ﴾ و ﴿ وَهَٰٓؤُلَآءِ ﴾ الثانية يعنى المؤمنين ترتيبا على الآية الثانية ﴿ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ ﴾ فعطاء الله فى الدنيا مكفول للكافر والمؤمن لم يحظره الله سبحانه على أحد من خلقه ليقيم حرية اختيار العقيدة وعدم الإكراه عليها كما قال تعالى : ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ﴾ [البقرة : ٢٥٦] . فلو أن الله تعالى حرم الكافرين لكفرهم لدخلوا الإسلام جبرا ، ولو أن الله حرم المؤمنين انتظارا لثواب الآخرة لكفروا قهرا ، وهذا ليس مراد الله تعالى إذ قال : « فمن شاء فليؤمن – وله الجنة – ومن شاء فليكفر – وله النار » . وانظر تفسير ابن كثير [٣/٣٣] . عن عبد الله بن مسعود رضى الله تعالى عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله قسم بينكم أخلاقكم كما قسم بينكم أرزاقكم ، وإن الله عز وجل يعطى الدنيا من يُحب ومن لا يحب ، ولا يعطى الدين إلا لمن أحب ، فمن أعطاه الله الدين فقد أحبه ... » جزء من حديث رواه أحمد [١/٣٨٧] وضعفه الشيخ شاكر فى المسند [٣٦٧٣] وقال الأرناؤوط : إسناده ضعيف .

﴿ رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ ﴾ . التعبير هنا أن هذا الوادى لا يصلح فيه الزرع ؛ لأنه أرض صخرية ولو أنها كانت أرضًا رملية أو نصف رملية مثلًا لكان من الممكن أن نستصلحها ونزرعها . إذن قوله تعالى : ﴿ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ ﴾ أى : لا أمل فى المجهود الإنسانى لزراعتها ولا يوجد إلا العطاء الربانى ، ولكن هل سيدنا إبراهيم هو الذى اختار هذا المكان القفر الذى لا زرع فيه ولا ماء ولا حياة ؟ أو أن الله هو الذى اختار له هذا المكان[1] ؟.

(1) عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما قال : « أول من اتخذ من النساء المنطق من قبل أم إسماعيل اتخذت منطقًا لتعفى أثرها على سارة ، ثم جاء بها إبراهيم وبابنها إسماعيل - وهى ترضعه - حتى وضعها عند البيت عند دوحة فوق زمزم فى أعلى المسجد ، وليس بمكة يومئذ أحد ، وليس بها ماء فوضعهما هنالك ، ووضع عندهما جرابًا فيه تمر ، وسقاء فيه ماء ، ثم قفى إبراهيم منطلقًا فتبعته أم إسماعيل فقالت : يا إبراهيم أين تذهب وتتركنا بهذا الوادى الذى ليس فيه إنس ولا شىء ، فقالت له ذلك مرارًا ، وجعل لا يلتفت إليها ، فقالت له : آلله أمرك بهذا ؟ قال : « نعم » قالت : « إذن لا يضيعنا » ثم رجعت . فانطلق إبراهيم حتى إذا كان عند الثنية حيث لا يرونه ، استقبل بوجهه البيت ثم دعا بهؤلاء الكلمات ورفع يديه فقال : ﴿ رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِيٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴾ [إبراهيم : ٣٧] .

وجعلت أم إسماعيل ترضع إسماعيل وتشرب من ذلك الماء ، حتى إذا نفد ما فى السقاء عطشت وعطش ابنها ، وجعلت تنظر إليه يتلوى - أو قال يتلبط - فانطلقت كراهية أن تنظر إليه ، فوجدت الصفا أقرب جبل فى الأرض يليها ، فقامت عليه ، ثم استقبلت الوادى تنظر هل ترى أحدًا ، فلم تر أحدًا ، فهبطت من الصفا ، حتى إذا بلغت الوادى رفعت طرف درعها ، ثم سعت سعى الإنسان المجهود حتى جاوزت الوادى ، ثم أتت المروة فقامت عليها ، فنظرت هل ترى أحدًا ، فلم تر أحدًا ، ففعلت ذلك سبع مرات .

قال ابن عباس : قال النبى صلى الله عليه وسلم : « فذلك سعى الناس بينهما » .

فلما أشرفت على المروة سمعت صوتًا فقالت : صه - تريد نفسها - ثم تسمعت أيضًا فقالت : قد أسمعت إن كان عندك غواث ، فإذا هى بالملك عند موضع زمزم ، فبحث بعقبه - أو قال =

= بجناحه - حتى ظهر الماء ، فجعلت تحوضه وتقول بيدها هكذا ، وجعلت تغرف من الماء فى سقائها وهو يفور بعدما تغرف .

قال ابن عباس : قال النبى صلى الله عليه وسلم : « يرحم الله أم إسماعيل لو تركت زمزم - أو قال : لو لم تغرف من الماء - لكانت زمزم عينًا معينًا » .

قال : فشربت وأرضعت ولدها ، فقال لها الملك : لا تخافوا الضيعة ، فإن هاهنا بيت الله يبنيه هذا الغلام وأبوه ، وإن الله لا يضيع أهله ، وكان البيت مرتفعًا من الأرض كالرابية ، تأتيه السيول فتأخذ عن يمينه وشماله ، فكانت كذلك حتى مرت بهم رفقة من جرهم - أو أهل بيت من جرهم - مقبلين من طريق كداء ، فنزلوا فى أسفل مكة ، فرأوا طائرًا عائفًا ، فقالوا : إن هذا الطائر ليدور على ماء ، لعهدنا بهذا الوادى وما فيه ماء ، فأرسلوا جريًا أو جريين فإذا هم بالماء ، فرجعوا فأخبروهم بالماء ، فأقبلوا - قال وأم إسماعيل عند الماء - فقالوا : أتأذنين لنا أن ننزل عندك ؟ فقالت : نعم ، ولكن لا حق لكم فى الماء . قالوا : نعم .

قال ابن عباس : قال النبى صلى الله عليه وسلم : « فألفى ذلك أم إسماعيل وهى تحب الإنس » فنزلوا ، وأرسلوا إلى أهليهم فنزلوا معهم ، حتى إذا كان بها أهل أبيات منهم ، وشبّ الغلام وتعلم العربية منهم ، وأنفسهم وأعجبهم حين شب ، فلما أدرك زوجوه امرأة منهم . وماتت أم إسماعيل ، فجاء إبراهيم بعدما تزوج إسماعيل يطالع تركته ، فلم يجد إسماعيل ، فسأل امرأته عنه فقالت : خرج يبتغى لنا ، ثم سألها عن عيشهم وهيئتهم فقالت : نحن بشرّ ، نحن فى ضيق وشدة ، فشكت إليه ، قال : فإذا جاء زوجك فاقرئى عليه السلام وقولى له يغير عتبة بابه . فلما جاء إسماعيل كأنه آنس شيئًا ، فقال : هل جاءكم من أحد . قالت : نعم ، جاءنا شيخ كذا وكذا ، فسألنا عنك فأخبرته ، وسألنى كيف عيشنا ، فأخبرته أنّا فى جهد وشدة . قال : فهل أوصاك بشىء ؟ قالت : نعم ، أمرنى أن أقرأ عليك السلام ، ويقول : غير عتبة بابك . قال ذاك أبى ، وقد أمرنى أن أفارقك ، الحقى بأهلك ، فطلقها وتزوج منهم أخرى .

فلبث عنهم إبراهيم ما شاء الله ، ثم أتاهم بعد فلم يجده ، فدخل على امرأته فسألها عنه فقالت : خرج يبتغى لنا . قال : كيف أنتم ؟ وسألها عن عيشهم وهيئتهم فقالت : نحن بخير وسعة ، وأثنت على الله ، فقال : ما طعامكم ؟ قالت : اللحم . قال : فما شرابكم ؟ قالت : الماء .

قال : اللهم بارك لهم فى اللحم والماء .

قال النبى صلى الله عليه وسلم : « ولم يكن لهم يومئذ حبّ » ولو كان لهم لدعا لهم فيه ، قال : فهما لا يخلو عليهما أحد بغير مكة إلا لم يوافقاه . قال : فإذا جاء زوجك فاقرئى =

= عليه السلام ، ومُريه يثبت عتبة بابه . فلما جاء إسماعيل قال : هل أتاكم من أحد ؟ قالت : نعم ، أتانا شيخ حسن الهيئة - وأثنت عليه - فسألنى عنك فأخبرته ، فسألنى كيف عيشنا فأخبرته أنّا بخير ، قال : فأوصاك بشىء ؟ قالت : نعم ، هو يقرأ عليك السلام ، ويأمرك أن تثبت عتبة بابك . قال : ذاك أبى وأنت العتبة ، أمرنى أن أمسك ، ثم لبث عنهم ما شاء الله ، ثم جاء بعد ذلك وإسماعيل يبرى نبلا له تحت دوحة قريبًا من زمزم ، فلما رآه قام إليه ، فصنعا كما يصنع الوالد بالولد ، والولد بالوالد . ثم قال يا إسماعيل ، إن الله أمرنى بأمر ، قال : فاصنع ما أمرك ربك . قال : وتعيننى ؟ قال : وأعينك . قال : فإن الله أمرنى أن أبنى هاهنا بيتًا وأشارا إلى أكمة مرتفعة على ما حولها - قال : فعند ذلك رفعا القواعد من البيت ، فجعل إسماعيل يأتى بالحجارة وإبراهيم يبنى ، حتى إذا ارتفع البناء جاء بهذا الحجر فوضعه له . فقام عليه وهو يبنى وإسماعيل يناوله الحجارة ، وهما يقولان : ﴿ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ فجعلا يبنيان حتى يدورا حول البيت وهما يقولان : ﴿ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ انتهى . رواه البخارى [٣٣٦٥،٣٣٦٤،٣٣٦٣] واللفظ له . والنسائى فى الكبرى [١/٨٣٧٩] وفى حديث أبى جهم : « كان إبراهيم يزور هاجر كل شهر على البراق يغدو غدوة فيأتى مكة ، ثم يرجع فيقيل فى منزله بالشام » قال الحافظ فى الفتح [٥٦/٧] : وروى الفاكهى من حديث على بإسناد حسن نحوه .

وعن على بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « فناداها جبريل فقال : من أنت ؟ قالت : أنا هاجر أم ولد إبراهيم ، قال : فإلى من وكلكما ؟ قالت : إلى الله ، قال : وكلكما إلى كاف » .

رواه الطبرى بإسناد حسن كما قال الحافظ فى فتح البارى [٥٣/٧] .

وعن عبد الله بن عباس رضى الله تعالى عنهما قال : « لما كان بين إبراهيم وبين أهله ما كان خرج بإسماعيل ، ومعهم شنة فيها ماء ، فجعلت أم إسماعيل تشرب من الشنة فيدر لبنها على صبيها حتى قدم مكة فوضعها تحت دوحة ، ثم رجع إبراهيم إلى أهله فاتبعته أم إسماعيل حتى لما بلغوا كداء نادته من ورائه : يا إبراهيم إلى من تتركنا ؟ قال : إلى الله . قالت : رضيت بالله .

وفى لفظ آخر : « ... فتبعته أم إسماعيل فقالت : يا إبراهيم أين تذهب وتتركنا بهذا الوادى الذى ليس فيه إنس ولا شىء ، فقالت له ذلك مرارًا ، وجعل لا يلتفت إليها ، فقالت له : آالله أمرك بهذا ؟ قال نعم . قالت : إذن لا يضيعنا ، ثم رجعت .. » رواه البخارى [٣٣٦٥،٣٣٦٤،٣٣٦٣] واللفظ له . والنسائى فى الكبرى [٨٣٨٠،٨٣٧٩] ، والبيهقى =

إن الاختيار من الله سبحانه فهو الذى اختار المكان ، وأمر إبراهيم بالإقامة فيه ، ولذلك قال : ﴿ رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ ﴾ عبارة ﴿ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ ﴾ هى حيثية الرضا بالتكليف ، فكأنه أحب هذا المكان رغم قفره ، طاعة له سبحانه . مثلما تقول لأحد : اذهب إلى مكان كذا لتقابل فلانًا فيقول لك : يا أخى المكان بعيد ، والمواصلات صعبة ، ولكن سأذهب من أجل فلان هذا ؛ لأنى أحبه وأتمنى خدمته .

إذن .. فهناك أمر تكليفى سينفذ برضا وحب وسيأخذ صاحبه ثوابين ثواب حب التكليف وثواب القيام بالتكليف .

وحب التكليف مثل الرجل الذى قال : اللهم إنى عصيتك ، ولكنى أحب من يطيعك ، فاجعلها قربة لى ؛ لأنه يفرح بتنفيذ التكليف ولو من غيره ؛ لأن فى تنفيذه حتى من غيره مصلحة له ؛ ولذلك فإن ربنا سبحانه حين علمنا أن نناجيه فى فاتحة الكتاب فى أول الصلاة قال سبحانه : ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝ ﴾ [الفاتحة] . ومع أن المصلى الذى يقرأ الفاتحة فى الصلاة فرد وليس مجموعة ، فإنه لم يقل إياك أعبد ؟ وإنما قال : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ فحشر نفسه فى زمرة العابدين ؛ لعل الله يقبلهم من أجل واحد فيهم ، فتكون الصفقة رابحة فكأنه يقول : يا رب اقبلنى وأنا عاص من أجل هذا الجمع من عبادك الصالحين ، ولذلك فإنهم يقولون : إن الذى يفعل معصية لا يغضب من الطائعين بل يفرح بهم ؛ لأن فرحته بالطائعين دليل على حب التكليف لكنه لا يقدر

= فى الدلائل [٢/٤٧-٥٢] . وقد عزاه الحافظ فى النكت الظراف على الأطراف [٤/٤٣٩] ، لسعيد بن داود فى تفسيره ، وللطبرى فى تفسيره [١٣/١٥٣-١٥٤] .
وأما الحافظ ابن حجر فى فتح البارى [٧/٥٠-٥١] فقد عزاه : لابن السكن والإسماعيلى والفاكهى والأزرقى وعمر بن شبه فى كتاب مكة ، وأبو نعيم فى المستخرج .

على نفسه فكأنه يقول : ما دمت أحب التكليف فيا رب أكرمنى من أجل ذلك . لماذا نقول هذا الكلام ؟ لأن قوله : ﴿ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ ﴾ يعنى أن إبراهيم لم يأت إلى هذا المكان من نفسه وإنما جاء تنفيذًا لأمر الله سبحانه وتعالى ، ولذلك ستقول له زوجته بعد ذلك : ما الذى جاء بك إلى هذا المكان ؟ هل هو أمر ربك ؟ أو من عندك ؟ فيقول لها : ربنا هو الذى أمرنى بهذا . فتقول له : مادام الله هو الذى أمرك بهذا فلن يضيعنا .

أما معنى قوله تعالى : ﴿ رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ فمعناه أن هذه ليست شهوة سياحة ، وإنما ليقيم الصلاة فمادام هذا المكان هو بيت الله المحرم فلابد أن يعبد فيه . ربما يقول أحد : بيوت ربنا كثيرة ، فنقول له : هناك فرق بين بيت الله باختيار خلق الله ، وبين بيت الله باختيار الله فإن خلا بيت من بيوت الله التى أقيمت باختيار خلقه فليس هذا كما يخلو بيت لله باختيار الله ، فبيت الله باختياره يجب أن تتصل فيه العبادة .

إذن .. فالحيثية أننا نأخذ أمر الوجود فى هذا المكان الذى ليس فيه من أسباب الحياة ولا مقوماتها شىء ، على أن الله أمر وما دام قد أمر فلماذا فى هذا المكان بالذات ؟ قال : لأن هذا بيت باختيارى ولا يصح أن يخلو من مصلين وعابدين لى ، ولذلك أرى ألا تمكن أحدًا من الإقامة فى هذا البيت إلا العابدين الموجودين للعبادة فقط ، فإن جربنا على أحدهم معصية واحدة نقول له : لا تسكن فى هذا البلد ونعمل سياجًا حول الحرم فمن يريد أن يعيش عيشة حرة يخرج منه لأن هذا المكان كما قال الحق سبحانه : ﴿ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ وما دام قد قال : ﴿ لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ فلابد لمقيم الصلاة من إقامة حياة ، والمقوِّم الأول فيها أن يأكل ويشرب لذلك قال تعالى : ﴿ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ ﴾ [إبراهيم : ٣٧] ، أفئدة جمع فؤاد ، والفؤاد : هو القلب ، والأفئدة تطلق على الطائفة أيضًا .

لكن ما علاقتها هنا « بالفؤاد » الذى هو القلب ؟ قالوا : لأن الهوى فى الحجيج هوى قلوب ، وليس هوى جيوب . فالإنسان يكون غير قادر على نفقات الحج ، ومع ذلك يحرم نفسه ويستدين حتى يحج .

فالفريضة الوحيدة التى يدخل الناس أنفسهم فيها وهم غير مطالبين بها إلا فى حالة الاستطاعة هى الحج ، تجد الإنسان غير مستطيع ماليا ومع ذلك يظل سنوات يحرم نفسه ويدخر حتى يحقق رغبته فى أداء الحج .

إذن .. هى مسألة قلوب ؛ وبذلك تتضح علاقتها بقول الله تعالى : ﴿ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ ﴾ وكلمة : ﴿ تَهۡوِيٓ ﴾ « الهاء والواو والياء » . لها معان متعددة :

« هَوِى يهوِى » بالكسر أى : سقط على مكان ولا إرادة له فى السقوط ، فساعة يسقط حجر من أعلى كأنه مقهور على السقوط . إنما « هوَى يَهوَى » بالفتح بمعنى : أحب . إذن : فهذا ميل قلوب ، وذلك ميل قوالب وقوله سبحانه : ﴿ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ ﴾ يعنى : أنهم سيكونون فى مكان ليس فيه زرع ولا شىء من مقومات الحياة .

ومع ذلك فقد شاءت إرادة الله أن يكون هذا المكن القاحل المقفر ، شيئًا آخر تمامًا ؛ لأن الله سبحانه وتعالى قال : ﴿ يُجۡبَىٰٓ إِلَيۡهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَيۡءٖ رِّزۡقٗا مِّن لَّدُنَّا ﴾ [القصص : ٥٧] ، فكانت كل خيرات الدنيا تأتى إلى هذا المكان حتى قبل أن يُكتشف البترول ويَعم الخير وإياك أن تفهم أن ذلك باختيار الذين يأتون البيت الحرام ؛ لأن الله قال : ﴿ رِزۡقٗا مِّن لَّدُنَّا ﴾ وكلمة : ﴿ يُجۡبَىٰٓ ﴾ كأنها جباية أى : أمر مفروض ففى الطائف مثلًا أنواع كثيرة من الفاكهة والثمار حينما تذهب إلى السوق لتشترى يقولون لك : هذه ثمار مكة ، اشتراها من مكة شىء عجيب !! وقوله سبحانه : ﴿ يُجۡبَىٰٓ إِلَيۡهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَيۡءٖ ﴾ كلمة : ﴿ كُلِّ شَيۡءٖ ﴾ هذه إن جعلتها فى الثمرات فإنك إن سافرت إلى البلد الحرام تجد فيه فاكهة الشتاء موجودة فى الصيف ، وفاكهة الصيف موجودة فى الشتاء وهكذا .

لأن هذه الثمار جاءت لها من كل بقاع الأرض فهى نتيجة كل البيئات والأجواء ، ليس ذلك فقط بل هى الآن تنمو بالنمو الحضارى لأن ثمرات العقول المفكرة تذهب إلى هناك حتى أنهم جعلوا من مدينة جدة ، المدينة النموذجية فى العالم فهذه ثمرات الأفكار وثمرات التخطيط والهندسة والإمكانات . كنا فى الماضى حين نذهب للحج نأخذ الزاد والملح والإبرة والخيط ، ولكن بعد ذلك حين ذهبنا ومكثنا فى البعثة أصبحنا نأتى بكماليات الحياة من هناك من مكة فقوله سبحانه : ﴿ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ

إِلَيْهِمْ ﴾ . قال بعض الصالحين : لو قال الحق سبحانه فاجعل أفئدة الناس أو قال : فاجعل الناس يهوون إليهم لو كان النص كذلك لما وُجد لأحد به مكان ولو لم يقل : ﴿ أَفْئِدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ ﴾ لكان النصارى واليهود يذهبون ليحجوا . ثم يقول : ﴿ رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِى وَمَا نُعْلِنُ ﴾ بعد أن اطمأن على أنه أصبح بلدًا ، وتحقق له الأمن العام والأمن الخاص ، واطمأن على أنه سيأتيه الرزق ، والخيرات عاودته الدوافع إلى المجيء لهذا المكان ؛ لأنه سيترك زوجته هاجر وابنها إسماعيل فأصبح مشغولاً بهما ؛ ولذلك قال تعالى : ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِى وَمَا نُعْلِنُ ﴾ .

الضمير هنا بالجمع وبعض المفسرين يقول : قوله : ﴿ تَعْلَمُ مَا نُخْفِى ﴾ . أى : ما أخفى من الحب لهاجر وإسماعيل ، وما نعلن أى من الجفاء أمام سارة لهاجر وابنها كأن المعانى النفسية عاودته عندما هم بالرحيل نقول له : قوله : ﴿مَا نُخْفِى وَمَا نُعْلِنُ ﴾ دليل على أنها ليست مسألة سهلة أن يترك هاجر ووليدها فى مكان ليس فيه زرع ولا ماء ولا بشر .

فهى مسألة صعبة على النفس ؛ ولذلك فإن هاجر صبرت مدة طويلة لم تسأل إبراهيم عن شيء حتى هم بالرحيل فقالت له : كيف ستتركنا فى هذا المكان ؟ هل هذا من رأيك أو أمر ربنا ؟ فقال لها : ربنا هو الذى أمر ، فقالت له : إذن فلن يضيعنا .

وتأكدت لها هذه المسألة عزليا ؛ فيعطش ابنها وينفد الماء الذى فى السقاء ، ويتألم الرضيع من العطش فماذا تفعل ؟ تقوم بمجهود بشرى ، نظرت إلى الوادى ، جبال هنا وهناك فتجرى إلى الجبل لعلها ترى شجرة عندها ماء أو أحدًا قادمًا معه ماء ، فقصارى ما تفعله امرأة فى هذه السن أن تجرى بين الصفا والمروة سبع مرات هذا أكمل مجهود بشرى ، ولكن هذا المجهود البشرى لم يأت بنتيجة ، وبعد هذا التعب وجدت الماء عند قدمى وليدها .

إذن .. فصدق قولها : لن يضيعنا ، وإلا فلو أنها وجدت الماء عند الصفا أو عند المروة لما كان لقولها : لن يضيعنا مدلول ، ولكنها أخذت بالأسباب ولم تجد الماء ، ثم وجدته عند قدمى إسماعيل .

○○○

زمزم .. وصدق التوكل على الله

هنا يجب أيضا أن ننتبه إلى شيء آخر ، وهو أن الحق سبحانه وتعالى حينما أبقى بعض الأشياء وجعلها نسكا أراد أن يجعل الناس على ذكر من أصول مناسكهم ، فمثلاً : السعى بين الصفا والمروة ، عرفنا أن السيدة هاجر سعت بينهما لطلب الماء لوليدها إسماعيل عليهما السلام سبعة أشواط ، ولم تجد ، ثم وجدت ابنها ضرب برجله فخرجت زمزم .

إذن .. فزمزم تمثل شيئا فى العقيدة ، بصرف النظر عن كونها : « مباركة ، وأنها طعام طعم »[1] ، السعى يمثل رمزية الأسباب وزمزم تمثل رمزية التوكل على المسبب حيث الرزق من حيث لا تحتسب .

إذن .. فلابد للإنسان أمام ظروف الحياة أن يكون له حالين : حال يسير فيه مع الأسباب فيجد ويجتهد كما جدت السيدة هاجر عليها السلام فى أنها ذهبت إلى الصفا فالمروة وكررت ذلك ؛ ولكن هذا لم يأت لها بالماء ، وجاء لها الماء من حيث لا تحتسب بضربة قدم من ابنها الصغير الضعيف ؛ وعلى هذا فالمؤمن بين أمرين : بين أسباب تشغل جوارحه ، وتوكل على الله يشغل قلبه ، ولتأكيد هذا المعنى ، ليس أن تقول هذه زمزم التى كذا ، التىجاء بها الله من حيث لا تحتسب السيدة هاجر ، وكذا وكذا ، لا . بل ونشرب منها ، والله يجعل فيها الفائدة ، لدرجة أن المحدثين فى السيرة حدثونا أن أبا ذر حينما جاء من بلاده بعد أن سمع خبر بعثة الرسول صلى الله عليه وسلم لم ينزل ضيفًا على أحد فى مكة ؛ ونزل ضيفًا فى المسجد ، وقد يسأل الناس ويقولون : لماذا مع أن كل واحد يأتى من البادية له واحد من الحضر ؟ فكل واحد يأتى من البادية يكون له قريب أو صديق ينزل عليه ؛ ولذلك كان زاهر بن حرام هو البدوى لرسول الله صلى الله عليه وسلم – يعنى عندما ينزل رسول الله الصحراء ينزل على سيدنا زاهر بن حرام – وكان يحبه جدا وله دعابات معه كثيرة جدا ، لدرجة أنه رآه مرة

(١) جـزء من حديث رواه مسلم [١٣٢/٢٤٧٣] ، وروى عبد الرزاق فى المصنف [١١٨/٥] عن طاووس عن أبيه قال : زمزم طعام طعم وشفاء سقم .

فى السوق ، جاء من البادية ولم يذهب إلى رسول الله ، فرآه صلى الله عليه وسلم فى السوق فداعبه صلى الله عليه وسلم دعابة تبين لنا منزلته عند رسول الله ، كان لونه أسمر قليلًا ، فجاء رسول الله من خلفه - كما نصنع نحن مع أحبابنا - ووضع يديه على كتفه وقال : من يشترى العبد ؟ فعرف زاهر بن حرام صوت رسول الله ، فقال : إذن تجدنى يا رسول الله كاسدا .

فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم :

ولكنك عند الله ربيح[1] .

فالشاهد أن كل بدوى له حضرى ينزل عليه والعكس صحيح ، فسيدنا أبو ذر الغفارى لما جاء لم يذهب لمن ينزل عليه من الحضر ، بل ذهب إلى الحرم . لماذا ؟ نحن بحثنا فى هذه العلة ، ما دام له مكان ينزل فيه عند أهل مكة ، لماذا لم يذهب إليه ؟

قالوا : لأن المسألة فى استقبال الرسول كانت البيوت مختلفة ، بيوت آمنت به ، وبيوت كفرت به ، والبيت الواحد فيه من آمن وفيه من كفر ، فقال : لو ذهب عند أحد فاحتمال أن يكون هذا الرجل الذى سأذهب عنده روحه ليست معه ، أو روحه معه يشهد له ، أو روحه ضده فيشهد ضده ، فلا داعى لهذه ولا لهذه ؛ وذهب إلى بيت الله الحرام .

ومكث شهرًا حتى جمع الأخبار ، قال أبو ذر فوالله ما طعمت طعاما إلا زمزم ، ووالله لقد تكسرت عكن بطنى ، يعنى : سمن حتى صارت بطنه طيات .

إذن .. فصدق أبو ذر رضى الله تعالى عنه . وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أن قال : « زمزم طعام طعم وشفاء سقم »[2] .

ooo

(١) رواه الطبرانى فى المعجم الكبير [٥/٢٧٤/٥٣١٠] وقال الهيثمى فى مجمع الزوائد [٩/٣٦٩] : ورجاله موثقون .

(٢) سبق تخريجه .

إبتلاء إبراهيم فى ولده

إذا كان الله تبارك وتعالى ابتلى إبراهيم عليه السلام بالنار فى مطلع حياته ؛ فقد ابتلاه فى آخر أيامه بأن أمره بذبح ولده الوحيد . والإنسان فى أول حياته تكون ذاتيته هى المسيطرة على نفسه ولكنه فى أواخر حياته تكون ذاتية أولاده فوق ذاتيته . فقد اقتربت حياته من النهاية ، ولذلك فهو يريد أن يعطى أولاده كل شىء ، ويريد أن يحقق لهم مالم يحققه لنفسه ، وهكذا عندما كبر إبراهيم وصار شيخًا جاءه الابتلاء الثانى بأن يذبح ولده . ولنبين قوة هذا الابتلاء على نفس إبراهيم نقول : إن إبراهيم أصبح فى سن كبيرة . وحسب عالم الأسباب من المشكوك فيه أن يرزقه بولد آخر ، إذن .. فإسماعيل هو كل عزوة إبراهيم فى الدنيا . وإذا بالأمر يصدر من الله ليس بأن يقتل إسماعيل ، فربما كان ذلك هينًا على النفس بأن يعطى إبراهيم ولده لعدد من الناس يأخذونه بعيدًا عنه يقتلونه . كان فى ذلك نوع من الرحمة فى القضاء ، ولكن الله سبحانه وتعالى أمر إبراهيم بأن يأخذ ابنه ويذبحه بيده ، ابتلاء كبير جاء عن طريق رؤيا لإبراهيم ورؤيا الأنبياء حق[1] .

إبراهيم عليه السلام يعلم يقينًا أن الحق سبحانه وتعالى لا يطلب من خلقه إلا الاستسلام لقضائه ؛ ولذلك إذا رأيت إنسانًا طال عليه القضاء فى أى شىء فى مرض ، فى مصيبة ، فى مال ، فاعلم أنه لم يرض بما وقع له ، ولو أنه رضى لانتهى القضاء ، فلا يرفع قضاء حتى تكون نفس من ابتلى به راضية ، وما دام عدم الرضا موجودًا فالناس هم الذين يطيلون على أنفسهم أمد القضاء ؛ لأنهم لا يرضون به ، فإذا قال لك إنسان إنه راض بقضاء الله وأن القضاء لم يرفع عنه ، فاعلم أنه يقول ذلك بلسانه ولا يرضى عنه بقلبه .

(١) قال عبيد بن عمير : رؤيا الأنبياء وحى ، ثم تلا هذه الآية : ﴿ قَالَ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلْمَنَامِ أَنِّيٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [الصافات : ١٠٢] ، راجع تفسير ابن كثير [٤/١٦] ، وانظر البخارى [١٣٨] . وعن ابن عمر رضى الله تعالى عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الرؤيا الصالحة جزء من سبعين جزءًا من النبوة » . رواه مسلم [٩/٢٢٦٥] .

إبراهيم عليه السلام عرف هذه القضية من علم الملكوت ، عرف أنه لا يرفع قضاء حتى يرضى به فامتثل لأمر الله ، ولكن حب إبراهيم لابنه جعله لا يريد أن يجعل إسماعيل يمر بفترة سخط فلا يفوز برضا الله ، ولذلك لم يأخذه رغمًا عنه ويذبحه ؛ لأن فى هذه الحالة قد يكون إسماعيل غير راض ، فيحرم من الجزاء على هذا الابتلاء . فيقول إبراهيم عليه السلام لولده : ﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ﴾ وهكذا يريد إبراهيم لابنه أن يأخذ ثواب الاستسلام بقضاء الله ، وهذا يرينا حب إبراهيم لابنه ؛ لأنه لا يريد أن يحرمه فى هذا الابتلاء من الثواب . ماذا يقول الابن ؟ يقول له : ﴿ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [الصافات : ١٠٢] ولم يقل إسماعيل لأبيه يا أبت افعل ما تريد بل قال له : افعل ما تؤمر ؛ حتى يأخذ الإبن ثواب عبودية الطاعة ، ويمضى الابتلاء ويقول الحق : ﴿ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ۝ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۝ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ۝ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ۝ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ۝ ﴾ [الصافات] .

إذن .. فعندما صدق إبراهيم الرؤيا نزل الذبح العظيم من السماء ليفتدى به إسماعيل ؛ بل وأكثر من ذلك نزلت معه البشارة بأن إبراهيم سيرزق بولد آخر مصداقًا لقول الحق : ﴿ وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [الصافات : ١١٢] .

هكذا لم تكن البشرى فقط من الله بإنجاء إسماعيل من الذبح ؛ بل كانت أيضًا بأن إبراهيم سيرزق بولد ثان ، وهذا الولد سيكون نبيًا من الصالحين(١).

(١) قال ابن كثير فى تفسيره [٤/١٨-٢٠] : ذهب أهل الكتاب وجماعة من أهل العلم إلى أن الذبيح هو إسحاق ، وحكى ذلك عن طائفة من السلف ، حتى نقل عن بعض الصحابة أيضًا ، وليس ذلك فى كتاب ولا سنة ، وما أظن ذلك متلقى إلا عن أحبار أهل الكتاب وأخذ ذلك مُسلمًا من غير حجة ، وهذا كتاب الله شاهد ومرشد لى أنه إسماعيل فإنه ذكر البشارة بغلام حليم فى قوله : ﴿ فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴾ [الصافات : ١٠١] ، وذكر أنه الذبيح فى قوله : ﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ﴾ . ثم قال بعد ذلك : ﴿ وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [الصافات : ١١٢] .

ويقول ابن القيم فى « زاد المعاد فى هدى خير العباد » الجزء الأول فى فصل نسب الرسول صلى الله عليه وسلم : وإسماعيل هو الذبيح على القول الصواب عند علماء الصحابة والتابعين ومن =

= بعدهم ، وأما القول بأنه إسحاق فباطل بأكثر من عشرين وجهًا وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه يقول : هذا القول إنما هو متلقى عن أهل الكتاب مع أنه باطل بنص كتابهم ، فإن فيه : إن الله أمر إبراهيم أن يذبح ابنه بكره - وفى لفظ - وحيده ، ولا يشك أهل الكتاب مع المسلمين أن إسماعيل هو بكر أولاده ، والذى غر أصحاب هذا القول : أن فى التوراة التى بأيديهم : « اذبح ابنك إسحاق » . قال : وهذه الزيادة من تحريفهم وكذبهم ؛ لأنها تناقض قوله : « اذبح بكرك ووحيدك » ولكن اليهود حسدت بنى إسماعيل على هذا الشرف وأحبوا أن يكون لهم ، وأن يسوقوه إليهم ويحتازوه دون العرب ، ويأبى الله إلا أن يجعل فضله لأهله وكيف يسوغ أن يقال : إن الذبيح إسحاق والله تعالى قد بشر أم إسحاق به وبابنه يعقوب ؟ فقال تعالى عن الملائكة إنهم قالوا لإبراهيم لما أتوه بالبشرى : ﴿ فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا۟ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ۝ وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ۝ ﴾ [هود] . فمحال أن يبشرها بأنه يكون له ولد ثم يأمر بذبحه ، ولا ريب أن يعقوب داخل فى البشارة ، فتناول البشارة لإسحاق ويعقوب فى لفظ واحد ، وهذا ظاهر الكلام وسياقه .

ثم يقول : ويدل عليه أيضًا أن الله سبحانه لما ذكر قصة إبراهيم وابنه الذبيح فى سورة الصافات قال : ﴿ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ۝ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۝ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ۝ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ۝ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ۝ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ۝ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ۝ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ۝ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝ وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝ ﴾ [الصافات] . فهذه بشارة من الله تعالى على صبره على ما أمر به ، وهذا ظاهر جدا فى أن المبشر به غير الأول ؛ بل هو كالنص فيه .

ثم يقول : وأيضًا فلا ريب أن الذبيح كان بمكة ؛ ولذلك جعلت القرابين يوم النحر بها ، كما جعل السعى بين الصفا والمروة ورمى الجمار تذكيرًا لشأن إسماعيل وأمه وإقامة لذكر الله ، ومعلوم أن إسماعيل وأمه هما اللذان كانا بمكة دون إسحاق وأمه ، ولهذا اتصل مكان الذبح وزمانه بالبيت الحرام الذى اشترك فى بنائه إبراهيم وإسماعيل ، وكان النحر بمكة من تمام حج البيت الذى كان على يد إبراهيم وابنه إسماعيل زمانًا ومكانًا ، ولو كان الذبح بالشام - كما يزعم أهل الكتاب ومن تلقى عنهم لكانت القرابين والنحر بالشام لا بمكة .

وأيضًا فإن الله سبحانه سمى الذبيح حليمًا ؛ لأنه لا أحلم ممن أسلم نفسه للذبح طاعة لربه ، ولما ذكر إسحاق سماه عليمًا فقال تعالى : ﴿ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ۝ إِذْ دَخَلُوا۟ =

= عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَىٰ أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ ﴾ وهذا إسحاق بلا ريب ؛ لأنه من امرأته وهى المبشرة به ، وأما إسماعيل فمن السرية . وأيضًا فإنهما بُشرا به على الكبر واليأس من الولد وهذا بخلاف إسماعيل فإنه ولد قبل ذلك .

• وأيضًا فإن الله سبحانه أجرى العادة البشرية أن بكر الأولاد أحب إلى الوالدين ممن بعده ، وإبراهيم عليه السلام لما سأل ربه الولد ووهبه له ، تعلقت شعبة من قلبه بمحبته ، والله تعالى قد اتخذه خليلًا ، والخلة : منصب يقتضى توحيد المحبوب بالمحبة ، وأن لا يشارك بينه وبين غيره فيها فلما أخذ الولد شعبة من قلب الوالد ، جاءت غيرة الخلة تنتزعها من قلب الخليل فأمره بذبح المحبوب ، فلما أقدم على ذبحه وكانت محبة الله أعظم عنده من محبة الولد خلصت الخلة حينئذ من شوائب المشاركة ، فلم يبق فى الذبح مصلحة إذ كانت المصلحة إنما هى فى العزم وتوطين النفس فيه فقد حصل المقصود ، فنسخ الأمر وفدى الذبيح وصدق الخليل الرؤيا وحصل مراد الله . ومعلوم أن هذا الامتحان والاختبار إنما حصل عند أول مولود ولم يكن ليحصل فى المولود الآخر دون الأول ؛ بل لم يحصل عند المولود الآخر من مزاحمة الخلق ما يقتضى الأمر بذبحه ، وهذا فى غاية الظهور .

وأيضًا فإن سارة امرأة الخليل إبراهيم عليه السلام غارت من هاجر وابنها أشد الغيرة ، فإنها كانت جارية ، فلما ولد إسماعيل وأحبه أبوه اشتدت غيرة سارة ، فأمر الله سبحانه أن يبعد عنها هاجر وابنها ويسكنها فى أرض مكة ليبرد عن سارة حرارة الغيرة ، وهذا من رحمته ورأفته ، فكيف يأمره سبحانه بعد هذا أن يذبح ابنها ويدع ابن الجارية بحاله ؟ هذا مع رحمة الله لها وإبعاد الضرر عنها وجبره لها ، فكيف يأمر بعد هذا بذبح ابنها دون ابن الجارية ؟! بل الحكمة البالغة اقتضت أن يأمر بذبح ولد السرية ، فحينئذ يرق قلب السيدة على ولدها وتتبدل قسوة الغيرة رحمة ، ويظهر لها بركة هذه الجارية وولدها ، وأن الله لا يضيع بيت هذه وابنها منهم ، ويرى عباده جبره بعد الكسر ، ولطفه بعد الشدة ، وأن عاقبة صبر هاجر وابنها على البعد والوحدة والغربة والتسليم إلى ذبح الولد ، آلت إلى ما آلت إليه من جعل آثارهما ومواطئ أقدامها مناسك لعباده المؤمنين ، ومتعبدات لهم إلى يوم القيامة ، وهذه سنته تعالى فيمن يريد رفعه من خلقه ، أن يمن عليه بعد استضعافه وذله وانكساره ، قال تعالى : ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ﴾ [القصص : ٥] ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم . ا.هـ [بتصرف يسير] .

وهكذا يرينا الحق سبحانه وتعالى من اسرار ملكوت السماوات والارض ويعرفنا نهاية الأشياء ، وأن كل قضاء لله له حكمة ولو لم نعرفها . فمن أصيب بمصيبة فما عليه إلا أن يرضى ، وما دامت المصيبة لا دخل لحركة الإنسان فيها وإنما أجراها عليه الله ، فلابد أن تعلم أنه لا يوجد خالق يفسد ما خلق ، ولا صانع يفسد ما صنع .

إذن .. فلابد أن تكون هناك حكمة للخالق وإن لم نفهمها ، وعلى ذلك فإن طريق الخلاص من أى نائبة من النوائب هو بالرضا ، وما دام يوجد رضا حقيقى ينتهى كل شيء ، ولكن الذى يحزننا أننا عندما نصاب بمصيبة لا نرضى ، ونفتح باب الحزن ولو كنا حقيقة نعقل ونفكر لأغلقنا باب الحزن وفتحنا باب الرضا ، ولكنَّا قد علمنا أن ما أخذ منا فنحن معوضون بخير منه لو رضينا ، ولذلك يقال : إن المصاب ليس من حدثت له مصيبة وإنما المصاب من حرم الثواب ، فتكون النتيجة أننا فقدنا عزيزًا نحبه ثم لا نأخذ عليه ثوابًا بالجنة ، ولو أنك كنت تحب هذا العزيز الذى فقدته ، لكان لابد أن تأخذ بسبب فقده الجنة ، تلك هى حقيقة القضاء فى عالم الملكوت .

ooo

بركة البيت .. والحج المبرور

يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴾ [آل عمران : ٩٦] .

البركة أن يعطى الذى تتفاعل معه فوق ما كنت تنتظره . هذه هى البركة .

فمثلا يزرع مزارع فدان قمح ، وفدان القمح مثلًا عادة يخرج عشرة أرادب . ولكن هذا الفدان أعطى أكثر مما هو متوقع منه ؛ وفاق مثيله عند آخرين . فيقول لك : إن هذا ربنا مبارك له فى رزقه .

مبارك له فى رزقه يعنى : أن رزقه يؤدى أشياء فوق المظنون أن تؤدى به .

لأن هذه البركة لها أسباب متعددة ، فهناك بركة الرضا ، وبركة أنه يمنع المصارف ، وبركة أنه يمنع المصائب عن الإنسان .

فإذا ذهبت إلى هناك إلى بيت الله الحرام ، امتلأت نفسك خشية لربك وتواضعًا مع الآخرين ، واستطعت أن تفهم عطاءات الله لكل خلق الله .

والأشياء التى كانت تورثك غرورا فى حياتك انتهت منك ؛ فإن كان لك طمع فى الدنيا لم يبق لك طمع ، وإن كان لك شراهة لم تبق لك شراهة ، فتأتى هنا البركة .

وأيضا : فإن الزمن هناك البركة فيه على قدر ما يعطيك من ثواب . كيف ؟ الإنسان فى بيته مشاغله وأموره فى الحياة آخذة منه كثيرا من حركته . هذا لون من البركة .

اللون الآخر : إن الإنسان الذى ذهب إلى مكان ليس فيه توطُّنه وليست فيه إمكانياته التى تعود عليها فهو يعيش عيشةً غير رتيبة . والعيشة غير الرتيبة تتطلب منه كثيرا من الحزم فى تصريف الأمور .

ولذلك نجد الإنسان فى بيته ربما ضاق بأن يبيت معه واحدٌ فى حجرة ، أو يبيت معه اثنان ، ولكننا نلاحظ فى هذه الأمكنة أن صدور الناس تتسع للناس ؛ إذن فالأماكن ليست هى التى تتسع ، وإنما الصدور هى التى تتسع .

فتجد أن أناسا جلسوا فى مكان : عشرة فى حجرة . كيف يقضون حاجتهم فى هذه الحجرة ، وكيف يضعون فيها أمتعتهم ، وكيف ينامون ، وكيف يرتاحون . ونجد أن الماء

الذى لا يكفى إنسانًا فى رتابة حياته فى بلده يكفيهم قليل منه ، والطعام كذلك .

كل ذلك لون من البركة فيما آتاه الله للإنسان ، وهذا إذا نظرنا إلى البركة فى ميعادها الموقوت بهذا المكان ، ولكنك إذا عدَّيت البركة إلى غيرها من الأمكنة فإنك ستذهب إنسانًا آخر بعد الحج ، إنسان حجه يجب أن يكون مبرورا والحج المبرور لا إثم فيه .

إذن .. فقد ضمن أن فترة من الزمن مرت به فى عبادة ، لا إثم فيها ولا فجور ولا فسوق ، تلك هى بركة ، وإلا فالزمان فى غيره صالحٌ لأن يكون فيه هذا وأن يكون فيه هذا ، إنما الإنسان فى بيت الله يستحى أن يمرَّ عليه خاطر السوء ، ليس أن يفعل خاطر السوء ، فتكون بركة ؛ لأن الزمان الذى يعيش فيه بارك الله فيه فلم يكن فيه إلا الخير ولم يكن فيه إلا الحسنة ولم يكن فيه إلا أن تُفكر فى مصالح الناس ولا يكون فيه أن تغتاب أحدا .. كل ذلك لون من البركة .

فإذا ما سمعت قول النبى صلى الله عليه وسلم : « الحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة »[1] ، فهذه بركة واسعة جدا ، بركة امتدت من الدنيا إلى الآخرة .

كذلك إذا رأيت أن الإنسان فى الحج المبرور تكون حياته بعد الحج خيرا من حياته قبل الحج ، فالأشياء التى كان يتساهل فيها كاللمم مثلًا ربما يمنع نفسه عنها فتكون بركة البيت قد امتدت إلى خارج هذا المكان .

وأيضًا فإن الحق سبحانه وتعالى يحب من الإنسان أن يعيش منهجه ، ولا تستطيع أن تلحظ عيشة الإنسان التامة وفق منهج الله إلا فى هذا المكان ، فإن الإنسان يكون خارجا من وقت الظهر - مثلًا - ويذهب إلى راحته وتنتظر أذنه أذان الوقت الذى بعده وعندما يؤذن تجد الكل يهرول فى الذهاب للمسجد ، فوقتك دائما مشغول بربك ، ليبرهن للإنسان أنه ليس المكان الذى يعطيك حرصك على أن تؤدى المنهج كما يريده

(١) رواه أحمد فى المسند [٢/٢٤٦] عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه ، وقال الأرناؤوط : إسناده صحيح على شرط الشيخين ، وأبو يعلى فى مسنده [٦٦٦٠] والطبرانى فى المعجم الكبير [١١٤٢٩/١٤٦/١١] وقال الهيثمى فى المجمع [٢٠٨/٣] : وفيه يحيى بن صالح الأيلى قال العقيلى : روى عنه يحيى بن بكير مناكير . وله شاهد من حديث جابر بن أحمد ولذا حسنه الشيخ الألبانى .

الله ، ولكن انشغالك الدائم بربك وحرصك على تأدية ما افترضه عليك هو الذى يعطيك ، ولذلك يقول بعض الصالحين : إذا ألزمت نفسك خارج البيت بما تلزم به نفسك وأنت فى البيت ترى من الخير هناك ما رأيته هنا .

إذن .. فالمسألة مسألة إلزام ؛ لأن الإنسان فى بيت الله يستحى أن يفكر فى معصية ، يستحى أن يمرّ عليه الوقت ولا يصلى ، يستحى أن لا يصلى إلا فى جماعة وفى المسجد فهات إنسان فى لندن وبعد ذلك قاعد مترقب الأذان وعندما يسمع الأذان يجرى ويهرول إلى المسجد ويؤدى الصلاة ، ولا يشغل نفسه إلا بطاعة الله ، فإنه أيضا يرى الخير .

فإذا ما كان الإنسان قد أخذ دُرْبةً على الخير فى أن يعيش منهج الله دائما وربما لزمته هذه العادة إن عاد إلى بلده ؛ لأنه بعد ما أدرك الحلاوة التى أدركها هنا يحاول جاهدا أن يُطبقها فى بلده ، فيكون هذا لونا من البركة .

وقوله تعالى : ﴿ وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ [آل عمران : ٩٦] . العالمين جمع عالم ، والعالم : ما سوى الله ، وما سوى الله : أجناس متعددة ، هذه الأجناس المتعددة منها ما هو غير مُكلف لأنه مطبوع على الخير ومطبوع على إطاعة الأمر فهم : ﴿ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ [التحريم : ٦] : وهم الجماد ، والحيوان ، والملائكة ، أى : كل شيء ما عدا الإنسان والجان .

القوم الذين يذهبون إلى الحج تختلف أجناسهم ، وتختلف ألسنتهم ، وتختلف ألوانهم . فإذا ما التقى هؤلاء جميعا ووجدوا أن جامع ألسنتهم نشيد واحد : « لبيك اللّهم لبيك » ، هتاف واحد ، وفعل واحد هو : طواف ، هو سعى ، هو كذا هو كذا هو رمى جمار ، هو وقوف بعرفة ، ارتبط الناس جميعا برباط واحد ، يتغلب على فوارق أزمنتهم ، وفوارق أمكنتهم ، وفوارق حضاراتهم ، ويشهد المسلم أنه لم يعد مؤمنا وحده بجنسه ولا بلونه ، بل هناك أجناس متعددة تعبد ربنا سبحانه وتعالى ، أجناس تؤمن بمن آمن به ، أجناس متعددة يجمعهم الخير ، كل هذا يكون للعالمين .

وهنا يكون : ﴿ وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ .

وقول الله سبحانه وتعالى : ﴿ فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ ﴾ [آل عمران : ٩٧] :

كلمة : ﴿ ءَايَٰتٌ ﴾ جمع آية ، و ﴿ بَيِّنَٰتٌ ﴾ جمع بينة ، يعنى : كل آية بينة : والجمع : ﴿ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ ﴾ .

لكن يلاحظ من الأداء القرآنى عندما قال : ﴿ فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ ﴾ أراد أن يبينها لنا ؛ لأن قوله تعالى : ﴿ فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ ﴾ وصف مجمل .

ما هى الآيات البينات ؟ لم يجئ القرآن الكريم فيها إلا بمقام إبراهيم عليه السلام : ﴿ فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ [آل عمران : ٩٧] فقط .

كأن الله سبحانه يريد أن يلفتنا إلى شئ : هذا الشئ أن لا تنظر إلى وحدة الشئ ؛ ﴿ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ هو الحجر الذى كان يقوم عليه وهو يرفع قواعد البيت .

إذن .. فالآيات البينات بُيِّنت بمفرد ، مع أن آيات بينات جمع ، فالمتوقع أن يقول : مقام إبراهيم وكذا وكذا وكذا ..

ولكنه قال : ﴿ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ ﴾ ، وقال : ﴿ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ .

يلفتنا الحق فى هذا إلى أنك لا تنظر إلى وحدة النعمة ، ولكن انظر إلى مكونات هذه النعمة . فلو نظرت إلى مكونات النعمة لوجدت فى كل مُفرد من النعم نعم ، فأنت مثلاً إذا نظرت إلى التفاحة على أنها نعمة ، انظر فيها إلى العناصر التى ستعطيك ، تُعطيك الرائحة ، تعطيك الفسفور ، تعطيك الصوديوم ، أشياء كثيرة مما يتكون منها جسدك .

إذن .. فالحق سبحانه وتعالى حينما يذكر نعمة من النعم يقول . إياك أن تفهم على أنها نعمة واحدة ، ولكن دقِّق النظر وحققه تجد فى طى هذه النعمة الواحدة نعما كثيرة .

ولذلك تجد الحق تعالى يقول : ﴿ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ﴾ [النحل : ١٨] والعد يقتضى تكرار واحدة ؛ تعد الشئ يعنى واحدة مكررة ، فكان بمقياسنا نحن البشر نقول : وإن تعدوا نعم الله .

ولكن قال سبحانه : ﴿ تَعُدُّوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ ... ﴾ كيف نعد نعمة واحدة ؟ والعدُّ : كما قلنا تكرار وحدة تُحسب : ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٥ ، ٦ .... إلخ .

وهو سبحانه وتعالى لم يقل : « نعم الله » ، حتى تكون أشياء مكررة بل قال : ﴿ نِعْمَةَ ٱللَّهِ ﴾ فلا تنظر إلى نعمة الله على أنها واحدة ، ولكن انظر إلى ما فى طيِّها من النعم .

وطيها من النعم هو ما كشفه لنا العلم الحديث من تحليل الشئ الواحد إلى العناصر التى يتكون منها .

وهذا ما وقف عليه عِلْم المخلوق فى تكوينه ، ومن يدرى أن كل عنصر من هذه العناصر بعد ذلك سيكون فيه عناصر عِدة متعددة ، فإن ارتقت آليات الأشياء فى ضبط المقاييس والموازين فستخرج لنا أشياء كثيرة إن شاء الله تعالى وقدر .

إذن .. فقول الحق : ﴿ فِيهِ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ مَّقَامُ إِبۡرَٰهِيمَۖ ﴾ [آل عمران : ٩٧] هى مفردة وهو شئ واحد ، وهو حجر قام عليه إبراهيم ؛ ولكنك لو تفهمته فستجد آيات واضحات فى هذا الواحد .. كيف ؟

الحق سبحانه وتعالى حين يُكلف عبده بتكليف : يطلب منه أن يؤدى التكليف على أتم وجه وأكمله ، لا أن يؤديه كما نقول فى حياتنا : « كمالة عدد » ، ولا أن يؤديه كما نقول فقط : « إبراء للذمة » .

ولذلك فإن الناس من أهل الحكمة يقولون :

إن أردت أن تعمل لغيرك عملاً فقدر هذا العمل يعمل لك ، وكما تحب أن يعمل لك فاعمل أنت أيضاً له .

فإن أنت أتقنت ما بيدك للغير ألهم الله الغير أن يتقن ما بيده لك .

إذن .. فالحق سبحانه وتعالى يريد من كل مكلف بعمل أن يتقنه .

ولذلك نجد أن الرسول عليه الصلاة والسلام وضع القيمة الجمالية فى الكون ، فى قوله : « إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يُتقِنَهُ »[1] .

فما دام سيتقن عمله فالله سبحانه وتعالى سيلهم الغير أن يتقن له .

إذن .. ﴿ فِيهِ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ مَّقَامُ إِبۡرَٰهِيمَۖ ﴾ [آل عمران : ٩٧] : إبراهيم عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام قال الله سبحانه وتعالى عنه فى القرآن العظيم : ﴿ إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةٗ ﴾ [النحل : ١٢٠] وقوله سبحانه : ﴿ أُمَّةٗ ﴾ لأن خصال الخير لم يستول عليها أحد

(1) رواه أبو يعلى فى المسند [٤٣٨٦] وقال محققه : إسناده لين ، والطبرانى فى المعجم الأوسط [٨٩٧] عن عائشة رضى الله تعالى عنها .

كلها ، ولكن هذا فيه خصلة وهذا فيه خصلة .. ، خصال الخير موزعة ، أما إبراهيم عليه السلام فكان أُمة فى الخير ؛ يعنى : فيه هذه الخصلة ، وهذه الخصلة ، وهذه الخصلة ، يعنى جُمع فيه من الخير ما يُجمَّع فى أُمَّة .

وأراد الله سبحانه وتعالى أن يعطينا لماذا جعله : ﴿ أُمَّةٗ ﴾ ولماذا جعله : ﴿ إِمَامٗاۖ ﴾ فقال سبحانه وتعالى فى آية أخرى : ﴿ وَإِذِ ٱبۡتَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٖ فَأَتَمَّهُنَّۖ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامٗاۖ ﴾ [البقرة : ١٢٤] .

قوله : ﴿ فَأَتَمَّهُنَّۖ ﴾ يعنى : أدى ما أمره الله به على أحسن ما يكون من وجوه الكمال . و « مُقام » بضم الميم - يعنى : مكان إقامة ، و « مَقام » بفتح الميم - يعنى : مكان قيام .

فالذى يرفع القواعد لا يرفعها وهو قاعد ، بل يقوم حتى يبنى ويعلى ، فحين يطلب الله من إبراهيم عليه السلام أن يرفع قواعد البيت ، والله لا يكلف نفسا إلا ما فى استطاعتها ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَاۚ ﴾ [الطلاق : ٧] و ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ ﴾ [البقرة : ٢٨٦] .

إذن .. فالتكليف على قدر ما أتى من الأسباب وعلى قدر الوسع ، فحين يطلب الله تعالى من إبراهيم عليه السلام أن يرفع القواعد هو وإسماعيل عليه السلام ، كان يكفى فى أداء التكليف أن إبراهيم يرفع البيت على أقصى ما تطول يده ، ويكون قد أدى ما أمره الله تعالى به .

لكن إبراهيم عليه السلام لم يكتف بهذا ، وإنما أراد أن يرفع القواعد إلى أعلى مما تصل إليه يده ، فماذا عمل ؟

بالطبع لم يكن يوجد كما نعمل الآن سقالات ، فأتى بهذا الحجر ونقله فى هذا المكان ووقف عليه ، وإسماعيل يناوله وهو يبنى ويرفع البناء .

فإذا قست ارتفاع الحجر يكون هو الارتفاع الزائد فى ارتفاع البيت ؛ لأنه وقف على هذا الحجر .

فإبراهيم عليه السلام أراد أن يؤدى ما أمره الله تعالى به فى رَفع قواعد البيت ليس كما يستطيعه بذاته ، بل بالحيلة ، والاحتيال ، فأتى بالحجر ووضعه فى هذا المكان ليعلى البناء ، ثم نقله فى جانب آخر ثم صعد عليه كذلك ليعلى البناء ، وهكذا .

ولا بد أن يكون الحجر في طاقة اثين ؛ يحمله هو وإسماعيل .

فلما لاحظنا الحجر ، وجدنا أن به قدمين ، الناس قالوا : إنه لما كان يقوم على الحجر فمكان القدمين عَلَّم عليه وهذا كلام يُقال ليس له دليل !!

إنما عندما يبحث العقل هذه المسألة يجد أن إسماعيل يساعد أباه ، وأبوه حمل الحجر ووضعه هنا ليعلى الكعبة على قدر قيمة الحجر والأقرب إلى العقل أن إبراهيم احتال لنفسه في أنه عمل لقدميه مكانًا . لكل قدم مكان ، حتى إذا أخذ الحجر ووقف عليه ، تتمكن قدماه من المكان الذى أعده لهما ، فلا يميل الحجر .

إذن احتال كم احتيال ؟

احتال أولاً في أن يزيد في علو البيت قدر قيمة الحجر ، واحتال لنفسه حتى لا تختل حركته بأن عمل لقدميه هذين المكانين .

فهذه آيات بينات تدلنا على أن كل تكليف من الله للخلق يجب أن يؤدى بكماله وبتمامه ؛ لأن كل إنسان لو أدى ما كُلف به بكماله وبتمامه أشاع نغمةً في الوجود ، هذه النغمة : كل ما يرى الإنسان شئ جيد متقن يقول : الله . الله ، يرى هذه فيقول : الله ، ويرى هذه فيقول : الله .

فالذى لا يتقن عمله يكون قد حرم الوجود من تعليق فطرى على أن كل جمال تراه عينك لا يُعقب عليه إلا بكلمة : « الله » ، فكأن الله هو مصدر الجمال ، وهو مقيم الجمال ، وهو مُلهم الجمال .

تلك مسألة ظهرت في بناء الكعبة ليس فقط لتظهر في بناء الكعبة ، بل لتكون أُسوة ، أسوة لكل واحد يكلفه الله تكليفاً أن يُحاول أن يؤدى التكليف لا بقدر الاستطاعة الذاتية فقط ولكن بقدر الاستطاعة والحيلة للزيادة من جنس التكليف الذى أمر الله تعالى به .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ﴾ [آل عمران : ٩٧] لماذا لا نعتبرها أيضا داخلة في الآيات التى جاءت في مقام إبراهيم ؟ وهنا قضية شرعية :

الذى يحدث فيه لبس عند بعض المفكرين - أو بعض المشككين ، أو بعض الذين يلحدون في دين الله - يقولون : من دخله كان آمنا ؛ وقد دخله أُناس فلم يؤمنوا .

أهيجوا أيام القرامطة ، ودخل ابن قُرمط ، وأخذ يقتل في الموجودين ، وأهيجوا في أيام أخرى .. ولم يؤمنوا ، مع أن ربنا سبحانه وتعالى قال : ﴿ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ﴾ .

فنقول لهم : أنتم أخذتموها على أنها قضية كونية ، يعنى : أن الله حكم بأن من يدخله لا بد أن يكون آمنا ! لا ؛ بل هي قضية شرعية ، ﴿ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ﴾ يعنى : من دخله فأمنوه . يعنى : أمر تكليفى ، وما دام أمرا تكليفيا فيكون عُرضة أن يُطاع وعُرضة أن يُعصى ، فالذى أطاع أَمَّنَ من دخله ، ومن عصى لم يُؤَمِّنْ من دخله .

فإذا ما حدث في الكعبة شئ إياك أن تقول إن ذلك يناقض القضية ؛ لأنك لا تعتبرها قضية كونية ، ولكنها قضية تشريعية .

فيجب أن تفطن إلى أن قول الله : ﴿ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ﴾ قضية شرعية ، مطلوب منك أن تُؤَمِّنَ من دخله ، فإن كنت محبا لله ومطيعا لمنهجه فإياك أن تُهيج إنسانا دخله .

ولكن إن أهاجه فيكون عاصيا مثل القضية الأخرى التى لا يفهمها بعض الناس على وجهها الصحيح ، وهى قول الله سبحانه وتعالى : ﴿ ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ ﴾ [النور : ٢٦] فيقول : نحن نرى رجلاً طيبا يتزوج امرأة خبيثة ، ونرى رجلا خبيثا يتزوج امرأة طيبة ، وهذا مناقض لقول الله تعالى : ﴿ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ ﴾ [النور : ٢٦] .

فنقول : إن هذه ليست قضية كونية ، وبالتالى ليس معناها أنه لا بد أن لا يتزوج الطيب إلا الطيبة ، والخبيث لا يتزوج إلا خبيثة . بالطبع لا .. فهى قضية شرعية ، يعنى اختاروا - أو زوجوا - الطيبين للطيبات وزوجوا الخبيثين للخبيثات ؛ ليضمن في الأسرة التكافؤ فلا يوجد في الأسرة أحد يزهو بشئ على الآخر .

إذن .. فقضية الطيبين للطيبات والخبيثين للخبيثات قضية ليست كونية بمعنى أنك لا ترى إلا طيبا مع طيبة ولا خبيثا إلا مع خبيثة . بل هى كما قلنا قضية شرعية ، إن أحسنا استقبال منهج الله ، وأطعنا الله تعالى فيما أمر ، فإذا ما جاء إلينا الطيب نزوجه الطيبة ، أما الخبيث فلا نزوجه الطيبة أبدا .

وإذا كان الحق سبحانه وتعالى قد طلب منا فى الحج أنه لا جدال والجدال : أولئك المراء ، وهو باللسان ، لم يتعد إلى الجوارح ، لكن أمنوه يعنى : لا تعتدوا أى : بجوارحكم لإيذائه .

ولذلك قالوا : إذا لقيت من قتل لك قتيلاً وأنت وليه هناك فإياك أن تقول هذا كذا وتمسك به ، بل ضيق عليه حتى يخرج ، فإن خرج حل لك ذلك ، حتى تنفذ قوله تعالى : ﴿ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ﴾ .

إذن .. فهذه القضية يجب أن نعيها جيدًا وأن يكون حرصنا عليها الآن أكثر من ذى قبل لأن الزحام الآن شديد والإيمان فى النفوس قد تأثر بالأحوال الاقتصادية والاجتماعية والنفسية التى تعيشها الأمة الآن ؛ هذا إلى جانب أن الناس الذين جاءوا من أقصى الأرض مختلفى الأمزجة ، مختلفى الألسنة مختلفى الألوان ، مختلفى المقامات ، كل واحد له طبع ، فلو لم يكن كل واحد منا لَيِّنَ الجانب لكانت المسألة فوضى ، ولأتعب بعضنا البعض ، فمن أجل ذلك جاء النهى : إياك أن تجادل أو تفعل أى شئ فى الحج لأن كل إنسان يعيش فى هذا المكان على غير رتابة حياته ، وما دام يعيش على غير رتابة حياته فيجب أن تسعنى أنت وقت ضيقى ، وأنا أسعك وقت ضيقك ، حتى تسير الأمور . ولذلك تجد أن هذا الحج إما أن يورث حبًا وإما أن يورث عداوة . فالذين لا يتمسكون بمبدأ : ﴿ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ﴾ [البقرة : ١٩٧] ويطلقون لأنفسهم العنان ؛ لا يتفقون مع أحد ، ويتعبون الآخرين ، حتى أنهم يكرهون بعض ، وتكون عداوة لا نهاية لها ، أما الذين يتطامنون معا تطامنا ، ويعيشون فى ظلال الطاعة فيظلون أحبابا طول العمر ؛ لأنهم وَسِعُوا نفسهم فى أيام الضيق وأيام تحكم الإقامة فى مكان لم يعتادوا فيه الإقامة ، فإذا كان هذا هو المطلوب ، فلا بد أن نُحافظ على أمن من فى الحرم ونُؤَمِّنْ من دخله .

وعلى هذا فلا بد أن يكون هناك أناس مأمورون بأن يُؤمنوا كل من دخله امتثالاً لقول الحق سبحانه : ﴿ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ﴾ أى : ومن دخل البيت فأمنوه . والمخاطب بـ : « أمنوه » لا بد أن تكون جماعة يُلْحَظُ فيها أن تكون لها القوة أن تؤمن من دخله ، فلا يكون حُكْماً فرديًا .

فالذى يُؤَمِّن هى الهيئة التى يكون لها من القوة ما تستطيع بهذه القوة ان تقضى على كل مشاغب يريد أن يعكر أمن هذا المكان ، فليست قضية فردية لى ولك أنت ، بل هى قضية لأُناس مخاطبين بها ، وهذا يتطلب أن يكون لأمر الكعبة أُناس يقفون موقف المراقب ، كل من يُخِلُّ بأمن هذه البلاد لا بد أن نقف فى طريقه ونؤمن البلاد .

فالذين يحاولون أن يجعلوا التأمين فرديا نقول لهم : هذا فى الحكم الفردى للفرد ، لكن فى الحكم الجماعى لا بد أن يكون له ردع جماعى ، هذا الردع الجماعى أن تكون المسألة فى يد جماعة أو هيئة تستطيع بما أوتيت من نوة أن تقف أمام كل من يُعكر أمن هذه البلاد .

قد يحدث من بعض الحجاج أنهم يريدون أن يروجوا لمذهبهم ، أو أن يشيعوا فوضى أو أن يشيعوا فتنة ، أو أن يقسموا موجودا ، أو أن يرفعوا نفوسهم فوق مستويات التقسيم ؛ نقول لهم : لا بد أن يضرب على أيديكم حتى يأمن من فى الحرم على نفسه .

○○○

بالمرأة وابنها الرضيع ويتركهم فى مكان ليس به ماء ، وهذا هو المقوم الأول ، الهواء فقط هو الذى عندهم ، وتنقل إلينا كتب التاريخ أنها قالت له : آللَّه أنزلك هذا المنزل ؟!

لأنها ليست متصورة أن إبراهيم يتركها هى ووليدها فى هذا المكان ، وتعلم أن إبراهيم لن يصدر عن هوى ، ولا يصدر إلا عن حكم من اللَّه ، فقالت له : آللَّه الذى أنزلك هذا المنزل أم أنت الذى أنزلتنا به ؟ فقال لها : اللَّه الذى أنزلنى ، فردت نفسها إلى قضية إيمانية ، فقالت : ما دام اللَّه الذى قال فلن يسلمنا ولن يضيعنا [1] .

فهذه هى القضية الإيمانية الأولى التى يجب أن يؤوب الحاج فيها من هذا المكان وهى فى ذاته : مادام استنفدت أسبابك ، فاللَّه المسبب هو المتصرف . فمادام اللَّه هو الذى أنزلنى فى هذا المكان ، فلن يضيعنى .

بالطبع عندما يعطش رضيعها وتريد أن تسقيه ، فماذا تصنع ؟ لابد وأن تتلفت حولها بحثا عن عين ماء ، أو علَّها ترى شجرة ، أو ترى أُناسًا معهم ماء ، فكان ولابد أن تخرج من الوادى إلى ربوة عالية ليتكشف لها المكان .

فذهبت على ربوة الصفا فنظرت فلم تجد لا شجرة ولا رأت أحدا ، ولا رأت طيرا طائرا لتهتدى بطريقه إلى الماء ، ثم رجعت فذهبت إلى الربوة الأخرى ، ربوة المروة فلم تجد شيئا ، ثم قالت : أرجع مرة أخرى لعلى أجد ركبا سائرا ، بين الصفا والمروة لطلب الماء ، فلم تجد شيئا .

إذن .. هى استنفدت كل أسبابها ، امرأة تمشى هذه الأشواط السبعة ، وتصعد ربوة الصفا وربوة المروة ، هذا غاية ما يمكن أن يكون لها من قوة ، فتكون قد عملت كل جهدها وطاقتها .

وبعد ذلك ذهبت إلى وليدها ولم تأت له بشىء ، فوليدها التى تريد هى إحضار الماء له ، ضرب الأرض برجله فخرج الماء !!

إذا كنت يا صاحبة الأسباب سعيت وذهبت وجئت وصعدت الجبال ، ولم تحصلى على شىء ، والوليد الذى ليس له حول ولا قوة يحرك رجله كما يلعب الرضع فينبع الماء من تحت قدميه !!

---

(1) سبق تخريجه .

إذن .. قول السيدة هاجر عليها السلام : « إذن لن يضيعنا الله » قضية إيمانية عقديه صدقت فيها ، فلو أنها وجدت الماء عند الصفا أو وجدت الماء فى إطلالتها من المروة ، لما اكتملت القضية .

لهذا نحن نكرر هذا المشهد استشعارا بما يجب أن يكون عليه المؤمن إيمانًا باللَّه الذى خلق الأسباب ، فإن استنفدت الأسباب ولم يشأ اللَّه ، فلا تيأس لأن المسبب سبحانه موجود اسأله فهو وحده القادر على أن يعطى بدون أسباب .

ولذلك فإن الحق سبحانه وتعالى يقول : ﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ ﴾ والمضطر هو الذى استنفد كل الأسباب ، وليس له إلا المسبب سبحانه ، فيتجه إليه ويقول : يارب الأسباب التى أعطيتها لى عملت بها كلها ولم تأت ، فأنت سبحانك القادر على أن تعطينى بلا سبب .

وهذا هو الرصيد الذى يأوى إليه المؤمن حينما تعز عليه الأسباب . وهذا هو الذى يجعل المؤمن يصبر ؛ لأنه آوى إلى ركن شديد .

ولذلك الكافر عندما تضيق به الأسباب لا يجد بدا إلا أن ينتحر ؛ لماذا ينتحر مع أن الحياة غالية جدا ؟ مع أن الكافر ليس له إلا الحياة الدنيا لأنه ليس مؤمنا بالآخرة ولا بالحساب ! فما الذى يهون عليه أن يترك الحياة وليس له غيرها ؟

إذن .. لابد أن تكون هناك أشياء فوق أسبابه . وهذا فرق المؤمن من الكافر ، الكافر حين تضيق به أسبابه ييأس ، لكن المؤمن لا ييأس من روح اللَّه ، بل يقول : الأسباب لم تأت ولكن المسبب سبحانه موجود .

إذن .. ملحظية هذا السعى ، كل واحد يذهب ليستكمل أركان دينه بالركن الأخير الذى هو الحج لابد أن يعود بهذه القضية ، وهو يؤديها إحياء لنسك السيدة هاجر أم إسماعيل عليهما السلام ، وليس فقط إحياء لنسك أم إسماعيل ، بل ترتيب لقضية الأسباب والمسببات حتى يستقبل المؤمن كل أحداث الحياة بقوة ، ولا ييأس ويقول : الأسباب صحيح لم تأت لى بما أطلبه وأرجوه ، لكن رب الأسباب وخالقها موجود .

وأيضا فالحق سبحانه وتعالى يريد أن لا يكلنا إلى تواكل ، فمن الناس من يقول مادام الله هو الذى يفعل كل شيء فلم العمل منا ؟ فنقول : لا ، لا تترك يد الله ممدودة لك بالأسباب وتطلب منه مباشرة ، عليك قبل ذلك أن تأخذ بالأسباب ، فإن استنفدت الأسباب فاذهب إلى المسبب ، أما أن تقول يارب وأنت لا تأخذ بالأسباب فهذا مخالف لسنة الله فى قضاء حوائج الناس ؛ فلذلك المتواكلون هم الذين يصنعون ذلك .

إذن .. قضية الإيمان فى ذاتها أن الإنسان فى هذا الوجود بين أمرين : بين أسباب لابد أن يأخذ بها ، وبين مسبب يجب أن لا ييأس منه أبدًا ، فالجوارح تعمل ولكن القلوب تتوكل .

ooo

فإذا ما تجاوزنا ذلك وتعرضنا للركن الثانى من الحج ، وهو الوقوف بعرفة ، فنجد الحق سبحانه وتعالى يريد أن يعرف الناس جميعا أقدارهم مع بعض ، كل فوج من الأفواج حتى من البلد الواحد ، صحيح نحن مسافرين فى فوج واحد ، ولابسين إحراما ، وأقدارنا انتهت ، وبزتنا انتهت ، وهيئتنا انتهت ، وكلنا على صورة واحدة ، إنما بعد أن نؤدى ونطوف ، نخلع ملابسنا ، وكل واحد يعود إلى هيئته وإلى بزته .

إذن .. فبعد أن كنا متحدين ابتدأنا فى الاختلاف ، ثم إن هذا يسكن فى فندق خمس نجوم ، وهذا فى فندق أربع نجوم ، وهذا فى فندق ثلاث نجوم ، وهذا يلبس القميص الذى صفته كذا وكذا وهذا كذا كذا . أيضا ابتدأت أقدراتا مرة أخرى تظهر .

فكان لابد من مشهد عام ، هذا المشهد العام الكل يرى نفسه فيه ، كل الناس ، سواء من البلد الواحد أو من كل البلاد ، فتأتى كل الأنواج لابسين لباسا واحدا ، وعلى صورة واحدة ، متجهين إلى عرفة .

وهذا اسمه : مشهدية الاستطراق العام . ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الحج عرفة » لماذا ؟

لأن الاستطراق فى البداية قد يكون جزئيا ، إنما هنا استطراق كلى ، استطراق عالمى ، بحيث لما ترى الكل هكذا تجدهم بشكل واحد .

على صعيد « عرفة » يشعرون بأنهم سواء فى العبودية وسواء فى كذا وكذا ، ولسان حالهم يقول : عرفنا أقدارنا ، وجئنا إلى ساحة تركنا فيها كبرياء حياتنا وغرورنا بأسبابها ومسبباتها ، ورفعنا جميعًا أمام بعضنا ؛ لأنه قد يوجد واحد من الناس عظيم فى بلد ويضرع إلى الله بينه وبين ربه لا أحد يراه ، وآخر يضرع إلى الله أمام الناس كلها ، هنا فى الحج ترىٰ العظيم بجوار الذى ليس بصاحب جاه ، الاثنان يبكيان ، والاثنان يرفعان أيديهما إلى الله تعالى مثلهم مثل كل الحجيج طالبين المغفرة والرحمة والرضوان من الله سبحانه تعالى .

يشهد الكل ذل الكل ، وعلى هذا فلن يرفع أحد رأسه على أحد ؛ لأنك أنت يامن أكثر جاها رأيت الأقل ذليلًا خاشعا خاضعا لله تعالى مثلك مثله ، فلو أنك رئيس هنا عال ومتغطرس وكذا وكذا ، ثم بعد ذلك ذهبت فحججت معه ، ورأيته وهو يلبس إحرامه وهو يبكى إلى الله ويضرع وكذا وكذا فهذا يزيدك تواضعًا وتسامحًا ، ونفس الموقف للأقل جاها حين يرى صاحب الجاه أو الرئيس له فى عمله ذليلًا خاشعا خاضعا لله تعالى مثله ، فهذا يشفى نفسه بأنه رآه فى موقف ذلة ، فى موقف خضوع ، وهذا يشفى نفسه من تعاليه . فهو رآك أنك رأيته ، فذلك يجعله يستحى فيما بعد ؛ ولذلك يكون الحج المبرور للإنسان بعد الحج غيره قبل الحج ؛ لأن الذى شهد لى خضوعا وشهد لى ذلة وشهد لى انكسارًا وشهد لى أدبا ، ليس من السهل أن أتعالى عليه .

وعرفة كما نعلم فى موقع المناسك ليست فى داخل الحرم ؛ وإنما هى من خارج الحرم لذلك فقد وقف العقل فيها وقفة طويلة ، أوقفه الله تعالى عند سر ليظل التلقى من الغيب تلق غير خاضع لميكانيكية التشريع ، ولكنه خاضع لطلاقة اختيار المشرع ، فإذا كان الحج يمر بمراحل متعددة لأنه يبدأ أولا من منطقة اختيار حر فى بيئة الإنسان ، اختيار حر يعيش فيه على منطق التكليف العام الذى يشمله ويشمل الناس المحيطين به جميعًا ، ثم هو خرج بعد ذلك من منطقة الاختيار الحر الذى يشترك كل الناس معه فيه إيمانًا بالله ورسوله وإقامة للصلاة وإيتاء للزكاة وصوم رمضان ، فيأتى الحج ليخرجه من منطقة الاختيار العامة إلى تقييد خاص له هو ، فينقله إلى شيء يسميه التشريع : « الميقات » .

ثم يمر من الميقات بعد ذلك إلى حدود الحرم ليضبط تصرفه ، لا كحاج وحده ، وإنما يضبط تصرفه مع تصرف الآخرين فى الحرم ، فإذا ما نظرنا إلى المواقع وجدنا أن الإنسان الذى وجد فى منطقة الاختيار الأول ثم فكر فى أن يحج أدخل نفسه فى منطقة التكليف الخاص به ، فلا يتجاوز مكانًا من الأمكنة حددها الشارع إلا وهو محرم ؛ ومعنى محرم أنه نصب كل شيء : من غرور جاهه وغرور حياته وغرور اختياراته إلى شيء آخر ، ولكنه شيء يلزمه هو كحاج ، وإنما الذى يوجد بعد الميقات وإن كان غير

حاج لا يتقيد بهذا القيد ، فإذا ما مر من منطقة الميقات الذى يفصل بينه وبين المنطقة الحرة الاختيارية ليذهب إلى حدود الحرم وجد منطقة أخرى تحكمه وتحكم غيره حتى ممن لم يكن حاجا ؛ وتلك هى منطقة الحرم ، فإذا ما تجاوز منطقة الحرم ذهب إلى المركز ؛ وهو « البيت » ، وهى « الكعبة » ، ثم يؤدى النسك المطلوب منه طوافًا وسعيًا ، وبعد ذلك ينتقل إلى منطقة أخرى خارج نطاق التكليف العام للناس جميعا ، وهى منطقة الحل ثانية ؛ فكأن رقعة الحاج تنحصر بين حلين :

الحل الأول : هو بيئة الإنسان قبل الميقات .

الحل الثانى : هو ما يخرج إليه الإنسان بعد أن يؤدى نسك الطواف والسعى ويخرج من مكة إلى عرفة .

الأمر العجيب أن منطقة الاختيار الأولى فيها تلقى التكليفات من الله تعالى له ومن معه جميعًا ؛ فإذا أراد أن يحج أدخل نفسه فى تكليف آخر خاص به ، وإن كان لا يتعدى .

إذا رسمنا منطقة المناسك كلها وصنعنا دوائر ، وجدنا الدائرة الأوسع هى منطقة الاختيار الحر للناس جميعا ، ثم حدد الشارع دائرة بعد الأوسع تسمى : دائرة واسعة ، وهى منطقة الميقات .

ومن العجيب أن منطقة الميقات لم يحددها « برجل » هندسى ، بمعنى أنه يعطى سن البرجل فى الكعبة ، ثم يمر بمحيط يجعله ميقاتا ، فتجد المواقيت أقطارها بالنسبة لمركز البيت أقطار مختلفة .

ومن العجيب أنك تجد قطر الميقات للحجاز الذى فيها البيت هى أطول أنصاف أقطار المواقيت ؛ لأن الحرم لمن بداخل الحجاز فى المدينة مثلًا من أول الحديبية ؛ فإذا قست من أول الحديبية إلى الحرم وجدتها أربعمائة وخمسون كيلو مترًا ، نصف قطر الميقات من أبيار على ومن ذى الحليفة أربعمائة وخمسون كيلو مترا ، فإذا ما ذهبت فوجدت ميقاتا آخر ، ووجدت ميقات رابع مثلا : مائتى كيلو وأربعة وتسعون كيلو مترا ، قرن المنازل للحج : أربعة وتسعون كيلو مترا ، يلملم : أربعة وخمسون كيلو مترا .

إذن .. تحديد المواقيت ليس عملية هندسية مضبوطة بحيث نصف القطر من الشرق مثل نصف القطر من الغرب ، أبدًا بل مختلفة ؛ ومن العجيب أن أطولها الميقات من المدينة أربعمائة وخمسون كيلو متر .

مع أن الميقات لأهل اليمن أربعة وخمسين كيلو متر .

هذه وقفة يقف العقل فيها ليدلنا على أن المسائل ليست مسألة هندسية ميكانكية ، إنما هى طلاقة قدرة فى أن تحدد الميقات هنا والميقات هنا ، والميقات هنا ، وحين تتأرجح المسائل فى اختلاف أعداد أو اختلاف مقاييس نعلم أن للمقدار الأعلى طلاقة الاختيار فى أن يجعل الميقات من هنا كذا ومن هنا كذا ، حتى يقف العقل عند أسرار ذلك .

فالقرآن مثلًا حين يعرض لنا خزنة جهنم يقول : عدتهم تسعة عشر ، وينبهنى يقول : إياك أن تقف عند تسعة عشر هذه ، وتقول لماذا تسعة عشر ، ولماذا لا يكونون خمسة عشر ، قال تعالى : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا ﴾ [المدثر : ٣١] .

إذن .. فالمسألة الدائرة من مكلف إلى مكلف يجب أن لا تنظر فيه إلى مقاييس يحكمها برجل هندسى ، إنما هى إرادة الله هنا وهنا .

ولذلك تجد فى التكليفات انتقالات من العسير أن يقبلها العقل العادى بيسر .

فمثلا نحن نتوضأ ، فيأتى من يقول نحن نتوضأ حتى ننظف أنفسنا وكذا وكذا نقول له : نعم ، وعندما نفقد الماء نأتى بتراب نعفر به وجهنا . فهى مسألة : لا تقول ننظف أو لا ننظف ، هى مسألة إعداد نفسى ؛ لأنك مقبل على الله ، بالطريقة التى يؤهلك بها الله إليه ؛ هنا ماء ، هنا تراب ، إياك أن تتكلم فى هذه المسألة فليس لك بها شأن البتة .

إذن .. فأنا فى هذه المسألة أنتقل من المنطقة الحرة إلى منطقة الاختيار المطلق ، إلى منطقة الاختيار المقيد لى أنا ، فيقول لى : لا تلبس المخيط ، لا تتعطر ، لا تحلق ، لا تنكح ، لا تقلع الشجر ، لا تصطاد ، لا تجادل ، لا تفسق ، إياك كذا ، إياك كذا .

هل هذه الأوامر خاصة بمن دون الميقات ؟ أم بمن دون الميقات لمن كان حاجا ، ولكن غير الحاج حر فى هذه المسألة فواحد قيد نفسه يرى واحدا حر الاختيار ، يصطادكما يشاء ، يقطع الشجر كما يحب ، كذا كذا كل شىء يعمله وهو وحده .

إذن .. فالمسألة ليست إلا مسألة وضع مكلف لسلوك مكلَّف فمثلًا : أنا سائر بالراحلة ، وراحلتى جوعانة ، ويوجد حشيش ، فيقول لك : إياك أن تتركها تأكل من هذا الحشيش ، وهنا يثار سؤال : أفأترك الراحلة تموت ؟ بعض العلماء قال : لا ، ما دامت الراحلة هى وسلية الانتقال ولابد منها ، فلا تأخذ أنت من الحشيش ، لكن أطلق الراحلة هى التى تأكل من الحشيش .

انظر إلى هذا الأدب ؟ أدب جوارح والتزام ؛ لأنك دخلت فى منطقة التقييد الثانى ، بعد أن كنت مختارًا ، لم يقل لك أحد : ادخل هنا ، أنت الذى أدخلت نفسك هنا .

كما أنك فى المنطقة الأولى ، منطقة الاختيار الأول ، الدائرة الواسعة ، أنت الذى أدخلت نفسك فى هذه المنطقة ، أنت الذى أدخلت نفسك فى منطقة أن تؤمن بإله واحد ، أن تؤمن برسول مبلغ ، أن تؤمن بمنهج ، أنت حر أن تدخل أو لا تدخل فى الإسلام . والكافر لم يدخل ، ولكنك دخلت .

لكنك مادمت قد دخلت فى منطقة الاختيار الأول فقد قيدت نفسك ببعض التقييد ، ولكن كل الذين معك من المؤمنين مقيدون مثلك ، لكن المنطقة الثانية أنت المقيد وحدك وغيرك حر .

فعندما ترى غيرك مطلقا فى عمل وأنت مقيد فيه ، هذا هو الأدب . فالأول كنت مقيدا أنت وهو ، أما الآن فأنت فى منطقة ما بعد تجاوزك الميقات مقيد وحدك وهو حر .

وبعد ذلك تنتقل أنت وهو – حتى من لا يحج – إلى منطقة الحرم ، أيضًا منطقة الحرم تحديدها على الخريطة ، ليس خاضعًا لبرجل هندسى ؛ لأنك مثلا تجد من الشمال ستة كيلومتر من التنعيم إلى الحرم ، ومقابلها من الجنوب اثنا عشر كيلو مترا ، ومن الشرق تجد الجعرانة ستة كيلو مترات ، ومن الغرب فى الشميسى أو الحديبية تجد خمسة عشر كيلو مترا ، وفى الشمال الشرقى من نخلة تجدها أربعة عشر كيلو مترا .

فالمسألة أيضًا ليست منضبطة : ستة ، اثنا عشر ، ستة عشر ، خمسة عشر ، أربعة عشر . أمر غير مضبوط هندسيا . لماذا ؟

لطلاقة المختار ، حتى لا تكون المسألة فيها رتابة ؛ لأن الرتابة يلتزم بها الإنسان مرة واحدة ، بمعنى أنه لوكانت حدود الحرم – وقد قلنا إن منطقة الميقات للحاج ، ومنطقة

الحرم للحاج وغيره - فلا يصطاد حتى من لا يحج ولا يقطع شجرا ، ولا كذا وكذا ، كلها حرم فيكون تقييدا له وتقييدا لغيره ممن لم يكن فى نسك ، فإذا كانت مسألة برجل كنا نقول : ستة كيلو من هنا ، وستة كيلو من هنا ، وتعمل أنت دائرة .

الله تبارك وتعالى لم يطلق حريتك فى أن تعمل أنت هذه الدائرة ، بل هو سبحانه الذى حدد الشرق كم يبعد ، وكذلك الجنوب والغرب والشمال الشرقى . هذه هى طلاقة القدرة فى التزامك ، كل مرة ملتزم .

فلا تكون من هذه الناحية ستة كيلو ، وإن جئت من هذه الناحية أيضا ستة كيلو ، لا بل إذا أتيت من هنا ستة كيلو ، وإن جئت من هنا تكون ستة عشر ، ومن هنا تكون أربعة عشر كيلو مترا وهكذا .

ومن العجيب أن الفوارق بسيطة : ما الفرق بين خمسة عشر وأربعة عشر ، وستة عشر ، نقول : المسألة ليست عادية ؛ لأنها دربة على الالتزام ، والتزامك يلزمه جزاء من المشرع الأعلى ، فأنت تقيدت فى منطقة الاختيار الأولى أنت وغيرك ، وتقيدت فى منطقة الاختيار الثانية أنت دون غيرك ، وتقيدتم جميعا أنت وغيرك فى منطقة حدود الحرم ، وبعد ذلك انتقل إلى عرفة : الساحة الواسعة .

فكأن الله تبارك وتعالى يشير لنا بذلك ، أو قد نفهم من هذا أن منطقة الاختيار الأول أسلمتنا أيضًا إلى منطقة الاختيار الثانى ، ولكن الاختيار الأول كان به مطلوبات منك ، والأخير الذى فى عرفة الذى ليس فى الحل منطقة اختيار ولكن باختيار المشرع ، ولذا فهى منطقة العطاء لك ، وهى منطقة حددت اختيارك فى الحركة : بافعل كذا ، ولا تفعل كذا .

عملنا لك هذه لماذا ودربناك على أنك تكلف نفسك وتقييد فى المنطقة الأولى بعد الميقات ، وتقييد نفسك فى المنطقة الثانية فى الحرم ، وبعد ذلك اخرج إلى المنطقة الواسعة لتتلقى ماذا ؟

أنت تلقيت هناك تقييد الاختيار ، وهنا طلاقة اختيار المشرع فى أن يهبك من المغفرة ومن الرضا حتى يقال فى الأثر : إن الشيطان لم يوجد فى وقت من الأوقات ولا فى مكان الأمكنة أغيظ منه فى هذا الموقف ؛ لأن حظ الشيطان أن يكون ابن آدم عاصيا ،

لماذا هو فقط الذى عصى عندما أمر بالسجود لآدم ، ولأنه قد عصى ، فيريد الناس كلها أن تعصى مثله .

فإذا ما كان الناس بغوايته لهم قد عصوا ، ففرح بمعصيتهم لله .

فالله تعالى بطلاقة اختياره ينثر رحمته ورضوانه على أهل الموقف جميعا ، جزاء بما قيدوا به أنفسهم من اختيارات فى افعل ولا تفعل ولا ، ومن اختيارات خاصة بهم من الميقات ، ومن اختيارات خاصة بهم وبغيرهم ، ولذلك حين يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم لصحابته : إن الله تجلى على أهل الموقف - أى فى عرفة - فغفر الله لأهل عرفة ، وغفر الله لأهل المشعر الحرام ، وتحمل الله عن الجميع تبعات ما عملوا نحو العباد .

لأنه لما قال : « الحج المبرور يجب ما قبله » اختلف العلماء ؛ هل هذا الحج يغفر كل الذنوب ؟ فقال أحدهم : يغفر الذنوب المتعلقة بالله ، أى : التى بينك وبين ربك ، ولكن الذنوب المتعلقة بينك وبين العباد لابد فيها من أنك تخلص ذمتك ، تجعلهم يبرئوك .

وقال بعض العلماء : ولكن الله إذا تجلى بواسع رحمته يجيب رسول الله « فما كان لك منها فاغفره لى ، وماكان لغيرك فتحمله عنى » ، فخبر رسول الله فى هذا الموقف أن الله غفر لأهل الموقف ، أى : أهل عرفة ، وغفر لأهل المشعر الحرام ، وبعد ذلك تحمل سبحانه التبعات التى لعبده الحاج عند غيره ، فعند ذلك يقول عمر رضى الله تعالى عنه : « كثر خيرك يا ربى » .

هذه الساحة التى يتلقى الإنسان فيها غفران الله ، وتتلقى فيها الجموع غفران الله ، إنما جاء فى ملحظ السواسية فى الموقف ، والسواسية فى الموقف معناها أن هذا الموقف كما قلنا إننا ندخل مكة على رحلات مختلفة ، نوج يدخل هذا النهار ، وفوج يدخل غدًا ، والكل محرم ، وبعد ذلك يعودون إلى أحوالهم وإلى طبيعة قيمهم فى الحياة ، سكنا وإقامة وعيشا وهنداما ولباسا ، ثم يخرجون ثانية باللباس العام ، واللباس العام الجامع لكل الأجناس ، وجامع كل الألسنة وجامع كل اللغات ، وجامع كل المقامات ، وجامع كل الأقدار ، وهو لباس الإحرام وجميعهم شعثا غبرا - وأشعث أغبر يعنى : إنسان هندامه « ملخبط » ، هيئته « ملخبطة » ، متعب ، مرهق ، حاله ليس عاديا ، ذاهل عما كان له من قدر ومقام ومكانة فى المجتمع - كلهم مثل بعض ، فهم لا يتعالون

فى هذا الموقف ؛ بل كلهم متساوون فى موقف الذلة والخضوع . والتعالى إنما يطلب من الناس على الناس ، رجل يريد أن يتعالى على الناس ، يعنى : يكون أحسن منهم . وهنا فى هذا الموقف لا يصح ذلك ، فكأن الخير العام لا يعم الناس جميعا إلا إذا استوى الناس فى الخضوع ، واستوى الناس فى الذلة ، ولا يتأبى واحد على واحد أقل منه فى موقف الخشوع والذلة . وعندما تنفض هذا الغبار ، غبار الاستعلاء وطغيانه عن أنفسنا فى هذا الموقف يتجلى الحق سبحانه وتعالى بالمغفرة ؛ لأن الذى يجعل المغفرة بيننا وبينها حجاب والرحمات بيننا وبينها حجاب اللَّدَدِ الذى يحدث بين الناس ، فيكون مجتمعا واحدا وتجد أن كل واحد يرى نفسه فيه ، كل واحد واضع تميزاته أمام عينيه ، هذا كذا وهذا كذا .

لابد أن نلحظ أن كلنا عبيد لأنه مادامت التميزات التى توجد فينا ليست من ذواتنا بل هى موهوبة من ربنا ، فيجب أن لا ندخلها فى حساب أقدارنا مع بعض ، أنا وأنت مثل بعض ، نحن كلنا عبيد له ، فإذا حصل هذا الاستطراق العبودى ، والنفوس كلها أصبح فيها هذا الاستطراق ، ولا يوجد تعالٍ من أحد على أحد : يقول الحق سبحانه وتعالى فى الحديث القدسى : « هم أهل جمع خليقون بمغفرتى وبرحمتى » .

لكن إذا وجد لدد وجدال ومراء ، فيترك الناس للددهم وخصومتهم . ألم يخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم على صحابته يوما من رمضان ليخبرهم بزمان ليلة القدر إلا أنه وجد جدالاً وخصومة بين رجلين ، فقال صلى الله عليه وسلم : « إنى خرجت لأخبركم بليلة القدر وإنه تلاحى فلان وفلان فرفعت ، وعسى أن يكون خيرًا لكم ، التمسوها فى السبع والتسع والخمس »[1] .

إذن .. فالتلاحى : الجدل والخصومة والمراء ، كل هذا يمنع هبات الخير عن الجمع . الجمع الذى يريد أن يستقبل فيوضات الله لابد أن يكون جمعا على منتهى الصفاء معا ، وتأمل مثلاً الأجهزة : أى جهاز يوضع ، لا يؤدى مهمته إلا إذا كانت كل الأجهزة منسجمة مع بعضها ، أما إذا كان جهاز مخالف لجهاز آخر فلا يؤدى المهمة .

---

(1) رواه البخارى [٤٩] والنسائى فى الكبرى [٣٣٦٤] عن أنس بن مالك رضى الله تعالى عنه .

كذلك النفوس الإنسانية ، حين تلتقى ويكون فيها استطراق عبودى ، وكلنا عبيد لله ولا أحد فينا أكبر من الثانى ، وكل العطاءات الموجودة عطاءات تخدم بعضها ، ليس لى أنا عطاء خاص حتى أتعالى به ، بل إن كان لك ملكة أو موهبة من المواهب وغيرك ليس فيه هذه الموهبة ، فيجب أن تقدر أن موهبتك متعدية له ، وإن كان هو ليست له مواهب فأنت تحزن ؛ لأنه لوكانت له مواهب فى صناعته أو فى عمله لتعدت إليك .

إذن .. فإذا كنت أنت صاحب مواهب فاعرف أنها فى خدمة الغير ، وغيرك إذا لم يكن له مواهب ، فلن تأتى لك خدمته ، فتكون أنت الخاسر .

إذن .. فمن خيرك ومصلحتك أن تكون كالناس جميعا ، وأن يكون الناس جميعا مثلك ، حينئذ يكونون أهلا لتلقى فيوضات الخير . ففى يوم عرفة الكل يكون واقفا ، ضاحيا ؛ الشمس دانية من الرؤوس ، الجو حار ، أو السماء تمطر ، والناس كلها واقفة ، كلهم خاضعون أذلاء ، لا يوجد تعالٍ ، فيكون هذا الموقف أهلاً لتنزل الرحمة .

فمثلاً ولله المثل الأعلى : هب أنك رب أسرة ، وهذه الأسرة كلما دخلت عليها وجدتهم ضاحكين لاعبين متكلمين بكلام الخير ، فإن كنت قد أحضرت معك شيئا فى جيبك تعطيها لهم وتبسطهم بها .

وإن دخلت فوجدتهم فى حزن وهم وغم ، هذا يشتم هذا ، وهذا كذا ، فإن نفسك تنقبض ولا تعطيهم شيئا مما معك .

إذن .. فتجلى الله بالمغفرة على أهل الموقف فى عرفة إنما نشأ من وجود هذا الاستطراق ، وعدم وجود طغيان ، وعدم وجود استعلاء .

فإن أردنا أن يدوم لنا هذا العطاء من السماء ، فلنكن خارج عرفة مثلما كنا فى عرفة .

وإذا كان الحج يجب ما قبله ، بمعنى أنك قد أخذت مغفرة عن الماضى ، فاحذر جيدًا أن تستقبل زمنك الآتى بالرضا ؛ لأنك لست ضامنا فى حياتك أن تعود لتحج لنفسك مرة ثانية ، فاغتنم هذه الفرصة ، ودع الحج يمسحك هذه المسحة .

ولذلك يكون الشيطان مغتاظا ، وحتى تغيظه : أكثر من الطاعة والمعروف والصدقة ، واجتهد فى العبادات والذكر والدعاء ، وكأن لسان حالك يقول : إننى انتصرت عليك وإن كنت قد تسللت إلى فى فترة ضعف وأثرت على فى شيء فإن ربى قد غفر لى ذلك ، فله الحمد وله الشكر .

دعاء يوم عرفة

لبيك اللَّهُم لبيك .. لبيك لا شريك لك لبيك

إن الحمد والنعمة لك والملك .. لا شريك لك

شعار هذا اليوم .. ونشيد هذه الساحة وترداد هذا الركن .. لبيك اللَّهُم لبيك .

ومن أولى بالتلبية منك يا رب العالمين وقد خلقت الخلق بقدرتك .. وأمددتهم بعبوديتك وأنعمت عليهم بربوبيتك فلا يقال لبيك إلا لك ، تناجى الأوطان وأنت تدعو ، فأنت أولى بلبيك ، وتفنى الأهل وأنت تدعو ، فلا يكون لبيك إلا لك ، ويدعو المال والولد إلى أن يظل الإنسان حبيسهم .. ولكن لا يقال لبيك إلا لك .

سبحانك ولا تقال إلا لك .

سبحانك يارب وما أصدق لهجة عبادك جميعًا حين يقولون لك لبيك اللَّهُم لبيك .

ولماذا لا تقول : لبيك لك يارب ، وأنت لا شريك لك ؟ ولماذا لا تقول : لبيك لك يارب والحمد كله لك ؟ الحمد بكل صوره .. الحمد بكل ألوانه حتى الثناء على الأسباب .. حتى الشكر للوسائط والوسائل مرد الحمد فيها جميعًا إليك يا رب .

يارب .. فالوسائط .. والوسائل .. والأسباب من خلقك فإن أجريت عليها ما يأت بالخير فأنت المجرى يارب ، فلك الحمد أولًا ولك الحمد آخرًا .

سبحانك يارب .. من لم يحمدك لأنك الذى خلقت ، ورزقت ، وأمددت بالنعم من لم يحمدك لكل ذلك ، فليحمدك لأن لك الملك لا إله إلا أنت .

سبحانك ولا تقال إلا لك ..

لبيك اللَّهُم لبيك .. لبيك لا شريك لك لبيك ..

إن الحمد والنعمة لك والملك .. لا شريك لك .

يارب .. نسألك كل شيء .. بقدرتك على كل شيء .. اغفرلنا ولهؤلاء جميعًا كل شيء .. ولا تسألنا عن شيء .

إنك يارب مادعوت عبيدك لزيارة بيتك والوقوف بساحة رحمتك عرفات إلا وأنت تريد بهم الخير وتريد لهم الرحمة ، وكل داع نعرفه حين يدعو مدعويه يعد لهم من

الحفاوة ومن التكريم ومن التحف ما يليق بسماحته وما يناسب كرمه وما تتسع له إمكاناته . وأنت يارب لو سألك كل هؤلاء فى ساحة رحمتك .. لو سألك كل المؤمنين بك فى أرضك كلها .. لو سألوك حوائجهم فأعطيتها لهم ما نقص ذلك مما عندك يارب إلا كما ينقص المخيط إذا غمس فى البحر ، وذلك لأنك يارب الجواد . وأنك الواجد وأنك الماجد ، عطاؤك كلام .. وعذابك كلام ، إنما أمرك للشيء إذا أردته أن تقول له : ﴿ كُن فَيَكُونُ ﴾ .

تجلياتك يارب على خلقك لتنظر هذه الضراعة الجميلة والعبودية الخاشعة ونعمة الذلة لك ، ونعمة العبودية لك لأنها عبودية تعز العبد .

فالعبودية من الخلق إلى الخلق عبودية تأخذ خير العبد للسيد وعبوديتنا لك يارب تعطينا خيرك يا عظيم ياكريم .

يارب .. يارب .. يارب .. نسألك لأنك الملك ، وأنك على كل شيء قدير ، وما تشاء من أمر يكون .

يا رحمة الله .. يارضوان الله .. يا تجليات الله .. هؤلاء خلق الله فاهبطى عليهم بالإشراق وتنزلى عليهم بالصفاء ، وأرجعيهم مأجورين مغفورًا لهم ، مجبورين مجابٌ دعاؤهم لهم ولأهلهم ولأزواجهم ولذريتهم ولأحبابهم ولجميع المؤمنين والمؤمنات .

لبيك اللَّهُم لبيك .. لبيك لا شريك لك لبيك

إن الحمد والنعمة لك والملك .. لا شريك لك .

إلهى لست إلهًا استحدثناه .. ولا ربا ابتدعناه .. ولا كان لنا قبلك من إله فنلجأ إليه ونذرك ، ولا أعانك أحد على خلقنا فنشركه معك .

سبحانك .. سبحانك .. سبحانك

لا إله إلا أنت ، لا إله إلا أنت .. لا إله إلا أنت .

حظ التلبية من التوحيد أن نشهد بك واحدا لا شريك له . وحظ جميع أركان الإسلام من الحج أن الصلاة لها منه ذلك الحظ نتوجه إلى بيتك فى كل صلاة فهذا هو البيت .. رأيناه .. رؤيا العين وطفنا جميع جهاته واستلمنا حجره الأسود ليشهد لنا يوم

لقائك . وأما حظ الزكاة فإن فيها البذل وفيها السخاء وفيها الأريحية وفيها الشح ليطعم الناس ويطعم الفقراء والمساكين . أما حظ الصوم من الحج ، فإنك يارب جعلت على المحرم محظورات مباحة مع غير المحرم ، ولكنه ساعة يحرم تحرم عليه ، وهذا لون من الإمساك عما أحل الله ، فكأن ركن الحج يارب ركن جمعت فيه الأركان مرموزًا إليها وممثلة فيه . لهذا يارب كان جزاؤك عليه أن يخرج الحاج من ذنوبه كيوم ولدته أمه .

لبيك اللَّهُم لبيك .. لبيك لا شريك لك لبيك

إن الحمد والنعمة لك والملك .. لا شريك لك .

اللَّهُم فإنك قد أمرتنا أن نحج بيتك فامتثلنا وقلنا لبيك .. وأمرتنا أن نقف في ساحة رحمتك فقلنا لبيك .. فكما لبينا دعوتك يارب اقبل ضراعتنا ، واغفر زلاتنا ، وارحمنا ، وارض اللَّهُم عنا ، وما مضى من ذنوبنا فاغفره .. وما نستقبل من حياة فاستر عنا ذنوبها .

اللَّهُم إنا نسألك الخير من حيث تعلم أنه الخير يارب .. يارب .. يارب .. بقدرتك على كل شيء اغفر لنا كل شيء ولا تسألنا عن شيء .

لبيك اللَّهُم لبيك .. لبيك لا شريك لك لبيك

إن الحمد والنعمة لك والملك .. لا شريك لك .

سبحانك يارب ولا تقال إلا لك ..

حشد واجتماع كل قلب فيه واجد ، وكل قلب فيه مؤمل ، جاءوك وهم واثقون بكرمك ، جاءوك وهم واثقون بعفوك ، جاءوك ويحبون أن يرجعوا إلى أهلهم على خير ما يرجع مسافر لله بتحية من الله في نزل من الله .

يارب .. يارب .. يارب .. نسألك بأنك الملك وأنك على كل شيء قدير وما تشاء من أمر يكون .

اللَّهُم ، إنا نسألك أن تعطينا الخير مما تعلم أنه الخير لنا في ديننا وفي دنيانا وفي أهلنا .

اللَّهُم إنا نسألك أن ترزقنا جميعًا حبك وحب من ينفعنا حبه عندك .

اللَّهُم ما أعطيتنا مما نحب فاجعله قوة لنا فيما تحب .. وما زويت عنا مما نحب فاجعله ثوابًا لنا فيما تحب .

يارب .. يارب .. يارب .. نسألك بأنك الملك وأنك على كل شيء قدير وما تشاء من أمر يكون .

لبيك اللَّهُم لبيك .. لبيك لا شريك لك لبيك .

إن الحمد والنعمة لك والملك .. لا شريك لك .

يارب .. يارب .. يارب .. نحن عبادك وأنت ربنا ومن الجحف في أعراف الناس أن يكون الإنسان مذنبًا أمام أحدهم يأتيه بعد ذلك في ساحته ليسأله بره ويسأله رضوانه ، ولكنها من عبيدك يارب محبوبة فأنت تحب التوابين ، وأنت تحب الأوابين ، وأنت تحب المستغفرين .

سبحانك يارب .. سبحانك يارب .

يارب إنها ضراعة تجلت فيها رحمتك ويوشك يوم الرحمة أن تأفل شمسه وأن يرجع عبيدك بالمغفرة والرحمة .

ونحن في هذه الساعة الطيبة المباركة ندعوك يارب كما أمرتنا .

فلندعوك يارب بما دعاك به آدم عليه السلام ، ولندعوك يارب بما دعاك به إدريس عليه السلام ، ولندعوك يارب بما دعاك به نوح عليه السلام ، ولندعوك يارب بما دعاك به هود عليه السلام ، ولندعوك يارب بما دعاك به صالح عليه السلام ، ولندعوك يارب بما دعاك به إبراهيم عليه السلام ، ولندعوك يارب بما دعاك به لوط عليه السلام ، ولندعوك يارب بما دعاك به إسماعيل عليه السلام ، ولندعوك يارب بما دعاك به إسحاق عليه السلام ، ولندعوك يارب بما دعاك به يعقوب عليه السلام ، ولندعوك يارب بما دعاك به يوسف عليه السلام ، ولندعوك يارب بما دعاك به موسى عليه السلام ، ولندعوك يارب بما دعاك به هارون عليه السلام ، ولندعوك يارب بما دعاك به داود عليه السلام ، ولندعوك يارب بما دعاك به سليمان عليه السلام ، ولندعوك يارب بما دعاك به أيوب عليه السلام ، ولندعوك يارب بما دعاك به يونس عليه السلام ، ولندعوك يارب بما دعاك به إلياس عليه السلام ، ولندعوك يارب بما

يث جعلتها لك

جوراحنا إلا في

جتنبا .

، قدير وما تشاء

ربّا نفزع إليه ..

يه ، كيف يعيش

ا إلى الإسلام .

ياع في متاهات

كما دعوناك لمن

، الاستقامة على

لى دينك ؛ وأن

رسول الله فهي

اللَّهُم إنا نسألك لهم عدلًا وتوفيقًا رسدادا .

يارب .. يارب .. يارب .. نسألك بأنك الملك ، وأنك على كل شيء قدير وما تشاء من أمر يكون .

لبيك اللهم لبيك .. لبيك لا شريك لك لبيك

إن الحمد والنعمة لك والملك .. لا شريك لك لبيك

يارب .. يارب .. يارب .. نسألك لهم المغفرة جميعًا مغفرة ورحمة ورضوانًا .

اللَّهُم من وصلته فى هذه الساعة فلاتحرمه الوصل إلى أن يموت .

اللَّهُم من حالت أسبابه وعوائقه أن يقف هذا الموقف فيسر له وسهل له أمره وذلل أمامه العقبات ، لينعم كل عبيدك بهذه الفرحة ، ولينعم كل عبيدك بهذا الجمال ، ولينعم كل عبيدك بهذا الجلال .

لبيك اللَّهُم لبيك .. لبيك لا شريك لك لبيك

إن الحمد والنعمة لك والملك .. لا شريك لك لبيك

يارب .. يارب .. يارب .. نسألك بأنك الملك ، وأنك على كل شيء قدير وما تشاء من أمر يكون .

وصلِّ اللَّهُم على سيدنا ومولانا محمد رحمة اللّٰه للعالمين وخاتم الأنبياء والمرسلين وسلام على إخوانه المرسلين والحمد للّٰه رب العالمين .

ooo

يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ فَإِذَآ أَفَضۡتُم مِّنۡ عَرَفَٰتٖ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ عِندَ ٱلۡمَشۡعَرِ ٱلۡحَرَامِۖ وَٱذۡكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمۡ ﴾ [البقرة : ١٩٨] فكأن ذكر اللّٰه تعالى هنا هو الشكر على ما استقبل به وفده بالمغفرة والرحمة والرضوان .

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَذِكۡرِكُمۡ ءَابَآءَكُمۡ أَوۡ أَشَدَّ ذِكۡرٗاۗ ﴾ [البقرة : ٢٠٠] وكأنه يلفتُ إلى وحدة الهدف فى الحج ، فقد كانوا يجتمعون ليتفاخروا بآبائهم وبأمجاد أجدادهم فلكل واحد انتماء خاص إلى مسبب وجوده المباشر ، وسبب الوجود المباشر هو الأب ، فكانوا يذكرون آباءهم بما قدَّموا مِنْ مجد خاص لنفوسهم أو مجد عام لما يحيط بهم على حسب اتساعات المقامات فى ذلك المجد ، وذلك يعدد الانتماء ، وتعدد الانتماء يشعر بتعدد الأهواء ، وتعدد الأهواء يشعر بالتضارب والتعاند .

فكرة الخلافة ، تعنى أن الإنسان ليس أصيلًا فى الكون ، وأنه كما استمد وجوده من الحق سبحانه فإنه يستمد بقاء هذا الوجود من الحق سبحانه وتعالى .

فالحق سبحانه وتعالى له نعمة الإيجاد من عَدم وله نعمة الإمداد من عُدم ، فإذا كنتم تذكرون آباءكم : ﴿ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَذِكۡرِكُمۡ ءَابَآءَكُمۡ أَوۡ أَشَدَّ ذِكۡرٗاۗ ﴾ ، ولكن على التحقيق يجب أن يكون من غير مسبب ، فإن كنتم قد ذكرتم آباءكم لأن إيجادكم هم سببه ، فيجب أن تُصعدوا الأمر إلى من خلق آباءكم ومن خلق آباء آبائكم ؛ صعدوها إلى أن تنتهى إلى أن اللّٰه تعالى هو الخالق الأعظم ، فكلما امتدَّ بك الزمن فى هذه السلسلة تلتقى ، بينما أهواء البشر كلما تعددت تناءت وابتعدت ، وإنما إذا قربت من الحق الأول تلاقت .

والتقريب النظريُّ الهندسى لذلك أنك إذا رسمت دائرة مهما اتسعت هذا الرسم يحدد سعتها على قدر أنصاف أقطارها ، فكلما كان نصف القطر أقل كانت الدائرة محيطها أقل ، وكلما اتسعت كبر محيطها . فإذا ما اختُطَّتْ خطوطًا من المركز إلى المحيط ، تكون كلما ابتعدت عن المركز تناءت الخطوط عن بعضها ، وإلا لما حدث

فحينما يُخاطب اللّه خلقه ، لا يخاطبهم بالحُكم أولًا ، وإنما يطلب من الناس أن يؤمنوا ، إذن .. أَدُلُّ الناس أولًا على الإيمان باللّه تعالى ، فإن آمنوا قال لهم : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ﴾ [البقرة : ١٨٦] ، كذا يعنى متى الأمر قَدر الحكمة فيه على قَدْر طلاقتى فى الحكمة ، وإياك أن تحددها بعقلك ؛ لأن حكمة الحكيم صفة من صفات الكمال فيه ، فإن قيدتها بحكمة كذا وكذا ، تكون قد قيدت الكمال المُطْلَق ، فَخُذها على أنها هى هذه وفيها كمالات لا تتناهى .

ولذلك يُقال : علة الأمر الإيمانى إياك أن تطلبها قبل أن تفعل ، ولكن افعلها لتعرف آثارها وافهم جيدا فرق ما بين خطاب الناس بالإيمان وخطاب المؤمنين بالأحكام .

خطاب المؤمنين بالأحكام تسليم بأنك آمنتَ بإله حكيم لا يأمُرَكَ إلا بشىء يعود عليك أنت بالنفع ولا يعود عليه سبحانه وتعالى بشىء .

وتشريع المشرع لا تزداد فيه الثقة إلا إذا ضمنت أنه يجمع كل الجزئيات الموجودة والجزئيات المستجدة ؛ لأن المشرع من البشر إن شرع تقنينا فإنما يشرع لما لمس من واقع حال يراه ، وقد تحدث أحوال بعد ذلك لم تكن فى باله ، فيضطر المشرع حينئذ أن يقول : هيا نُعدِّل هذه الجزئية ، نُعدِّل يعنى أننا فاتنا شىء ونريد أن نستدركه اليوم .

إذن .. فلابد للمشرع الذى تضمن أنك تنفذ أوامره أن تثق فى أنه القادر وحده على إسعادك وتلبية كل احتياجاتك ، وتثق أنه العليم الخبير بكل أحوالك لا يعزب عنه شىء من سريرتك كما هو عليم بعلانيتك ؛ ولذلك يقال : نحن ننقاد له انقيادًا أعمىً ، يعنى : لا تُفتِّح فى الأحكام ، نقول له : لا ، بل انقياد بصير ؛ لأننى آخذ الحكم فى نطاق كمالات الحاكم به ؛ إذن نهذا ليس تقليدا أعمىً ، بل تقليد بصير ، بدقة البصر .

ولذلك سيدنا أبو بكر الصديق رضى اللّه تعالى عنه حينما كان يُحدث بشىء يُحدِّثه به خصوم الإسلام ، كما قالوا له : صاحبك يدعى أنه ذهب إلى بيت المقدس وعُرج به إلى السماء ، فماذا قال ؟ هل ناقش القضية فى ذاتها ؛ وهل هذه يقبلها العقل أو لا يقبلها ؟ هم قد ناقشوها بالعقل ، قالوا : أتدعى أنك أتيتها فى ليلة ونحن نضرب إليها أكباد الإبل شهرًا ؟ أخذوها بالحساب المادى : مشوار ومسافة وسرعة !!

أما الصديق رضى اللّه تعالى عنه لم يأخذها بهذه الحسابات . فقال : إن كان قال فقد صَدَق . فرتَّب الصدق على قوله صلى اللّه عليه وسلم ، لا على قبول القضية عقلًا .

وحتى لا يقال إنه يقلده تقليدا أعمىً .. لأنه قال ، أو لأنه صاحبه ، أو لأنه حبيبه ، لا . وبعد ذلك يُعلِّله التعليل الذى يُعطى البصيرة فى التقليد ، فليس تقليدًا أعمى ، بل تقليدٌ بصير .

قال : إذا كنت أُصدقه فى خبر السماء يأتيه ، أفلا أصدقه فى أنه انتقل ؟! إذن نقلها نقلة أخرى .

سيدنا عمر عندما رأى الناس يُقبلون الحجر ، يريد أن يضع قضية قد تقف فيها عقول الناس فى المستقبل ، من الجائز أن الأمة بعد ذلك سترتقى ويصير عندها ثقافة ، ويصير عندها معايير ، ربما يأتون فيقولون : حجر ! ما هذا الذى تعمل معه كذا وكذا ؟

وسيدنا عمر رضى اللّه تعالى عنه أتى بالقضية التى يرد بها ردًّا يظل فى التاريخ ردًّا على كل مُتشكك فيها ، فيقول : إنى أعلم أنك حجر لا تضرُّ ولا تنفع ، ولولا أنى رأيتُ النبى صلى اللّه عليه وسلم يُقبلك ما قَبلتك[1] .

إذن .. بالمقاييس العقلية فيك أنت ؛ إنما فى الشرع فعلى العين والرأس .

وبعد ذلك يأتى الإمام على رضى اللّه تعالى عنه فيقول له : إنه يضر وينفع ؛ فإنه يشهد أمام اللّه أنك قبلته [2] .

إذن .. المسائل الإيمانية من الحق للخلق يجب أن تؤخذ أولًا ، يؤمن بها الإنسان ويسير عليها فى حياته عقيدة ومنهجا ، ثم من بعد سيجد أثر حكمتها فى نفسه .

إذن .. فالحكم من الأعلى للأدنىٰ تظهر حكمته بعد الفعل ، ولكن الحكم من المساوى يقول له : اظهرها لى من الآن ، وإلا ما الذى جعل عقلك أنت أولى من عقلى وتأمرنى أن أفعل هذه ولا أفعل هذه .

فمثلًا ، وللّه تعالى المثل الأعلى ، الصبى الصغير الذى يقول له والده : التفت إلى دروسك ، اسمع من المدرس جيدا ، لا تتأخر ، وإياك أن تنعس ، إياك كذا ، وإياك كذا

(١) رواه البخارى [١٥٩٧] ومسلم [١٢٧٠/٤٨] عن عمر رضى اللّه تعالى عنه .

(٢) رواه الحاكم فى المستدرك [١٦٨٢] من حديث أبى سعيد رضى اللّه تعالى عنه .

فهذه الأوامر من أبيه لأنه يحبه ، وأبوه هو لذى يأتى له بالطعام ويأتى له بالشراب ، ولا يشك فى حُبه له ، ولا فى أنه يريد نفعه ، فيأخذ الأوامر ويعمل كما أمره أبوه ، وبعد ذلك فى آخر السنة يشعر بلذة النجاح ولذة التفوق ، فيكون قد شَعُر بالحكمة بعد أن فعل ، فإذا كان هذا فى أمثالنا ولله المثل الأعلى ، فلابد أن نأخذ الأحكام قبل حكمتها .

فكذلك حين نُقبل على الأحكام التعبدية ، التى قلنا عنها تعبدية لأن الله حكم بها ، وقد يقف فيها العقل وقبلناها لأننا آمنا بالله ، فيكون جزاؤها المغفرة .

فإذا ما ذهبنا لنرجم . نقول للشيطان أنت وسوست وأغويت بأشياء حتى نصير عصاة مثلك ، ولكن الله استقبلنا بالرضى ، استقبلنا بالمغفرة ، وما دمت أنت عاديتنا أولا فى أبينا آدم عليه السلام ، ثم عاديتنا فى نفوسنا بالوسوسة ، فنحن نعاديك الآن ، ورمز العداء الحسِّى عندنا أننا نرجمك بهذه الحجارة فلا تقول أنت إن هذه عملية عبثية ، فإن الشيطان نفسه سيدخل بهذه العملية إلى نفسك مرة أخرى ، فيقول لك : « ما هذا الذى تفعله تأتى ببعض الحصى وترجمنى ، فهل الحجر يضر الشيطان ؟! بل هذا عبث » .

فهو أيضا يريد فى هذه العملية التى تقوم بها ثأرا منه وانتقاما يريد أن يدخل فيها .

فأنت عندما يوسوس لك بذلك تقول له : وهذه حصاة أخرى دليل على أنك رفضت وسوسته حتى فى هذه ؛ لأنه يريد أن يوسوس لك فى هذه العملية .

وقد روى عن بعض العارفين أن الشيطان تصور له على أنه صبى يخدمه وظل يخدمه مدة طويلة ، ثم خرج لصلاة الفجر وكانت السماء ممطرة والأرض وحلة وهذا الصبى الذى هو الشيطان متمثلا به يخدمه يحمل له الفانوس ، والولد يقوم ويقع ويقوم ويقع فى الطين والوحل ، فالناس الذين رأوا هذا قالوا : هذا الرجل الكبير كيف يُعذِّب هذا الولد الصغير ويخرجه معه فى هذا الليل المطير والوحل ، وهذا الولد لا يقدر ، وكذا وكذا . فينظر إليهم الرجل بكل بساطة ويقول لهم : دعوه يشقى أشقاه الله !!

فكأن الله قذف فى نفسه أن الشيطان أتى يشاغبه ويعمل له هذا العمل !!

إذن .. فالشيطان لا ييأس من أى جزئية يدخل فيها ، ولذلك اعلم أنه سوف يأتيك أيضا فى جزئية الرمى بالحجارة ويقف لك فيها . فعندها تقول له : والله لأرجمنك ثانية .

معنى ذلك : أنك ترفض وسوسته وغوايته ، وإذا رفضت وسوسته وغوايته فإنك ترجمه بسبع حصيات ، والسبع كان هو العدد النهائى عند العرب ، على ما جرت به عادتهم .

فالحق سبحانه وتعالى يعطينا فى هذه المسألة الفكر الأولى فى أبى الأنبياء إبراهيم . وقد كان قبل إبراهيم أيضا أنبياء وكانوا يحجون ، ولكن لم يكن لهم من الابتلاءات ما كان لإبراهيم ، فإبراهيم هو الذى ظهر فى الصورة الإيمانية فى مسائل الحج .

فهو الوحيد الذى ابتلى فى ذبح ابنه ، ولو ابتلى بأن يموت ابنه ، فهذا جائز ، وهو قدر الله له وعمره ، وإن كان سيحزن لموت ابنه الوحيد . هذه واحدة .

أو لا يموت هكذا ، بل يقتل ، يقتله عدو له . هذه الثانية . وهى أشد إيلاما من الأولى .

إذن .. يموت هذا إيلام ، يقتله غيره إيلام وفجيعة ؛ لأن الموت فى ذاته مصيبة ، ولما قتله قاتل فهنا فجيعة ومصيبة أشد .

لأن فى هذه الحالة أكون قد فقدته ، وعشت بترة الحقد لمن قتله ، فيكون قد أتعبنى طول حياتى .

أما إذا كنت أنت الذى ستقتله فتلك أشد وأقسى من الأولى والثانية .

إذن .. فالأول : موت ، والثانى : قتل من الغير ، والثالث : أن تقتله أنت . الرابعة : إنه ليس بوحى ؛ بل برؤية منامية ، بأدنى مراتب التكليف ، فالرؤية المنامية كان من الممكن أن تؤول إلى حلم أو كذا أو كذا .

ولهذا قال الله تعالى : ﴿ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَـٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ﴾ [البقرة : ١٢٤] .

إذن .. فإبراهيم قمة ابتلاءات ، وخصوصا إنه ابتلى فى الولد ليذبحه ، فقال له : ﴿ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ ﴾ [الصافات : ١٠٢] .

فهنا يأتى الشيطان فيقول : ما الحكمة فى أن تجعل الولد تعيش فى آلام أنك ستذبحه فتأتى عنده كراهيتك ؟ . فيألم لنفسه ويألم أنك أنت الذى ستذبحه ، وتعيشه فترة طويلة فى كراهيتك وكراهية الفعل وكذا وكذا .

نقول : لا ، إبراهيم حليم ، إبراهيم أواب ، إبراهيم منيب ، لا يفعل هذا من أجل هذا بل يفعل هذا حتى يستقبل إسماعيل هذا على أنه حُكم من الله ويرضى به فيأخذ ثواب الرضى على الحكم .

كأنه يريد أن يدخر له شيئا بدليل قوله : ﴿ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ﴾ يريد أن يجعله شريكا له في الابتلاء ، فماذا كان رد إسماعيل على أبيه ؟

﴿ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ﴾ ، ليس : افعل ما تريد ؛ لأن إرادتك ليست مطلقة ؛ إنما الإرادة المطلقة للذى يملك وهو الله تعالى ؛ ومعنى : ﴿ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ﴾ إن هناك أمرا لإبراهيم بهذا الفعل ، ولهذا قال إسماعيل لأبيه عليهما السلام : ﴿ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ وهنا تسليم مطلق من الأب ومن الابن ، ولذلك أسند التسليم لهما ؛ لأن هذه عملية تفاعل منه ومن ابنه ، قال تعالى : ﴿ فَلَمَّآ أَسْلَمَا ﴾ [الصافات : ١٠٣] يعنى الاثنان ﴿ وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴾ ليس أسلما كلامًا ، بل مباشرة بالفعل ، فناداه الله تبارك وتعالى : ﴿ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۝ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ... ۝ ﴾ [الصافات] . وكأن مطلوب الحق سبحانه من الخلق أن نؤمن بالأمر ، وأن نقبل على تنفيذه برضى ، وحين نقبل على تنفيذه برضى يرفع الله قضاءه ، ولذلك احفظ جيدا فى كل أحداث الحياة حتى تصيب الإنسان : لا يُرفع قضاء حتى يرضى به .

إذن .. إن رأيت قضاءً قد طال على مقضى عليه فافهم أن مرتبة الرضىٰ لم تنله . عندما يرضىٰ ، وأن هذه هى الحكمة ، يُرفع القضاء ﴿ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ۝ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۝ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ... ۝ ﴾ [الصافات] .

انظر إلى ﴿ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴾ كان منطق الأسلوب أن يقول : « لما حدث كذا ناديناه » ولكنه قال : ﴿ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ، وَنَٰدَيْنَٰهُ ﴾ فكأن النداء كان فى منطقه التسليم فى نفس الوقت ، لم ينتظر حتى يُسلِّم ، بل فى نفس الوقت ، فلم يتأخر الفداء ، ولم يتأخر الأمر برفع السكين ، بل مع القضية .

إذن .. فأنت لست ستعمل ثم يُرفع بعد ذلك ، بل عندما تهم على أن تعمل يأتيك رفع القضاء .

﴿ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ۝ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۝ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ۝ ﴾ [الصافات] . وما دام صدقت الرؤيا فنحن نجزى المحسنين ، ونجزى المحسنين برفع القضاء ، ورفع القضاء بأنك لا تتله ، بل نأتى له بفداء ونفديه ، وليس فقط فداء ، بل مع الفداء نبشرك بغلام آخر .

إذن .. فالذى يقبل من الخلق على أوامر الحق الغيبية التى لا يعلمُ لها حِكمة فهذا ثقة فى حكمة الله ، وكلما كان الحكم أبعد عن تصور العقل ، كلما كان الإيمان أوغل فى الصدر .

وكلما كانت المسألة لا يقبلها العقل أبدا فيكون التسليم دليلًا على أن اليقين أقوى من الحكمة . الذين يمتنعون من الخلق عن أشياء حرّمها الخالق مثلًا قديما ، ثم يمتنعون عنها لما ظهر لها من أسباب أو من وسائل ضارة بالنفس البشرية . فهم لجأوا إلى ذلك لأن الله حرم أم لجأوا إليها لأن المسائل الكونية أبرزت ضررها ؟

فأنت حين امتنعت ، هل امتنعت انصياعا لمن أمر بها أولًا ، أو انصياعا للضرر الذى أدركته واقعا فى الكون الذى تعيشه ؟

إذن .. فالذى يمتنع عن شرب الخمر لأن له آثارا ضارة فى الكبد وكذا وكذا ، والتحاليل توضح له ذلك ، فهذا لم يمتنع لأمر الله ، بل امتنع للضرر الذى لحظه أو أدركه من هذه العملية .

والذى يمتنع عن لحم الخنزير ، وينتظر حتى تُثبت التحاليل الأشياء الضارة فى أكله ، نقول له : لا ، هذا لا يصلح .

إذن .. فالفرق بين تكليف الخلق للخلق وتكليف الحق للخلق : أن تكليف الخلق للخلق لابد أن تظهر حكمته . أما تكليف الحق سبحانه فنؤمن به ونرضى به ثم من بعد ذلك تأتى حكمته تعلمها أو لا تعلمها الأمر فى ذلك سواء ، فالعلة أن الله تعالى قال ، وما علينا إلا أن نقول سمعنا وأطعنا .

ولذلك كل قانون يُعدل قانونا فإنه يقول : نظرًا لأنه حدث كيت وكيت وكيت رأينا أن نضع فى القانون كذا أو كذا فهو يقنعنى .

لماذا جاء بهذا الأمر الجديد المضاف للقانون ؟

جاء به لمبرر كونى كان ولابد أن يوجد إلا أنه غاب أولا عن المشرع الأول ؛ لأنه ليس عنده علم استيعاب الأحداث ، بل العلم يجد له . وهذا دليل على نقص القدرة البشرية فى إدراك حقائق الأشياء .

إذن .. فحيثية التعديل تشهد بجهل الذى شرع أولا بالقضية التى من أجلها شُرع ثانيا أو عدل القانون ثانيا .

لكن الأمر من الأعلى : كل يوم تزداد يقينا ، وتجد أثر ذلك فى نفسك .

ولذلك فى قانون الناس تزداد نقصا فيما شرع ، وأما فى قانون الحق سبحانه تزداد حكمة فيما شرع .

فإذا ما ظهرت لك حكمة فى أمر من الأمور الغيبية التى كان يقف فيها العقل ، فإظهارها فيما بعد جعل غيرى الذى لم يكن مؤمنا معى يفعلها هو دليلٌ على أنى أزداد يقينا وتصديقا لكل شىء يقف عقلى فيه إذا كان من المشرع .

ولذلك الإمام على رضى اللّٰه تعالى عنه عندما تكلم على المسح على الخف ، قال : لو أن المسألة بالعقل لكان المسح على باطن القدم أولى من ظاهره .

إذن .. فالعملية ليست لنظافة ولا كذا ، بل هى إعداد النفس للإقبال على إله يُريدك أن تُقبِل عليه بنية الإقبال .

فأنت إذا ما ذهبت لترجم الشيطان ، فحتى تصد عنه المداخل التى يدخل عليك فيها قمة عقيدة فى رجم الأكبر ، أو فرع عقيدة فى رجم الأصغر وتعملها سبع مرات ، كل ذلك أمر حسى ، هذا الأمر الحسى مناسب لأنك حسى ، فأنت مادى ، فلابد أن تكون الأمور بمادية معك .

فالإنسان مثلا حينما يمرض يذهب إلى الطبيب ، والطبيب يأخذ منه أشياء مادية ويحللها ، ويأخذ منه دما أو فضلات أو غيره ويُحلل ، وبعد ذلك يُعطيه عقاقير مادية ويكونها التكوين المادى ، أو يأتى من الصيدلية بالدواء الخاص بهذا المرض ، كلها ماديات ، فإن أصاب تأخذ الدواء فتبرأ .

أغيار الإنسان المعنوية فى الحياة أقصى من الأغيار المادية فاللّٰه سبحانه وتعالى من فضله وكرمه أنه يستدعى عبده المؤمن كل يوم خمس مرات ليقف أمامه .

فمثلًا وللّٰه المثل الأعلى هات صنعة تعرض على المهندس الذى صنعها خمس مرات كل يوم . فهل يصيبها عطب ؟ لا يصيبها عطب .

كذلك أنت ذهبت إلى خالقك ووقفت أمامه تسأله حاجتك ، وتستعين به ، وتطلب منه العفو والعافية ، والرشاد والفلاح . وهو سبحانه يستمع إليك ، مع أنه يعلم قبل أن تسأل ماذا ستسأل ، ولكنه يحب أن تسأله ، وتطلب منه ، فيجيبك إما حالًا وإما أن يدخر الإجابة لك . ولما كنت تعلم وتؤمن أن اللّٰه تعالى غيب فما عالجك به غيب . وأما الطبيب فهو مشاهد لك ؛ يعنى : مادى ، فما يعالجك به فهو مادى .

لكنك حين وقفت بين يدى خالقك شعرت بالراحة . ولذلك فإن من يألف الصلاة ، قبل الصلاة يقول لك : هيا عجل لنا بالدخول فى الصلاة : « أرحنا بها »[1] .

كأن الفترة بين الصلاتين حدثت فيها متاعب : متاعب بشرية ، قلق نفسى .

إذن .. فكل إقبال على اللّٰه إقبال على تكاليفه ، فلابد أن توجد مناهضة لمعارضة هذه التكاليف .

كل ما يمكن أن يُعارض هذه التكاليف تقول له : لا ، فالإله الذى أمر بها حكيم . كلها تجمعت فى الحج ، عمليات عقلية ، عقول الناس قد تقف فيها ، الطواف ، وتقبيل الحجر ، الرجم ، وكذا وكذا .

فإياك أن تقف فيها ؛ لأن المسألة مسألة انضباطية ، انضباطية بما لا تعلم علتها .

والحكمة في الانضباط للأوامر : تعويد النفس البشرية أن تنضبط للآمر الأعلى سبحانه وتعالى إياك أن تظن أنه يريد أن يضبطك أنت وحدك ، فهو قد ضبط الملايين ممن آمن به مثلك ، وضبطهم لصالحك ، فكذلك يضبطك أنت لصالحهم .

(1) رواه أبو داود [٤٩٨٥] عن سالم بن أبى الجعد رضى اللّٰه تعالى عنه ولفظه : « قال رجل : قال مسعر أراه من خزاعة : ليتنى صليت فاسترحت فكأنهم عابوا عليه ذلك فقال : سمعت رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم يقول : « يا بلال أقم الصلاة أرحنا بها » .
والطبرانى فى المعجم الكبير [٦٢١٥/٢٧٧/٦] عن عبد اللّٰه بن محمد بن الحنفية رضى اللّٰه تعالى عنه قال : سمعت رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم يقول : « أرحنا بها يا بلال » الصلاة .
وقال الهيثمى فى المجمع [١٤٥/١] : وفيه أبو حمزة الثمالى وهو ضعيف واهى الحديث
ورواه أحمد [٣٧١/٥] مختصرا وليس فيه أبو حمزة .

وكأنه سبحانه يقول : أنا لم أكلّف شططا ، فمرادى : من الخلق كُلّه أن يكون جهازا منسجما ، جهازا متساندا ، ليس به تعاند . فإذا كلفتك بأمر فإياك أن تفهم أننى أريد أن أضيق حريتك أو حرية اختيارك ، لا ؛ وإنما أنا أريد أن أضمن لك حرية الاختيار للآخرين فى ألا يضروك ، وما دامت المسألة ستعود عليك ، فلابد أن لا تنظر إلى ما أُخذ منك ؛ ولكن انظر إلى ما أخذته أنت .

ولقد ضربنا مثلًا فقلنا : الغنى مثلًا احتمال أن يحزن عندما نطلب منه الزكاة : « ٢,٥٪ » يمكن تشق عليه ، وتشح نفسه وكذا وكذا .

فنقول له : ادفعها لأنك أنت ابن أغيار من الممكن أن تضعُف ، ومن الممكن أن تفتقر ، فإذا كنت أنت ستُعطى وأنت قادر فسنعطيك وأنت عاجز .

فلابد أن تلحظ ماذا يعطيك التكليف قبل أن تلحظ ما يأخذ منك التكليف .

فعندما تقيد التكليفات بقالب ، فاعلم أن هذه التقييدات لصالحك أنت لأنه لم يُقَيَّد تعالى ؛ لأن غيرك قُيِّد ، وما دام غيرك قُيِّد من ناحيتك ، وأنت مُقَيَّد من ناحيته ، فتقييد الناس جميعًا أقل من تقييدك لهم .

إذن .. فالعمدة فى الحج بعدما نروح ونرجم ، فنقول : سبحان اللّه ، إبراهيم على نبينا وعليه الصلاة والسلام تعرَّض لمسألة قمة ، فكان ولابد أن يمتثل ، فإذا جاءته الرؤيا بأنه يذبح ابنه هل يتركه الشيطان فى قضية كهذه ؟ بالطبع لا .. إن الشيطان يفرح جدًّا ويقول : هذه مسألة مناسبة لندخل منها له : ما أقسى هذا الأمر ، فأنت الذى تذبح ابنك ؟! إذا كان ولابد فغيرك يقتله ، لا حاجة فى أن تقتله أنت ، كيف وهذا الابن لم يأتك إلا بعد الكبر الشديد ؟!

إذن .. فهذه المسألة ما كان الشيطان أن يتركها ؛ ولذلك كان إذا رده إبراهيم يعاوده ثانية ، وإن رده عاوده أخرى ؛ وهكذا يظل الشيطان يُلح فى الوسوسة ، وإبراهيم عليه السلام يرجمه .

فنحن نحيى هذا النسك فى إبراهيم ، وذلك أولًا لتكريمه ، وثانيا تعليمًا لنا نحن ، فنقول : المطاف انتهى بإبراهيم إلى خير ، لماذا ؟ ذلك لأن اللّه لما ابتلى إبراهيم بكلمات وأتم الكلمات ووفَّاها ﴿ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴾ [النجم : ٣٧] يعنى قلنا له على أشياء قد

تكون .. كمن يقول لك : فلان وعدنى بكذا وكذا . فنقول له : وهل هذا معقول !! أفيصدق أنه سيعمل لك كذا وكذا ؟! هل هذا كلام يُصدَّق ؟ ثم يقول لك : هذا فلان قد وفى ، يعنى : أتى بالشىء الذى كنت أنت غير متصور أنه يعمله : ﴿ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴾ .

فهذه هى القمة وإبراهيم وَفَّى فيها . فيجزيه اللّه سبحانه وتعالى الجزاء الأوفى فيقول له : ﴿ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ﴾ [البقرة : ١٢٤] فأنت أصبحت إمامًا للناس لأنك ابتليت بأقصى أنواع الابتلاء وأدَّيْتَ أحسن الأداء ، فما دام اللّه جعله للناس إماما فلابد أن أعماله تظهر فينا نحن ، وذلك بإحياء هذا النُّسك .

إذن .. فنحن نقوم بهذا النسك من رجم الشيطان وكذا وكذا إحياء لذكرى إبراهيم وانتصاره على الشيطان ، وتعليما لنا نحن أنَّ الشيطان إذا ماحاول أن يوسوس لنا أويغوينا نقول له : لا ؛ لأن إبراهيم علَّمنا أن نعمل كذا ، وابتُلِىَ أكثر من ابتلاءاتنا ، ومع ذلك رَدَّ الشيطان هذا الرَّد .

فإذا نحن عملنا يكون لنا أُسوة فى الأكرمين من رُسُل اللّه ، وإلا فلماذا نحن نسعى الآن ، فهاجر كانت تسعى لطلب الماء ، أنت تسعى الآن لتحيى هذه الذكرى ، ذكرى امرأة تركها زوجها ومعها وليدها وليس لها من أسباب الحياة شىء فى واد غير ذى زرع حتى الماء الذى هو المقوم الثانى من مقومات الحياة لم يكن عندهم ، ومع ذلك رضيت وقالت : اللّه تعالى لايُضيِّعنا ، فلذلك أُحيِى أنت هذه الذكرى فيها ، وخُذها نموذجا لك لتظل مسألة السعى فى الأسباب مُقدَّمة على أنك لا تقعد . فقد علمت أن السماء لا تُمطر ذهبًا ولا فضة .

○○○

بعض الناس يقول : إننا نرى هناك الهدى ملقى على الأرض بعد ذبحه ولا أحد يأكله !
أقول لكل من يقول ذلك : قف واستقبل أى ذبيحة يأتى بها حاج ، وانظر إليها بمواصفات الله ؛ أى : لا يكون فيها عيب ، وسنها كذا وكذا ، ثم انظر إليها بعد ذبحها فإن بقيت فلك أن تقول ما تشاء ! إنما الذى يبقى هى الذبائح التى تقدم وليست مستوفية لشروط الله ، ولذلك يصد الله عنها عيون الجائعين ، ويصد الله عنها عيون المحتاجين ، وتظل ملقاة ولا أحد يلتفت إليها ؛ لأنها مردودة من الله وإنما المستوفاة للشروط تجد الناس تتخاطفها ، ولا يبقى منها شيء البتة .

إذن .. فالحق سبحانه وتعالى يريد من العبد أن يقبل ، ولا مانع أن يأخذ نفع نفسه لأن نفع نفسه سيقدم أيضا منفعة للآخرين ، ولذلك فالذين يقومون بخدمة الحجيج ييسر الله لهم أكثر مما ييسر لغيرهم .

فهؤلاء يباح لهم أن يفيضوا قبل نصف الليل ، ويذهبوا لرمى جمرة العقبة ، ويأخذوا نفس حكم النساء والضعاف والصبيان والسقاة ، والرعاة ، وهؤلاء لهم ترخيص ؛ لأنهم جاءوا لتأدية النسك ، ويؤدوا خدمة لأصحاب النسك ، فلابد أن يكون لهم ترخيص(1) .

---

(1) هدى التمتع ومثله القارن واجب عند القدرة المالية بوقت الوجوب فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام فى الحج وسبعة إذا رجع ، وذلك قول الله تعالى : ﴿ وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴾ وتجزئ الشاة الواحدة أو الماعز الواحدة عن شخص واحد فقط ، وتجزئ البقرة أو الجمل أو الناقة عن شخص واحد إلى سبعة أشخاص على أن يكون اشتراك المهدى قبل الذبح ... ويشبع على الأقل ؛ أو أكثر لمن أراد الهدى أو الفدية أو التضحية .
أما المفرد بالحج فإنه إذا شاء أهدى ، وهديه يكون تطوعًا وليس واجبًا . كما يجوز الوكالة فى شراء الهدى ونحوه ، وحكى أبو عمر يوسف بن عبد البر رحمة الله تعالى عليه الإجماع فى =

○○○

= ذلك فى كتاب الإجماع له [ص : ١٢٨] إذ قال : وأما إذا كان صاحب الهدى أو الضحية قد أمر بنحر هديه أو ذبح أضحيته فلا خلاف بين الفقهاء فى إجازة ذلك . كما لو وكل غيره بشراء هديه فاشتراه جاز بإجماع . وفى نحر غير رسول الله صلى الله عليه وسلم هديه دليل على جواز الوكالة ؛ لأنه معلوم أنه لم يفعل ذلك بغير إذنه . وإذ صح أنه كذلك صحت الوكالة وجازت فى كل ما يتصرف فيه الإنسان أنه جائز أن يوليه غيره فينفذ فيه فعله .
فائدة : عن البراء بن عازب رضى الله تعالى عنه قال : سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم ماذا يتقى من الضحايا ؟ فأشار بيده وقال : « أربعًا » وكان البراء يشير بيده ويقول : يدى أقصر من يد رسول الله صلى الله عليه وسلم : « العرجاء البين ضلعها ، والعوراء البين عورها ، والمريضة البين مرضها ، والعجفاء التى لا تنقى » .
قال أبو عمر يوسف بن عبد البر رحمة الله تعالى عليه : أما العيوب الأربعة المذكورة فى هذا الحديث فمجتمع عليها لا أعلم خلافًا بين العلماء فيها ، ومعلوم أن ما كان فى معناها داخل فيها ولا سيما إذا كانت العلة فيها أبين ، ألا ترى أن العوراء إذا لم تجز ، فالعمياء أحرى ألا تجوز ، وإذا لم تجز العرجاء المقطوعة الرجل أو التى لا رجل لها فالمقعدة أحرى ألا تجوز ، وهذا كله واضح لا خلاف فيه ، والحمد لله .
وقال أبو عمر : ومن العيوب التى تتقى فى الضحايا بإجماع : قطع الأذن أو أكثره ، والعيب فى الأذن مراعئ عند جماعة العلماء فى الضحايا ، واختلفوا فى السكاء : وهى التى خلقت بلا أذن .
وأجمع العلماء على أن الضحية بالجماء - التى لا قرن لها - جائز .
وقد أجمعوا على أن أفضل الهدايا الإبل ، واختلفوا فى الضحايا .
وقد أجمعوا على أنه ما استيسر من الهدى شاة .
والذى يُضحى به بإجماع من المسلمين : الأزواج الثمانية ، وهى : الضأن ، والماعز ، والإبل ، والبقر . وقد اختلف الفقهاء فى الأفضل من ذلك .

مكان ذبح الهدى

اختلف العلماء في مكان الذبح : هل نذبح في منى ؟ أو نذبح في مكة ؟

أقول من تيسير اللّٰه تعالى أن منى كلها منحر ، ومكة كلها منحر ، فإذا ذبحت في منى فلا شيء عليك ، وإذا ذبحت في مكة فلا شيء عليك ، لا نريد تصوير المسائل على أنها مسائل خلافية [1].

والآفة عند المسلمين أن المجتهد حين يجتهد ويؤديه اجتهاده إلى رأي ، تجد من يتعصب لهذا الرأي ويقول : إن هذا الرأي هو الصواب والباقي كله خطأ ، فنقول له : لا ، فمادامت المسألة ليس فيها نص محكم ، وترك اللّٰه فيها مجال الاجتهاد ، فتأدب كما تأدب أئمة الفقه ، فكان الواحد منهم يقول مثلاً : رأيي صواب يحتمل الخطأ ورأي غيري خطأ يحتمل الصواب .

والحق سبحانه وتعالى جعل على يد رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم ما يثبت هذه التوسعات : فكان يقول لمن يسأله : « افعل ولا حرج »[2] .

فلا تقل إن الذبح لا ينفع إلا هنا ، بل قل : أنا رأيي أن الذبح ينفع هنا . ولكن لا تخطئ الرأي الآخر ؛ لأنه له أيضًا دليل ؛ فالنبي صلى اللّٰه عليه وسلم أعطانا مسألة إطارات الاجتهادات الفقهية مع النصوص ، والقاعدة الفقهية تقول : لا اجتهاد مع النص إذن النص المحكم يوقف كل واحد عند حده .

أما النص الذي لا يريده اللّٰه على وجه واحد بل يريده على أي وجه ، فيتركه سبحانه للاجتهادات وفق احتياجات الأمة ووانعها ومتطلبات هذا الواقع .

فأنت من أدبك أن تحترم من ذهب إلى هذا الرأي ، وهذا اسمه التعايش الاجتهادي ، ومعنى التعايش الاجتهادي أي : يجعلنا أيضا في إطار واحد ، لم نخرج ، ومادمنا لم نخرج فإننا يجمعنا الأصل الأصيل الذي ليس فيه اجتهاد ، وبعد ذلك فاللّٰه سبحانه

(1) قال الإمام على القاري : يجوز ذبح جميع الهدايا في أرض الحرم بالاتفاق إلا أن منى أفضل لدماء الحج ، ومكة أفضل لدماء العمرة ، والأفضل أن يكون بالمروة .

(2) سبق تخريجه .

وتعالى أرحم بعباده من أن يجعل كل أحكامه مصبوبة في قالب حديد ؛ لأن الإنسان نفسه الذي نزلت عليه هذه التكليفات افعل كذا ولا تفعل كذا ، لو نظرت إلى تكوينه تجد أن تكوينه منطقي مع الأحكام التي نزلت عليه . تكوين الإنسان فيه أفعال لا علاقة له بها وهي تجري عليه دون رأي منه ولا اختيار ، قدر نزل عليه ، كل الحركات التي تحدث في جسم الإنسان ليس له فيها اختيار ؛ كيف أتنفس ؟ كيف تكون الحركة الدودية للأمعاء ؟ كيف يضخ القلب الدم ؟ كيف يسير الدم في الشعيرات ؟ كيف تفرز الكلى ؟ لا أعرف أي شيء من هذا ، فإذا مرضت فبخارج إرادتي ، إذن .. فتوجد أمور تقع على الإنسان بدون اختيار منه .

فهذا مثله مثل الحكم الذي لا مجال لك في فهمه ، اسمه قدريات .

وبعد ذلك فهناك أشياء اختيارية : آكل هذه ، لا آكل هذه ، ألبس هذا ، لا ألبس هذا ، أصاحب هذا ، أشرب هذا ، أشياء اختيارية .

فكذلك الأحكام ، كما أن الإنسان الذي نزلت عليه الأحكام مضبوط بضبطين اثنين : ضابط لا تصرف له فيه ، ومقابله في الحكم ما لا تصرف له فيه إلا بالنص ، والثاني : خاضع للاختيار ، عندما يأتيك أحد فيقول لك أنا آكل سمكا ، فلا تقول له لماذا تأكل السمك ؟ وآخر يقول لك آكل لحمًا : هذا أكل لحمًا مسلوقًا ، وهذا أكل لحمًا مشويا ، وهذا أكل جبنا وفولا ، فهذه مسألة داخلة في نطاق حريته . مادام لايوجد فيها نص .

فمثلًا : نحن إذا نظرنا إلى إنسان ، يصبح في الصباح ولا يُفطر ، فلا إلزام عليه بأن يفطر ، فهذه هو حُرّ فيها ، وآخر يقول لك : أنا عندما أستيقظ من النوم لابد أن أُفطر ، ولابد أن أفطر كذا وكذا . فهو حُر . فلا الذي فطر حجة على الذين لا يفطرون ، ولا الذين لا يفطرون حجة على الذين أفطروا ، فكل حُرّ في اختياره .

لكن عندما يقول لك في يوم الفطر . لا بد أن تفطر . فهنا أنا لَسْتُ حُرًا ، فهذا حُكْم ملزم[1] .

(1) روى ابن ماجه [١٧٢١] عن أبي سعيد الخدري رضي اللّٰه تعالى عنه ، عن رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم أنه نهى عن صوم يوم الفطر ، ويوم الأضحى .

وعنده [١٧٢٢] عن أبي عبيد رضي اللّٰه تعالى عنه قال : شهدت العيد مع عمر بن الخطاب =

ولذلك فعندما يؤذن لصلاة الفجر ويطلع النهار ، النهار الذى كَمْ نهيت عن أىّ مشروب أو أى مطعوم فيه ، تجد من يقول لك : خذ أىَّ شىء فكُلْه . الفطور هنا عبادة مأمور بها : لابد أنْ تفطر ، وعند الصوم تصوم حتى المغرب ، فتجد أحدهم يقول لك : أنا لن أفطر الآن ، فأنا سأفطر بعد العشاء ، تقول له : لا ، الانضباط أنك كما أمسكت عن الطعام والشراب بكلمة ، أفطر بكلمة ، فخذ غير ريقك ولو بجرعة ماء ، فتكون قد التزمت أدب الالتزام أمْرًا ونهيًا . وبعد ذلك تناول طعامك فى أى وقت شئت ؛ لأن تناول الطعام غير الإفطار .

فكما أن فيه للإنسان المخلوق تدريبات تقع عليه بدون اختيار منه ، كذلك توجد أحكام الله يتركها كل واحد يأخذ منها بحسب ميسراته ، ما دام الله لم ينص عليها صراحة .

ولنا فى رسول الله صلى الله عليه وسلم أسوة حسنة ، فحينما انتهى من غزوة الأحزاب وكان اليهود قد أعانوا مشركى قريش على رسول الله صلى الله عليه وسلم وساعدوهم . ولما سخر الله الريح وسخر الأشياء : ﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ﴾ [المدثر : ٣١] وانتهت المعركة ، وقريش رجعت ، واليهود راجعين إلى المدينة ، فأراد الله أن يؤدب اليهود الذين مالأوا قريشًا وساعدوهم فى غزوة الخندق .

ومعلوم أن فى غزوة الأحزاب ابتلى المؤمنون ابتلاء شديدا ؛ قال تعالى : ﴿ هُنَالِكَ ٱبْتُلِيَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُواْ زِلْزَالًا شَدِيدًا ۝ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ۝ ﴾ [الأحزاب] ، تأمل التعبير القرآنى : ﴿ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴾ [الأحزاب : ١٠] .

بعد كل هذا العناء ، الله تعالى أرسل جبريل عليه السلام إلى النبى صلى الله عليه وسلم بأمر غزوة بنى قريظة ، حينئذ قال النبى صلى الله عليه وسلم لمن أرسلهم إلى بنى

= رضى الله تعالى عنه فبدأ بالصلاة قبل الخطبة ، فقال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن صيام هذين اليومين : يوم الفطر ويوم الأضحى ، أما يوم الفطر فيوم فطركم من صيامكم ، ويوم الأضحى تأكلون فيه من لحم نسككم . وصححهما الألبانى .

قريظة : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر » يستفاد من هذا أن المسألة ليست بالعقل ، بل المسألة مسألة إيمان ؛ لأنهم بعد انتهاء هذه الحرب المنهكة ، وهذه المدة الطويلة ، وهذا التعب الشديد ، ولم يكادوا يستريحون ، فهل بعد كل ذلك نقول لكم : قوموا قاتلوا ؟! مسألة ليست عقلية . فالنبى عزاها لشىء فوق العقل ، فقال : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر » هكذا قال ربنا ، اذهبوا لتأديبهم « فلا يصلين العصر إلا فى بنى قريظة » . وبنى قريظة هم الذين أعانوا مشركى قريش . فمفاده قال : « من كان يؤمن بالله » إذن فالمسألة ليس فيها اختيار ، أمر إيمانى لازم .

وهم فى الطريق إلى بنى قريظة أدركهم وقت صلاة العصر فذكروا قول الرسول صلى الله عليه وسلم : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يصلين العصر إلا فى بنى قريظة » فنظر بعض الصحابة إلى الشمس فوجدوها تنحدر لمغيب ، إذن فالعصر وقته قد انتهى فقالوا : لابد أن نصلى العصر ، وجماعة قالوا : النبى صلى الله عليه وسلم قال : « فلا يصلين العصر إلا فى بنى قريظة » ، ولم يصلوا العصر حتى وصلوا بنى قريظة . اختلفوا : ناس صلوا فى الوقت ، وناس لم يصلوا إلا فى المكان الذى جاء فى ظاهر الحديث . ورجعوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فماذا كان موقف رسول الله صلى الله عليه وسلم منهم ؟ أقر هذا دون هذا ، أم هذا دون هذا ؟ أقر الاثنين . احترامًا للاجتهاد . وفكرة الاجتهاد ، ودليل الترجيح فى الاجتهاد ، ونحن الآن نفسرها تفسيرا أوسع ، حتى يتقبلها العقل نقول كما قلنا فيما سبق : إن كل حدث يحتاج إلى زمان وإلى مكان فإن اجتمع الظرفان فبها ونعمت ، وإن وجد ظرف دون ظرف ، فالذى يرجح ظرفًا على ظرف لا نخطئه ، فهو قد أخذ شق ظرف والآخر أخذ شق ظرف ، فالرسول صلى الله عليه وسلم أقر من صلى العصر قبل أن يذهب إلى بنى قريظة ؛ وأقر من صلى العصر بعد أن وصل بنى قريظة . إذن فقد أقر الاثنين ، فقد أقر صلى الله عليه وسلم اجتهادهم ؛ لأن صاحب الاجتهاد الأول الذى قال : لابد أن نصلى العصر لأن الشمس ستغيب ، نظر إلى ظرف الزمان ، فالشمس متغيب وظرف الزمان سينتهى ، وصاحب الاجتهاد الثانى الذى نظر إلى قوله صلى الله عليه وسلم : « لا يصلين العصر إلا فى بنى قريظة »

= وقد تهيأوا للرحيل ، فرجع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأخبره برحيل القوم ، فأصبح رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ، وقد ردَّ الله عدوَّهُ بغيظه ، لم ينالوا خيرا ، وكفاه الله قتالهم ، فصدق وعده ، وأعز جنده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده ، فدخل المدينة ووضع السلاح ، فجاءه جبريل عليه السلام ، وهو يغتسل فى بيت أم سلمة ، فقال : أوَضَعْتُم السلاح ، إن الملائكة لم تضع بعد أسلحتها ، انهض إلى غزوة هؤلاء ، يعنى بنى قريظة ، فنادى رسولُ الله صلى الله عليه وسلم : « من كان سامعا مطيعا ، فلا يُصلِّين العصر إلا فى بنى قريظة [(1)] » ، فخرج المسلمون سِراعاً وكان من أمره وأمر بنى قريظة ما قدمناه ، واستشهد يومَ الخندق ويوم قريظة نحو عشرة من المسلمين وكان أبو رافع ممن ألَّبَ الأحزاب على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولم يُقتل مع بنى قريظة كما قتل صاحبه حُيى بن أخطب ، ورغبت الخزرج فى قتله مساواةً للأوس فى قتل كعب بن الأشرف ، وكان الله سبحانه وتعالى قد جعل هذين الحيَّيْن يتصاولان بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الخيرات ، فاستأذنوه فى قتله ، فأذن لهم ، فانتدب له رجالٌ كلهم من بنى سلمة ، وهم عبدُ الله بن عتيك ، وهو أمير القوم ، وعبد الله بن أُنيس ، وأبو قتادة ، الحارث =

(1) رواه البخارى [٤١١٩] واللفظ له ، ومسلم [٦٩/١٧٧٠] عن ابن عمر قال : قال النبى صلى الله عليه وسلم يوم الأحزاب : « لا يصلين أحدكم العصر إلا فى بنى قريظة » ، فأدرك بعضهم العصر فى الطريق ، فقال بعضهم : لا نصلى حتى نأتيها ، وقال بعضهم : بل نصلى لم يرد منا ذلك ، فذكر ذلك للنبى صلى الله عليه وسلم ، فلم يعنف واحداً منهم ، وهذا لفظ البخارى ، وأما لفظ مسلم من نفس الطريق وقع فيه : نادى فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم انصرف عن الأحزاب لا يصلين أحد الظهر إلا فى بنى قريظة ، فتخوف ناس فوات الوقت فصلوا دون بنى قريظة ، وقال آخرون : لا نصلى إلا حيث أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وإن فاتنا الوقت ، قال : فما عنف واحدا من الفريقين . وفى هذا الحديث من الفقه أنه لا يعاب على من أخذ بظاهر حديث أو آية ، ولا على من استنبط من النص معنى يخصصه .
قال الحافظ فى الفتح [٧/٤٠٨] وقع فى جميع النسخ عند البخارى : « العصر » ووقع فى جميع النسخ عند مسلم : « الظهر » مع اتفاق البخارى ومسلم على روايته عن شيخ واحد بإسناد واحد وقد وافق مسلما أبو يعلى وآخرون ، وكذلك أخرجه ابن سعد عن أبى عتبان مالك بن إسماعيل عن جويرية بلفظ : « الظهر » وابن حبان من طريق أبى عتبان كذلك ، ولم أره من رواية جويرية إلا بلفظ : « الظهر » غير أن أبا نعيم فى المستخرج أخرجه من طريق أبى حفص السلمى عن جويرية فقال : « العصر » وأما أصحاب المغازى فاتفقوا على أنها العصر .

إذن .. فالخلافات التى تنشأ فى الحج يجب أن تكون مقبولة على هذا الضوء لأنه مادام ليس فيها نص محكم ، فلا بد أن نحترم وجهة نظر المجتهد ؛ لأن معنى مجتهد : هو الذى بذل الجهد فى استنباط الحكم من دليله . ومادام كذلك فإنه له مقومات الاجتهاد .

الإمام الشافعى رضوان الله تعالى عليه قبل قدومه مصر كان له مذهب ، وبعدما جاء مصر وجد الصحيفة التى تركها عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله تعالى عنه ، وفيه أحاديث لم يكتبها أبو هريرة رضى الله تعالى عنه ، وكان الإمام يعرف قول أبى هريرة رضى الله تعالى عنه القائل فيه : إن عبد الله ابن عمرو بن العاص كان يكتب وأنا لا أكتب ، فلما جاء إلى مصر ووجد هذه الصحيفة ، ووجد فيها أحاديث لم يكن سمعها من قبل ذلك ، فبدأ يغير فى بعض الأحكام التى كان اجتهد فيها وفقا لما سمعه ورآه من حديث عبد الله بن عمرو ، ولذلك تلمح فى كتب ورسائل الشافعية ، وللشافعى فى الجديد والجديد يعنى المذهب الذى انتهى إليه حينما جاء إلى مصر ووجد أحاديث لم يكن قد اطلع عليها قبل ذلك .

فالأشياء التى اختلفوا فيها مثلا : المبيت بمنى ؛ هل هو سنة أم واجب ، الوقوف بمزدلفة : بنية المبيت أم بمقدار وضع الرحال ، الحلق أولا أم طواف الإفاضة ، الحلق أولى أم التقصير ؟ كل هذه مسائل فيها اجتهاد من العلماء ، وفى بعضها قال النبى صلى الله عليه وسلم : « افعل ولا حرج » .

لكن الذين يتمسكون بشىء ينظرون إلى ما فعله رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حجة الوداع . يقولون : النبى فعل كذا .

= ابن رِبْعى ، ومسعود بن سنان ، وخُزاعى بن أسود ، فساروا حتى أتوه فى خيبر فى دار له ، فنزلوا عليه ليلاً فقتلوه ، ورجعوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكلهم ادعى قتله ، فقال : « أرونى أسيافكم » فلما أروه إياها ، قال لسيف عبد الله ابن أنيس : « هذا الذى قتله أرى فيه أثر الطعام » .

زاد المعاد [٣/٢٧١ - ٢٧٦] .

والنبى صلى الله عليه وسلم لابد أنه فعل كل شىء على وجه واحد ، ثم بين وشرح لجموع الأمة ما به يتقبل الله حجهم ؛ فمن التزم فعل الرسول صلى الله عليه وسلم وأخذ نفسه بالعزيمة فى كل موطن من مواطن الحج فهو فى القمة ، ولكن من لم يستطع وخاصة الضعاف والمرضى وأصحاب الأعذار والنساء والقائمين على خدمة الحجيج كل هؤلاء وغيرهم خاصة فيما نلحظه اليوم من الزحام وكثرة الحجيج يتوجب علينا أن نأخذ بالرخصة التى أعطاها لنا الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم ، والأخذ باجتهادات العلماء شريطة ألا يكون ذلك مؤثرًا فى صحة الحج وقبوله .

○○○

الحلق والتقصير

فإذا ما أتينا إلى مسألة الحلق أو التقصير ، فالنبى عليه الصلاة والسلام يسر فيها كثيرًا فكان صلى الله عليه وسلم كلما سُئل عن شىء من ذلك قال : « افعل ولا حرج »[1] .

وفى هذا تيسير كثير على الناس .

هذه التيسيرات كانت ولابد أن تكون ضرورية ؛ لأنك لو أمسكتها على رأى واحد يضيق الزمان ويضيق المكان ، وخصوصا إذا كان الإقبال على الحج فى ازدياد وتكاثر كما هو مشاهد الآن . والإنسان فى غير أيام الحج عندما يذهب إلى هناك فإنه يجد زحامًا فى المطاف ويجد زحاما فى السعى ؛ لأن الناس قد كثروا وإقبالهم على أداء فريضة الحج الآن كبير لأنهم لم يجدوا الأمن النفسى والطمأنينة القلبية إلا فى جوار بيت

(١) روى أحمد فى المسند [٧٥/١] عن على بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه قال : وقف رسول الله صلى الله عليه وسلم بعرفة فقال هذا الموقف ، وعرفة كلها موقف ، وأفاض حين غابت الشمس ، ثم أردف أسامة فجعل يعنق على بعيره والناس يضربون يمينا وشمالًا يلتفت إليهم ويقول : « السكينة أيها الناس ، ثم أتى جمعا فصلى بهم الصلاتين : المغرب والعشاء ، ثم بات حتى أصبح ، ثم أتى قزح فوقف على قزح فقال هذا الموقف ، وجمع كلها موقف ، ثم سار حتى أتى محسرا فوقف عليه فقرع ناقته فخبت حتى جاز الوادى ، ثم حبسها ، ثم أردف الفضل وسار حتى أتى الجمرة فرماها ثم أتى المنحر فقال : هذا المنحر ومنى كلها منحر .

قال : واستفتته جارية شابة من خثعم فقالت : إن أبى شيخ كبير قد أفند وقد أدركته فريضة الله فى الحج فهل يجزئ عنه أن أؤدى عنه ؟ قال : نعم ، فأدى عن أبيك . قال : وقد لوى عنق الفضل فقال له العباس : يا رسول الله ، لم لويت عنق ابن عمك ؟ قال : رأيت شابا وشابة فلم آمن الشيطان عليهما .

قال : ثم جاءه رجل فقال : يا رسول الله ، حلقت قبل أن أنحر ، قال : انحر ولا حرج . ثم أتاه آخر فقال : يا رسول الله إنى أفضت قبل أن أحلق . قال : احلق أو قصر ولا حرج ، ثم أتى البيت فطاف به ، ثم أتى زمزم فقال : يا بنى عبد المطلب سقايتكم ولولا أن يغلبكم الناس عليها لنزعت بها . وقال الأرناؤوط : إسناد حسن . ورواه الترمذى [٨٨٥] وابن خزيمة [٢٨٣٧] .

الحكمة من الحلق والتقصير

بعد ذلك عندما تأتى إلى حكمة إلزام الحلق أو التقصير ، فأنت قبل إحرامك قمت بتنظيف نفسك من الشعر الداخلى - العانة والإبط - وكذا وكذا ؛ لأنك عرضة لغبار وعرضة لأقذار ، وستمكث مدة طويلة بهذه الحالة ، فلابد أن تكون نظيفًا ولا شىء يتعبك .

وبعد ذلك بقى الشعر الذى كانوا يعتزون به فى الماضى ويضعون عليه الدهن ويرجلوه ، فيقول له : الآن احلقه فيحلق الشعر ؛ لأن هذا الشعر قد يكون شهد معصية من معاصى الإنسان ، فأنا أريد أن الشعر الذى ينبت ؛ ينبت على طهارة ونظافة أو هو سمة للالتزام .

○○○

طواف الإفاضة

إذا ما انتهينا من ذكر الله تعالى عند المشعر الحرام وتم الدفع من المزدلفة إلى منى للرجم ، رجم جمرة العقبة الأولى - الجمرة الكبيرة - بمجرد الانتهاء من الرجم بالسبع حصيات تكون قد اقتربنا من أداء نسك الحج ، بقى فقط أن نطوف طواف الإفاضة ؛ فالوقوف بعرفة وطواف الإفاضة هما : الركنان الأساسيان للحج اللذان لا يسقطان أبدًا وما عدا ذلك يمكن أن يجبر بدم ، ولا يفسد الحج ، بل يظل الحج إذا ما فديت أى : قدمت دمًا تجبر به الخطأ أو التقصير - على خلاف فى المذاهب - هذه سنة ، وهذا واجب ، وهذا كذا ، ولكنها كلها تجبر بدم . فالركنان الأساسيان اللذان لا يسقطان ولا يجبران : طواف الإفاضة ، والوقوف بعرفة .

والرسول عليه الصلاة والسلام حينما قال : « الحج عرفة »[1] لماذا لم يقل ذلك عن طواف الإفاضة وهى أيضًا ركن أساسى من أركان الحج ؟

نعم هى ركن أساسى فعلًا ، إنما فَرَّقَ بين المشعر الذى يتحكم فيه ظرف واحد من ظروف الأحداث ، ونحن نعلم كما قلنا سابقًا إن كل حدث من الأحداث ، أى : كل فعل من الأفعال له ظرفان اثنان ، يعنى شىء يقع فيه ، إمَّا زمانًا وإما مكانا ؛ فمثلًا : أكل فلان : متى أكل ؟ هذا الزمان ، وأين ؟ هذا المكان .

فكل حدث يُفعل لابد له من زمان ، ولابد له من مكان .

فإذا نظرت إلى أحد الزمانين تكون قد أخذت ظرفا دون ظرف ؛ وإذا أخذت الظرفين الاثنين تكون قد أخذت مقومات الحدث .

طواف الإفاضة ليس له وقت محدد ، لك بعد أن ترمى الجمرة أن تنزل تطوف ، أو تنتظر بعدما تنتهى من أعمال منى كلها ثم تذهب للطواف .

إذن .. هو يتحدد فعلًا ، ولكن لا يتحدد زمانا ، يتحدد مكانًا فقط . تطوف حول البيت ، ولكن متى ؟ جائز بعد أن ترمى الجمرة تذهب للطواف ، وجائز أن تؤجل هذا كله ثم تذهب لطواف الإفاضة .

---

(١) جزء من حديث رواه الترمذى [٨٨٩] وابن ماجه [٣٠١٥] وصححه الألبانى .

والاضطباع كما قلنا هو : أن يكشف كتفا ، والهرولة : أن يُسرع بين الميلين الأخضرين ، وفي الثلاث الأشواط الأولى من الطواف ، طواف الإفاضة بالخصوص ، يعنى أن هذا غير مطلوب فى طواف القدوم ولا فى طواف الوداع ، ولكن فى طواف الإفاضة ؛ لأنها حصلت فى طواف الإفاضة .

فالنبى عليه الصلاة والسلام قال قولته المشهورة لصحابته بعدما بلغه ما بلغه قال ما معناه : « رحم الله امرأ أراهم من نفسه قوة »[1] .

وكأن حكمة الاضطباع أن يريهم أن الجسم ما زال قويا وسليما ، فهذا هو الكتف وها هى المناكب ، وكونه يجرى يدل على أن فيه قوة وصحة .

والميلان الأخضران كانا فى ملتقى الشارع ؛ لأن أصل هذا المسعى كان سوقًا ، والطريق المؤدى إلى الشارع . فكانوا يقعدون ليروا المسلمين وهم يسعون بين الصفا والمروة ، فلما كان المسلمون يحاذونهم يجرون ، وهذا دليل على أن عندهم نشاط وعندهم قوة .

وكذلك فى الطواف ، لما حدث هذا ورأوهم فى المسعى وفى الطواف ورأوا قوتهم وصحة أبدانهم وجريهم . فقالوا : إن هذا الكلام الذى وصلنا كذب ، فأحدث هذا العمل بلبلة فى صفوف المشركين .

وقد يحدث أن تطوف طواف الإفاضة ومعك من يطوف طواف الوداع ، أو يطوف تطوعا ، ويكون زحاما ، فإذا أردت أن ترمل ، فيعز عليك ذلك ، فلا ترمل إلا إذا وجدت فجوة تسرع من خلالها . لكن فى الزحام فلا ترمل .

(1) روى ابن ماجه [٢٩٥٣] عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما قال : قال النبى صلى الله عليه وسلم لأصحابه حين أرادوا دخول مكة فى عمرته بعد الحديبية : إن قومكم غدًا سيرونكم فلا يرونكم جلدًا ، فلما دخلوا المسجد استلموا الركن ، ورملوا والنبى صلى الله عليه وسلم معهم ، حتى إذا بلغوا الركن اليمانى مشوا إلى الركن الأسود ثم رملوا حتى بلغوا الركن اليمانى ، ثم مشوا إلى الركن الأسود ، ففعل ذلك ثلاث مرات ثم مشى الأربع . وصححه الألبانى .
وأحمد فى المسند [٣١٤/١] وقال الأرناؤوط : إسناده قوى على شرط مسلم ، ورجاله ثقات رجال الشيخين غير ابن خيثم لمن رجال مسلم .

ونحن مثلًا أُمرنا أن نستلم الحجر ، فهل نزاحم ؟ المزاحمة تعطى معنى وعدم الإيذاء يعطى معنى . فنحن نريدك أن تزاحم ، يعنى : تحاول أن تصل إلى الحجر ؛ لأن الزحام : رغبة فى أداء نسك العقل توقف فيه ؛ مع حَجرٍ تستلمه وتقبله ؟!

فكونك تزاحم دليل على إيمانك اليقينى بأن هذا حكم من الله ورسوله .

وكونك لا تؤذى ، فهذا موضوع آخر . فالزحام مطلوب ولكن بدون إيذاء . وكذلك هرول وارْمل ، ولكن بدون إيذاء ، أما الاضطباع فليس فيه إيذاء .

والذى يُتعبُ فى مسائل المناسك : عدم توظيف قضايا الدين كلها . لأن واحدا مثلًا يطوف ، يريد أن يطوف فى الناحية الضيقة - يعنى قريبا من الكعبة ، فهذا يريد هنا ، وهذا يريد هنا - لكن لو كل واحد ذهب وانتهى حيث ينتهى به ، لو لم يتقدم على غيره ويتركه يمشى بسكينة ويمشى بوقار ، ويخلى من أمامه ، فلا أحد يصطدم بأحد ، ولا أحد يقف مع أحد .

إذن .. فعدم الوعى بالتكاليف وأداء التكاليف هو الذى يُتعب الحجيج . فالحق سبحانه وتعالى يريد أن ييسر علينا الأشياء ، فالذى يدخل الكعبة وقد طاف طواف الركن ، فيكفيه هذا ولا حاجة للزحام ، بل دع غيرك يطوف الركن ، وصل أنت . إذا كنت لا تقدر على الصلاة ولا على الطواف ، فاقعد انظر إلى الكعبة ؛ لأن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « إن ربنا يُنزل فى الكعبة مائة وعشرين رحمة ، ستين منها للطائفين وأربعين للمصلين ، وعشرين للناظرين » .

إذن .. عشرين رحمة للقاعد فقط ينظر إلى الكعبة ، ولذلك فانظر إلى الكعبة واستحضر أى مكدر من مكدرات حياتك ، يعنى تحدى عوامل نفسك إنك عندما تكون خارج الكعبة تفكر وتقول : العيال يا ترى ما حالهم ؟ الأرض يا ترى رويت أم لا ؟ يا ترى كذا ، يا ترى كذا ، يا ترى الأولاد تنازعوا مع بعض أم لا ؟ تظل فى تفكير وهم وشغل بال ، ثم جرب نفسك واذهب إلى الكعبة ، ولا أقول لك طف بها ، ولا أقول لك صلِّ ، ولكن قف وانظر إليها فقط ، حينئذٍ لن تجد فى بالك شيئا مما كان يُزعجك .

لدرجة أن الواحد منا يقول : ما الذى كان يحزننى ، ما الذى كان يتعقبنى ؟ تبحث عن الشيء الذى كان يتعبك ويحزنك فلا تجده بمجرد النظر .

إذن .. لله سبحانه وتعالى سر فى هذه البنية ، ولذلك كان يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ورب الكعبة »[1] ، كأن هذه الكعبة لا يعلم سرها إلا من خلقها ومن كونها ، ماذا تعمل فى النفس ؟ لا نستطيع أن نعرف ما الذى تعمله ، إنما المهم أننا كنا نجتمع نحن وإخواننا ، وأهلنا ليسوا معنا ، ومصالحنا فى مصر ، ونمكث تسعة أشهر بعيدين عن الأهل ، كنا نجلس ونستحضر همومنا ، ثم بعد ذلك نقول : هيا بنا نطوف فندخل نطوف ، فأول ما تدخل إلى الكعبة وتنظر لها نستدل استدلال اليقين على أن النظر إلى هذه الكعبة عبادة [2] . فربنا جعل للطائف شيئا ، وللمصلى شيئا ، وللناظر شيئا ؛ ولذلك أنت عندما تذهب تجد أناسًا فقط جالسين ينظرون إلى الكعبة . راقب الجالس أمام الكعبة تجد نظره لا يتحول إلى شىء غير الكعبة . لو لم يكن فيه شىء يجذب بصره لا يستطيع أن يخلع منه نفسه ، لكان من يمشى هناك يلتفت هكذا أو هكذا ، لكن لا يعمل ذلك أبدًا .

إذن .. فلله سبحانه وتعالى أسرار ؛ هذه الأسرار قد لا نعرف الحكمة منها أولًا ، ولكن يأمر الدين بها أولا لتعرف آثارها فى نفسك آخرًا .

بعد طوافك للإفاضة يكون قد تم لك التحلل الأكبر ، فإن كان معك أهلك ، حل لك الجماع ، وتنتهى المسألة .

ooo

(١) ورد هذا اللفظ فى أحاديث كثيرة فى الصحيحين وغيرهما .

(٢) روى السيوطى فى الجامع الصغير [٣٩٦٦] وعزاه للديلمى فى مسند الفردوس عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه أنه قال : خمس من العبادة : قلة الطعام ، والقعود فى المساجد ، والنظر إلى الكعبة ، والنظر فى المصحف ، والنظر إلى وجه العالم . وقال الألبانى : ضعيف جدًّا .
وفى رواية له [٣٩٧١] ولم يذكر الصحابى المروى عنه الحديث : خمس من العبادة : النظر إلى المصحف ، والنظر إلى الكعبة ، والنظر إلى الوالدين ، والنظر فى زمزم وهى تحط الخطايا ، والنظر فى وجه العالم . وعزاه للدارقطنى والنسائى . وضعفه الألبانى .

التوكيل فى رمى الجمرات

العلماء حينما استقبلوا نسكين : نسك رمى الجمرات ، ونسك المبيت فى منى ؛ منهم من قال : رمى الجمار واجب وإن تركته يجبر بدم ، والمبيت بمنى إن كان سنَّة فلا شىء ، وإن كان واجبًا يجبر بدم .

نحن قلنا : على المحتاطين لدينهم أن يأخذوا على أحسن الاحتياطات ، وأحسن الاحتياطات أن يكون واجبا ، فإن لم أقدر على القيام به أفديه بدم .

وإن كانت هناك تيسيرات كثيرة : الذى يأخذ بعض الوقت من الليل فى منى يكون قد بات ؛ لكن يلاحظ أيضًا فى هذه أن الناس لها تجاوزات كثيرة فى منى .

هذه التجاوزات فى أنه أى واحد يقول لك : زحمة لا أذهب للرمى وسأعمل توكيلا لواحد يرجم نيابة عنى !!

صحيح أن النبى صلى الله عليه وسلم رخص للنساء والصبيان ، وأصحاب المصالح النافعة للحجيج كالرعاة والسقاة و ... إلى آخر ما هو موضح فى كتب الفقه . ولكن هل التوكيل مباشرة هكذا ، يقول لك إنه وكل للزحام ؛ لأنه لا يستطيع . نقول له : لا ، الزحام لا يثبت برأيك أنه يوجد زحام ، بل يثبت بأن تذهب ويتعسر عليك ، لا توكل ثم تذهب إلى المحال التجارية والأسواق وتشترى الهدايا بما لذ وطاب ؛ وكأنك لست فى حج بل فى نزهة بالأسواق ، وعلى كل حاج أن يحتاط لدينه ، وليعلم أن الأجر على قدر المشقة .

ooo

منى مكان ومكين

يقول لك أحد الناس : منى لا أجد فيها مكانا ، ازدحمت الخيام ، وكذا وكذا وكذا . فيذهب بعيدًا قليلًا عن منى .

نقول له : أيضا نحن سنأخذ بالقياس ، إن منى ظلت تزدحم ، وتزدحم حتى ذهبت فلم تجد مكانا ، كما لا تجد فى الصلاة مكانا إلا فى الشارع . فإن كان هكذا فتكون أيضًا منى ولو امتدت إلى صنعاء ، كما قلنا فى المسجد ولو امتد إلى صنعاء .

وهنا حينما نقضى أيام منى يستوى المفرد ، ويستوى المتمتع ، ويستوى القارن ؛ لأن المتمتع أنهى تمتعه قبل الحج وقبل الإفاضة وقبل عرفة .

وقلنا إن هديه بمجرد ما يستمتع بالعمرة إلى الحج يذبح ، حتى إن بعضهم قال : يذبحها فى المكان الذى يبتدئ فيه الاستمتاع ، وهى المروة . لكن المروة الآن أصبحت أماكن لا يصح الذبح فيها ، وتحويلها إلى مذبح ، وأصبح لكل شىء مكان مخصص .

فلا نقول له : بمجرد ما تستمتع عند المروة وانتهيت من كذا وكذا فاذبح عند المروة ، ولكن نقول له : اذهب فاذبح فى مناحر مكة أو مناحر منى .

والقارن أيضا سيعمل هذه الأعمال كلها ، ولكن سيكون أيضا قد انتهى من عمرته وظل محرما ، لكن المتمتع خلع إحرامه بعد العمرة ثم أحرم إحرامًا جديدًا من بيته للحج والقارن يظل بإحرامه بعد عمرته حتى يؤدى الحج بإحرام واحد .

بعد ذلك حين تنتهى مناسك الحج ، وينوى الحاج مغادرة مكة ، عليه أن يطوف « طواف الوداع » ، وهذا أمر ضرورى لأنك جئت لتزور البيت وحججت وكذا وكذا ، وتريد أن تنتهى منه ، فلابد أن يكون آخر عملك فى هذا المكان هو صلتك بالمكان الذى جئت من أجله إليه .

ولا يسقط هذا الطواف « طواف الوداع » إلا فى حالات مستثناة ، كأن تحيض المراة ، فلا نقول لها : انتظرى حتى تطوفى طواف الوداع ، لكن إن كان فى طواف الإفاضة نقول لها : انتظرى حتى تطوفى ، إلا أن يعجلك الركب فتذبحى بدنة ، ولها أحكامها .

طواف الوداع أيضًا اختلف فيه العلماء ، هل هو سنة أم فرض ؟

مثلا : المالكية وبعض فقهاء الأحناف قالوا : إنه سنة . ومادام سنة فإن لم تؤده فلا شىء عليك ، إن أديته تثاب ، وإن لم تؤده فلا تعاقب .

لكن غيرهم « أحمد والشافعى » قالوا : إن هذا واجب ، فما الفرق بين الفرض وبين الواجب ؟

الفرض ثابت بدليل قطعى لا شبهة فيه . الواجب ثبت بدليل ظنى ، وهذا هو الذى يفرق بين الفرض والواجب « الأحناف » .

لكن غير الأحناف عندهم الفرض مثل الواجب .

أيضًا كما قلنا سابقًا فى خلافات العلماء فى هذه المسائل ، علينا أن نحتاط ، فإذا لم نطف طواف الوداع نعمل دما اسمه دم فداء طواف الوداع .

وعلينا أن ننتبه بعد « طواف الوداع » : ألا نبقى فى مكة نشترى الهدايا وندور على المحلات بل علينا أن نغادر ، وأن يكون آخر عهدنا بمكة طواف الوداع .

ooo

الخلاف يجب أن يكون فى الاتجاه وليس فى المتوجه إليه . فنحن كلنا نريد أن نتوجه إلى الحق ، ولكنى رأيت أن الحق هنا ، وأنت رأيت الحق فى غيره ، ولا شىء يأخذنى ويأخذك إلى شىء مقطوع بحقيقته .

والخلاف فى الاجتهاد هو ضرب من التيسير فى الأحكام ؛ لأن الله سبحانه وتعالى كما خلقنى وأنا مقهور فى أشياء يجرى على فيها القضاء ، ومختار فى أشياء ، كذلك جعل الأحكام ، منها أحكام جبرية ليس لى فيها تصرف وأحكام أخرى تركت للاجتهاد وفق أمور ومقاييس معينة مفصلة فى كتب الفقه والأصول ، وإلا فكيف تفسر قول الله تعالى : ﴿ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ﴾[النساء٨٣] والاستنباط أن تحاول أن تستنبط الحكم ، ومادمت تحاول أن تستنبط الحكم فمستنبطه ليس واضحًا لك ، مستنبط هذا غير مستنبط هذا .

وقد قلنا فيما سبق إن أقوى شاهد على هذا : إقرار الرسول صلى الله عليه وسلم للذين ذهبوا إلى بنى قريظة فى أمر صلاة العصر .

ولو تدبرنا قول الله تبارك وتعالى : ﴿ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُوا۟ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ وَٱمْسَحُوا۟ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ ﴾ [المائدة : ٦] فطلب منا سبحانه أربعة أشياء : غسل الوجه ، ثم الأيدى إلى المرافق ، ثم مسح الرأس ، ثم الرجلين . فالرجلين داخلة فى المسح أو الغسل ؟

الآية جاءت : ﴿ وَأَرْجُلَكُمْ ﴾ فلم يقل « وامسحوا برؤوسكم وأرجلكم » ، بل قال : ﴿ وَٱمْسَحُوا۟ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ ﴾ فهو عطف على الأول ، على المغسول إذ قال : ﴿ فَٱغْسِلُوا۟ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ وَٱمْسَحُوا۟ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ ﴾ [المائدة : ٦] .

والترتيب هنا شرط فإياك أن تُدخل شيئا فى شىء ، أو تأتى بهذا أولا وهذا ثانيا ، فلا يصح . لماذا ؟

لأن الترتيب لو لم يكن شرطا لما فصل الله بين مغسولين بممسوح ، ولجعل المغسول وحده ، والممسوح وحده . ولما قال سبحانه : ﴿ فَٱغْسِلُوا۟ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ وَٱمْسَحُوا۟ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ ﴾ .

فجاء بالمسح بين غسلين اثنين . فما دام جاء بالمسح بين غسلين فهذا دليل على أن هذا ترتيب ، انظر إلى الانضباط ، فهذه هكذا وهذه هكذا ، فليست مسألة آلية .

وأيضا قال سبحانه : ﴿ فَٱغْسِلُوا۟ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ ﴾ لم يحدد فيها الوجه من أين إلى أين ؟ لأن الوجه ليس فيه خلاف عند العرب ، الوجه : ما به المواجهة من منبت الشعر إلى أسفل الذقن ، ومن شحمة الأذن للأخرى ، هذا هو الوجه ، لا اختلاف فيه . فلا يقول اغسلوا وجوهكم إلى كذا . لم يقل ؛ لأنه لا خلاف عند أهل اللغة فى هذا .

أما فى اليد فقال سبحانه : ﴿ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ ﴾ لأن اللغة العربية التى نزل بها القرآن تطلق على اليد إطلاقات متعددة ، وكل إطلاق يحدد المطلوب منه السياق .

مثلاً : ﴿ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا ﴾ [المائدة : ٣٨] فلما جاءوا للقطع ، قطعوا حتى الرسغ ، إذن .. فاليد أطلقت على هذا الكف .

واليد أيضًا تطلق من أول الكتف حتى الكف ، وتطلق من الكف إلى المفصل ، إذن فاليد لها إطلاقات متعددة عند العرب ، إما إلى الكف ، أو إلى المرفق ، أو إلى الكتف .

فلو قال الله تعالى : ﴿ فَٱغْسِلُوا۟ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ ﴾ ، ولم يقل : ﴿ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ ﴾ فلو غسل أحد الكف فقط يصح ، ولو غسلنا إلى المرفق يصح ، ولو غسلنا إلى الكتف يصح .

فلو وصل أحد إلى هذه أو هذه فالنص محتمل لهذه وهذه ، ولكن الله سبحانه يريدها على شكل خاص محدد ، فقال سبحانه : ﴿ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ ﴾ ومادام قال ذلك فغير ذلك ليس مطلوبًا .

وبهذا يكون قد منع الاجتهاد مع النص .

إذن .. إذا أراد الله نصا محكما جاء بالأسلوب الذى لا يحتمل سواه .

ولكنه لما قال : ﴿ وَٱمْسَحُوا۟ بِرُءُوسِكُمْ ﴾ فهنا جاء بحرف « الباء » ، فلو قال كما قال : ﴿ فَٱغْسِلُوا۟ وُجُوهَكُمْ ﴾ فهل كان أحد يختلف ؟ بالطبع لا ، فلو أرادها على هيئة

واحدة لما أعجزه التعبير ، إما يقول : « رؤوسكم » فتكون لكل الرأس . فإن كان يريد البعض ولو شعرة يقول : « امسحوا بعض رؤوسكم » . وإن كان يريد تحديد مساحة يقول ربع ، أو ثلث ، أو نصف . ولكنه لم يقل هذا ولم يقل هذا ، وإنما قال : ﴿ وَٱمْسَحُواْ بِرُءُوسِكُمْ ﴾ و « الباء » تستعمل فى كل هذا ، للاستعانة ، للإلصاق ، للبعضية .

إذن .. النص ليس صريحًا فى أنه يريد حكما محددًا ، فالمجتهد يأخذ هذا ويأخذ هذا .

ولذلك الذى يحتاط يقول : امسحها كلها وتخرج من الخلاف ؛ لأنك إن مسحتها كلها دخل البعض ، ودخل الربع ، وخرجت بكل الاحتمالات .

ولذلك يقول البعض من السنة : أن تمسحها كلها .

لكن الشافعى يقول : ولو بعض ، فأخذ الباء للبعضية .

والإمام أبو حنيفة يقول : لا المسح يقتضى آلة ماسحة ، والآلة الماسحة هى اليد ، واليد التى تباشر بها الأعمال هى اليمين ، فعلى الأقل قدر الماسح .

إذن .. فى أعمال الحج عندما ترى اجتهادات متعددة فى أشياء ، فلا تقل تضارب أحكام ، بل قل هى تيسيرات واجتهادات .

○○○

العلماء حينما يختلفون لا شك أن لكل واحد ملحظ فى المناط تخريجا وتنقيحًا وتحقيقا ، كل واحد له ذلك ، ليس خلافًا هكذ بدون أصول .

فهم اختلفوا فى العمرة – مثلًا التى نحن نقول : إما أن تؤدى عمرة متمتع ، أو عمرة قارن – فبعضهم قال : لا ، العمرة ليست واجبة ، ولا فرضا ، بل هى سنة . لكن جمهرة الفقهاء على غير ذلك .

وكان من رأيى أن يجتمع العلماء لتصفية هذه الأقوال ويواجهون كل واحد ودليله ، حتى تجمع الأمة فى ركن مهم كهذا الركن على شىء واحد ، أما أن يقول أحدهم : سنة ، وآخر يقول : واجب ، وآخر يقول : فرض .

ومن أجل ذلك أقول : ما معنى كلمة : « الحج » ، ومعنى كلمة : « عمرة » « الحج » فى اللغة : القصد . تقصد أى شىء ، بشرط أن يكون شيئا عظيما . لا تقول : حججت إلى الحلاق لأحلق . لا ، ممكن : حججت إلى الشيخ أو المعلم لأتعلم منه ، حججت إلى القاضى لأرفع إليه ظلامتى . فلابد أن يكون القصد إلى شىء عظيم لا شيئا حقيرا أو هينا ، فلا تقول : حججت للطمجى لأشترى طعمية . لا . لابد أن تحج إلى عظيم .

إذن .. « حججت » : قصدت عظيمًا .

وفى الشرع لا يوجد أعظم فى الكون من بيت الله ليحج إليه ؛ فإذا أطلقت كلمة « الحج » فى الشرع انصرفت إلى حج بيت الله قال تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ ﴾ [آل عمران : ٩٧] ولكن هل جعل الله تعالى للحج زمنًا أم أطلقه ؟ بالطبع حدد له زمنًا ؛ قال تعالى : ﴿ ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ﴾ [البقرة : ١٩٧] .

وإذا كنا نريد أن نستنبط أحكاما فلابد أن نجد فى طلب كل الآيات المتعرضة للموضوع ، ونضع الآيات مع بعضها حتى لا نأخذ حكما من آية ونترك آية أخرى .

أنه أمر ، لكن الأمر هنا جاء للإباحة ، ليس معناه أننا كلنا يتوجب علينا أن نتخذ من مقام إبراهيم مصلى ؛ من استطاع أن يفعل بغير أن يؤذى الناس أو أن يعطل مسار الطواف فليفعل ، وإلا ففى أى مكان من المسجد يصلى ، ولإيضاح أن الأمر ليس فرضا يجب على الحاج أو الزائر فعله فى هذا المكان نقول : معلوم أن مقام إبراهيم بين الكعبة وبين بعض المصلين ، فكانوا يتحرزون أن يصلوا خلف المقام ؛ لأنه يحجزهم عن الكعبة ، أى : كانوا يتلاشون المقام ولا يصلون وراءه ؛ لأنهم يقولون المقام بينى وبين الكعبة ولا أحد قال إنك عندما تتجه إلى الكعبة يجب أن تكون خالص الجوار إلى الكعبة ، افرض أن عمودًا أمامك ، أو جدارا ، هذا لا يحجزك عن الكعبة ، المهم أن الناس كانت تتحرز أن تصلى فى مقام إبراهيم ؛ لأنه كان يحجزها عن الكعبة ، فالله رفع الحرج وقال : ﴿ وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ﴾ وهذا معناه : أن تصلى ولا مانع أن يكون المقام حاجزا بينك وبين الكعبة .

الناس تزدحم على الصلاة فى هذا المكان ، وخاصة فى ركعتى الطواف لأنهم كانوا يقرأون : « ثم يأتى إلى مقام إبراهيم فيصلى ركعتى سنة الطواف » . فكل واحد يريد أن يصلى فى هذا المكان .

○○○

حكاية نقل مقام إبراهيم

لما ضاق المطاف بالطائفين وكثر الطائفون فى الخمسينات ، أراد أولوا الأمر أن ينقلوا مقام إبراهيم من مكانه هذا إلى خلف الخصوة ، حتى يتسع المطاف للطائفين ؛ لأن مقام إبراهيم لم يكن مقتصرًا على الحجر الذى قام عليه إبراهيم ، هذا الحجر الصغير ، بل كان حوله بنية ضخمة ، وعليه تاندة وله أعمدة وسقف ، وكانت مساحته كبيرة ، فكان حاجزًا لمساحة كبيرة من المطاف ، الأمر الذى يعوق الطائفين ، وبالفعل بنى المقام ، وأخذ فى زينته ، وتقرر أن الملك سعود رحمة الله تعالى عليه سيأتى لينقل الحجر فى المقام الجديد ، ومكان المقام القديم يكون خاليًا للمطاف .

أقر هذا وابن لادن رحمه الله هو الذى كان قائما على العمارة فى المسجد ، وزخرف المقام ، وكنا يوم السبت ، ويوم الثلاثاء سيأتى الملك سعود لينقل الحجر من المقام الموجود فيه الآن إلى المقام الجديد ، فكتبت برقية إلى القائمين على الأمر ، هذه البرقية بلغ من طولها أنها كلفت فى هذا الوقت حوالى ثمانين ريالا ؛ لأنها برقية طويلة وفيها أن هذا عمل لا يصح ، وأن الدليل على ذلك كذا وكذا وكذا ...

فصدر الأمر إلى ابن لادن بإيقاف العمل فى المقام الجديد ، إلى أن يبت بواسطة العلماء فى أمر هذه البرقية ، وجزى الله الشيخ عبد العزيز بن حسن إمام الحرم – فى ذلك الوقت – فهو الذى كان مقررا للجنة بحث البرقية والتأكد من صحة ما جاء بها ، وعُرضت المسألة ، ووجد أن كلام البرقية كلام صحيح ، فجزاهم الله خيرا على الحق ، والتعصب له ، فرفعوا الأمر إلى القائمين على الأمر فصدر الأمر إلى ابن لادن بأن يهدم المقام الجديد ؛ وأن يظل المقام مكانه .

لكن بعد هدوء هذه الضجة ؛ قلنا : إذا كنا نريد أن نوسع على المطاف للطائفين فلا داعى للتاندة المقامة حول المقام ؛ لأن الحجر صغير فلا داعى لهذه البنية الضخمة والتند والأعمدة التى تشغل حيزًا من المطاف ، ويكفى أن نعمل ناقُوسا من الزجاج على قدر الحجر ، ثم يوضع الحجر بداخله ، فلا يأخذ من المكان قدر رجلين ، كما هو الآن .

وفى هذا فائدة أخرى وهو أن المقام بدل كونه محجوزًا بالمبانى وبالأشياء التى حوله ولا أحد يراه ، أصبح المقام ظاهرًا يراه كل الناس ؛ لأن الله تعالى قال : ﴿ فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ فدعوا الناس تراه .

وشاء الله سبحانه وتعالى أن يتم الأمر على النحو الذى هو عليه الآن . وانتهت المسألة بأن وسع المطاف وبقى المقام فى مكانه .

أما العلة فى أن المقام لابد أن يظل مكانه : كانت حجة بعض العلماء إننا نريد توسيع المطاف وهذا يعمل زحامًا لازدحام الناس على الصلاة عنده ، ومبانيه كثيرة ، ويكون عنق زجاجة عنده ... إلى آخره ، كلام وجيه .

واحتجوا بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم نقل المقام من حضن الكعبة – لأنه كان ملصقًا بالكعبة فنقله – إلى مكانه هنا ، فكون النبى نقله معناه أن المقام ليس تعبديا بل يجوز نقله .

نحن قلنا : لا .. صحيح أن الرسول صلى الله عليه وسلم نقله ؛ لكن الرسول له أن ينسخ تشريع رسول آخر ، ولكن ليس لأتباع الرسول أن يفعلوا ذلك ، بدليل أن هناك سيلا اسمه سيل أم نهشل ، جاء سيل أم نهشل فبقوة دفعه ألقى مقام إبراهيم فى المسفلة ، فرفع الأمر إلى أمير المؤمنين حينئذ سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه وهو فى المدينة ، فجاء مفزعًا ، فلما حضر إلى مكة ، وعاين الأمر وجد الحجر الذى كان يقف عليه سيدنا إبراهيم عليه السلام لبناء الكعبة فى المسفلة ، فأراد عمر رضى الله تعالى عنه أن يضعه ، فقال : ناشدتكم الله يا أصحاب رسول الله أيكم يعرف موقع الحجر فى زمن الرسول ؟ قال رجل : أنا يا أمير المؤمنين ، كنت أعددت لهذا الأمر عدته ، وقست بين الحجر الأسود والمقام وبين الحطيم والمقام بمقاطن – يعنى : بحبل – يعنى : قاس من هنا ومن هنا فحين يلتقى الحبلان يكون هو موضع الحجر ، انظروا إلى فطنة سيدنا عمر رضى الله تعالى عنه ، نور الله تعالى بصيرته ، فقال : إن كنت صادقاً فيما تقول فأجلس معى هنا وأرسل إلى بيتك من يأتى بهذه الحبال ، وفعلًا جلس معه الرجل ، خشى عمر رضى الله تعالى عنه أن يذهب الرجل ليعمل هذا العمل من جديد ، فقال له ذلك .

وفعلًا جاء الرسول بالحبلين ، وقاسوا المسافتين ، فعرفوا موقع الحجر .

فحرص عمر رضى الله تعالى عنه على أن يوضع مقام إبراهيم فى المكان الذى وضعه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، هذا دليل على أن وضعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم فى هذ المكان توفيقىّ بفعل الرسول له .

ومادام أصبح توقيفيا ، بدليل أن عمر رضى الله تعالى عنه قال : ناشدتكم الله أيكم يعرف موضع الحجر فى زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم فلا يجوز تغيير مكانه .

كان هناك حل آخر غير أن نقلل الحجم والمسافة ونعمل له ناقوسا ، وهو بناء دور ثان للطائفين والعاكفين والركع السجود ، وهو ما فطن إليه أولوا الأمر فى بلاد الحرمين جزاهم الله خيرًا ، فهناك شيء يجب ألا يغيب عن المؤمنين : أن كل منسك أو مكان عبادة يأخذ جوه حكمه ، بدليل أنه لما ضاق المسعى بالساعين فى الحج ، عملوا مكانا للسعى فى الدور الثانى ، وسيعملون مكانا للسعى فى الدور الثالث ، وكلما زاد سيزيدوا دورًا أعلى .

إذن .. فمعنى ذلك أن السعى فى الدور الثانى هو بعينه السعى فى الدور الأول ؛ لأن جو المكان يأخذ حكمه ؛ جو المسجد يكون مسجدًا ، جو الحرم يكون حرمًا ، جو المسعى يكون مسعى ، جو الكعبة يكون كعبة ، الجو نفسه ، وإلا فالذى يصلى على سطوح المسجد الحرام إلى أى شيء يتجه ؟ إذا كانت الكعبة مستواها أسفل من مستواه ؟ فهو يتجه إلى جو الكعبة ؟

إذن .. فالكعبة ليست فقط المبانى بل هى المكان ، وهذا المبنى مكينٌ فى المكان .

الناس الذين كانوا يصلون تحت الكعبة ، أو فى أماكن منخفضة المستوى عنها إلى ماذا يصلون ؟ كانوا يصلون إلى جذر الكعبة .

إذن .. فلابد أن يأخذ الجو جذرها من تحت الأرض إلى السماء فهذه كلها كعبة .

بدليل أنه قبل وجود طيارين مسلمين ، كانوا يمنعون أن يطير طيار غير مسلم فى جو الكعبة ؛ قالوا : لأنه مادام حرما وقد قال الله سبحانه وتعالى : ﴿ فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا ﴾ [التوبة : ٢٨] فأيضًا لا يقربوا الجو .

إذن .. فجو المكان يعطى حكمه . فإن كنا نريد توسيع المطاف فيكفى أن نعمل أعمدة ونحمل عليها الحجر ، ولكن هذا سيمنع الناس من رؤية المقام . فكان الحل الأمثل الذى عليه الآن .

فضيلة موافقة يوم عرفة يوم جمعة

السـؤال : ما فضل حجة الجمعة ؟

الجواب : قال بعض العلماء : إن وقفة عرفات يوم الجمعة تفضل غيرها من خمسة أوجه :

أولاً : موافقة حجة النبى صلى الله عليه وسلم ، فقد حج النبى يوم الجمعة ، وما كان الله تعالى ليختار لرسوله صلى الله عليه وسلم إلا أفضل الأيام .

ثانيـًا : إن فى يوم الجمعة ساعة إجابة الدعاء .

ثالـثًا : إن الأعمال تشرف بشرف الأزمنة ، كما تشرف بشرف الأماكن ، وأفضل أيام الأسبوع هو يوم الجمعة ، فإن صادفه الحج كان أفضل .

رابعـًا : ورد أن أفضل الأيام يوم عرفة ، فإذا ما وافق يوم جمعة زاد الفضل .

خامسًا : إذا كان الحج يوم جمعة غفر الله لجميع أهل الموقف حتى لو كان الحج يومًا آخر غير يوم الجمعة ، فما وجه التخصيص ، فقال : يحتمل أن الله يغفر لهم بلا واسطة يوم الجمعة ، بينما فى غيرها يهب قومًا لقوم . والله تعالى أعلم .

والحديث الذى يتحدث عن أفضلية الحج يوم الجمعة بسبعين حجة هو حديث ضعيف .

○○○

تمني الموت بالحرمين

السـؤال : هل من الجائز أن يطلب العبدُ من ربه الموت فى الحرمين ؟

الجواب : لا بأس فى أن يطلب الإنسان الموت فى أحد الحرمين : الحرم المكى والحرم المدنى .. مع حسن صلته بربه : بامتثال أمره ، واجتناب نهيه ، لما رواه البخارى عن حفصة أم المؤمنين : أن عمر رضى الله تعالى عنه قال : « اللهم ارزقنى شهادة فى سبيلك ، واجعل موتى فى بلد رسولك صلى الله عليه وسلم » فقلت : أنىَّ هذا ؟ فقال : « يأتينى به الله إن شاء الله » .

○○○

الحج عن الغير

السؤال : **هل يجوز الحج عن الغير ؟**

الجواب : جاءت امرأة إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقالت : إن أمى ماتت ولم تحج ، أفأحج عنها ؟ قال : « نعم حجى عنها »(١) .

كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لرجل سمعه يقول : لبيك عن شبرمة – قريب له – فقال صلى الله عليه وسلم : « أحججت عن نفسك ؟ » قال : لا ، قال : « حج عن نفسك ، ثم حج عن شبرمة »(٢) .

○○○

(١) روى البخارى [١٨٥٢] عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما قال : إن امرأة من جهينة جاءت إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقالت : إن أمى نذرت أن تحج فلم تحج حتى ماتت أفأحج عنها ؟ قال : « نعم ، حجى عنها ، أرأيت لو كان على أمك دين أكنت قاضيته ؟ اقضوا الله فالله أحق بالوفاء » .

وروى البخارى [١٥١٣] ومسلم [٤٠٧/١٣٣٤] عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما قال : كان الفضل بن عباس رضى الله تعالى عنهما رديف رسول الله صلى الله عليه وسلم فجاءت امرأة من خثعم ، فجعل الفضل ينظر إليها وتنظر إليه وجعل النبى صلى الله عليه وسلم يصرف وجه الفضل إلى الشق الآخر ، فقالت : يا رسول الله إن فريضة الله على عباده فى الحج أدركت أبى شيخًا كبيرًا لا يثبت على الراحلة ، أفأحج عنه ؟ قال : « نعم » وذلك فى حجة الوداع .

(٢) روى أبو داود [١٨١١] ، وابن ماجه [٢٩٠٣] وابن حبان فى صحيحه [٣٩٨٨] عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أن النبى صلى الله عليه وسلم سمع رجلًا يقول : لبيك عن شبرمة ؛ قال : « من شبرمة ؟ » قال : أخ لى – أو قريب لى – ؛ فقال : « أحججت عن نفسك » ؟ فقال : لا . قال : « حج عن نفسك ثم حج عن شبرمة » . وقال الأرناؤوط : صحيح على شرط مسلم .

الحج .. والنية

السؤال : **ما حكم من تقدم لأداء فريضة الحج ولم يخرج اسمه فى القرعة ثم مات ؟**

الجواب : مجرد تقديمك الطلب إن خرج اسمك فى القرعة أو لم يخرج تكون قد أخذت ثواب الحج فى هذه السنة فى هذه الحالة ؛ لأن الأعمال بالنية ، فإن عاش فعليه أن يكرر الطلب كل عام لتبرأ ذمته أمام الله .. وفى هذه الحالة يكون قد خرج مما ولايته فيه على نفسه إلى ما الولاية فيه لولى الأمر(١) .

(١) روى البخارى [٥٤] ومسلم [١٥٥/١٩٠٧] عن عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرئ ما نوى فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها ، أو امرأة ينكحها ، فهجرته إلى ما هاجر إليه » .

وروى عن الإمام الشافعى رضى الله تعالى عنه : هذا الحديث ثلث العلم ويدخل فى سبعين بابًا من الفقه .

وعن الإمام أحمد رضى الله تعالى عنه قال : أصول الإسلام على ثلاثة أحاديث : حديث عمر : « إنما الأعمال بالنيات » ، وحديث عائشة : « من أحدث فى أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد » ، وحديث النعمان بن بشير : « الحلال بين والحرام بين » .

وقد اختلفوا فى تقدير قوله : « الأعمال بالنيات » : فكثير من المتأخرين يزعم أن تقديره : الأعمال صحيحة أو معتبرة ومقبولة بالنيات ، وعلى هذا .. فالأعمال إنما أريد بها الأعمال الشرعية المفتقرة إلى النية ، فأما ما لا يفتقر إلى نية كالعادات من الأكل والشرب واللبس وغيرها ، أو مثل رد الأمانات والمضمونات كالودائع والغصوب ، فلا يحتاج شيء من ذلك إلى نية ، فيخص هذا كله من عموم الأعمال المذكورة ههنا .

وقال آخرون : بل الأعمال ههنا على عمومها ، لا يختص منها شيء ، وحكاه بعضهم عن الجمهور ، كأنه يريد به جمهور المتقدمين . وقد وقع ذلك فى كلام ابن جرير الطبرى ، وأبى طالب المكى ، وغيرهما من المتقدمين ، وهو ظاهر كلام الإمام أحمد ، قال فى رواية حنبل : أُحب لكل من عمل عملًا من صلاة أو صيام أو صدقة ، أو نوع من أنواع البر ، أن تكون النية =

متقدمة في ذلك قبل الفعل ، قال النبي صلى الله عليه وسلم : « الأعمال بالنيات » ، فهذا يأتي على كل أمر من الأمور .

وقال الفضل بن زياد : سألت أبا عبد الله ، يعني أحمد عن النية في العمل ، قلت : كيف النية ؟ قال : يعالج نفسه ، إذا أراد عملًا لا يريد به الناس .

وقال أحمد بن داود الحربي : حدث يزيد بن هارون بحديث عمر : « الأعمال بالنيات » وأحمد جالس ؛ فقال أحمد ليزيد : « يا أبا خالد هذا الخناق » .

وعلى هذا القول ، فقيل تقدير الكلام : الأعمال واقعة أو حاصلة بالنيات ، فيكون إخبارًا عن الأعمال الاختيارية أنها لا تقع إلا عن قصد من العامل هو سبب عملها ووجودها ، ويكون قوله بعد ذلك : « وإنما لكل امرئ ما نوى » إخبارًا عن حكم الشرع ، وهو أن حظ العامل من عمله نيته ، فإن كانت صالحة فعمله صالح فله أجره ، وإن كانت فاسدة ، فعمله فاسد فعليه وزره .

ويحتمل أن يكون التقدير في قوله : « الأعمال بالنيات » صالحة أو فاسدة ، أو مقبولة أو مردودة ، أو مثابًا عليها أو غير مثاب عليها بالنيات ، فيكون خبرًا عن الحكم الشرعي : هو أن صلاحها وفسادها بحسب صلاح النية وفسادها ، كقوله صلى الله عليه وسلم : « إنما الأعمال بالخواتيم »[1] أي : أن صلاحها وفسادها وقبولها وعدمها بحسب الخاتمة . وقوله بعد ذلك : « وإنما لكل امرئ ما نوى » إخبار أنه لا يحصل له من عمله إلا ما نواه به ، فإن نوى خيرًا حصل له خير ، وإن نوى شرا حصل له شر . وليس هذا تكريرًا محضًا للجملة الأولى ، فإن الجملة الأولى دلّت على أن صلاح العمل وفساده بحسب النية المقتضية لإيجاده ، والجملة الثانية دلّت على أن ثواب العامل على عمله بحسب نيته الصالحة ، وأن عقابه عليه بحسب النية الفاسدة .

وقد تكون نيته مباحة فيكون العمل مباحًا ، فلا يحصل له ثواب ولا عقاب ، فالعمل في نفسه : صلاحه وفساده وإباحته بحسب نيته – الحاملة عليه ، المقتضية لوجوده ، وثواب العامل وعقابه وسلامته بحسب النية – التي صار بها العمل صالحًا أو فاسدًا أو مباحًا . واعلم : أن النية في اللغة نوع من القصد والإرادة ، وإن كان قد فرّق بين هذه الألفاظ بما ليس هذا موضع ذكره .

والنية في كلام العلماء تقع بمعنيين :

المعنى الأول : بمعنى تمييز العبادات بعضها عن بعض ، – كتمييز صلاة الظهر من صلاة العصر مثلًا ، وتمييز صيام رمضان من صيام غيره ، أو تمييز العبادات من العادات – كتمييز الغسل من الجنابة من غسل التبرد والتنظف ونحو ذلك . وهذه النية هي التي توجد كثيرًا في كلام الفقهاء في كتبهم .

(1) جزء من حديث رواه البخاري [٦٦٠٧] عن سهل رضي الله تعالى عنه .

والمعنى الثاني : بمعنى تمييز المقصود بالعمل ، وهل هو لله وحده لا شريك له ، أم لله وغيره ؟ وهذه هي النية التي يتكلم فيها العارفون في كتبهم على الإخلاص وتوابعه وهي التي توجد كثيرًا في كلام السلف المتقدمين .

وقد صنّف أبو بكر بن أبي الدنيا مصنفًا سماه : « كتاب الإخلاص والنية » ، وإنما أراد هذه النية وهي النية التي يتكرر ذكرها في كلام النبي ﷺ : تارة بلفظ النية وتارة بلفظ الإرادة ، وتارة بلفظ مقارب لذلك ، وقد جاء ذكرها كثيرًا في كتاب الله عز وجل بغير لفظ النية أيضًا من الألفاظ المقاربة لها .

وإنما فرّق من فرّق بين النية والإرادة والقصد ونحوهما ، لظنهم : اختصاص النية بالمعنى الأول الذي يذكره الفقهاء . فمنهم من قال : النية تختص بفعل الناوي والإرادة لا تختص بذلك ، كما يريد الإنسان من الله أن يغفر له ولا ينوي ذلك .

جامع العلوم والحكم [ص : ١٩-٢١] .

○○○

السـؤال : لماذا نحـــج ؟

الجواب : أولًا : نحج لأن الله أمر به ، وجعله ركنًا من أركان الإسلام على المستطيعين له ، ثم أسوة برسول الله صلى الله عليه وسلم الذى حج وقال : « خذوا عنى مناسككم »[1] .

حين سن الله الاعتكاف لرسوله صلى الله عليه وسلم أن يأخذنا فى آخر رمضان إلى اعتكاف فى المسجد تاركين الأهل والأولاد والأموال والأعمال فإنه ارتقاء للتصعيد التكليفى ، لأن إلف المكان وإلف السكان وإلف الأهل يعمل فى النفس البشرية بعض العوائق عن الله ، فيخرجنا هذا المخرج لنجرب الصفاء الذى يتأتى لنا ونتعود أن نترك الأهل بعض الوقت لأنه يريد أن يعدّنا لرحلة أخرى هذه الرحلة تعتبر الركن الخامس من أركان الإسلام لأنه بعد وقت معين سنترك كل شىء ، ونذهب إلى الحج فنُغطى شيئًا من إلف الترك للأهل والمال والبيت . فعندما يذهب الإنسان للحج يكون قد استكمل أركان إسلامه ، ويصبح البيت الذى يتجه إليه بقلب يؤمن به عن يقين ، أصبح يراه عين اليقين فيرى بيت ربه الذى كان يتجه إليه ثم يطوف به ويؤدى المناسك فيعيش بعد علم اليقين بيت الله فى حقيقة اليقين ببيت الله ، حينئذ يكتمل إيمانه فالأركان والأسس التى يبنى عليها الإسلام قد تمت له ، وبقى أن يكمل بنية الإسلام لأن الأركان ثابتة وبنية الإسلام التى توضع على هذه الأركان هى كل حركة فى الحياة .

○○○

(١) رواه البيهقى فى الكبرى [١٣٠٧] عن جابر رضى الله تعالى عنه .

السـؤال : ما ثواب الحج المبرور ؟

الجواب : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة »[1] .

فعندما يتوجه الإنسان لأداء فريضة الحج ، فإنه يترك بيته وأهله وماله متوجهًا إلى بيت الله الحرام ، ملبيًا دعوة الله ، وترى الحاج حين يحرم ويحج لا يخطر بباله شىء من أمور الدنيا ، فإذا ما انتهى من أعمال الحج ، تشوق إلى أهله ووطنه ، وتلك حكمة أخرى ؛ لأنه لو لم يتشوق للعودة إلى الأهل والوطن ، لضاق المكان بالمحبين .

وكون الحاج يخرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه ، هذا يعنى الذنوب التى بينه وبين ربه ، أما الذنوب التى بينه وبين العباد ، فلابد أن تؤدى قبل الحج ، ولذلك نجد من دقة التكليف أن المدين لا يصح أن يحج إلا إذا استأذن صاحب الدين ، أو كفيله ، فإن كان عنده وفاء للدين فى بلده وفّى به ، وإن لم يكن عنده وفاء أوصى بالوفاء من تركته .

ولا يصح أن نقول : إن الجزاء أكبر من العمل ؛ لأن تناسب الصفقات لا يجوز أن يلاحظ إلا بين المتساويين ، يعنى إلا إن كانت الصفقة معقودة بين متساويين ، إنما حين نقيس الصفقة المعقودة بين الله سبحانه وتعالى وبين عباده ، فلا يصح أن نقول : الجزاء أكبر من العمل ؛ لأن الله هو الذى حدد العمل ، وحدد الجزاء .

ولنفرض أن إنسانًا زرع وردًا جميلاً ، ثم قدم وردة للملك ، فأعطاه ألف دينار ، هل نقول : إن الملك أعطاه أكثر من ثمن الوردة ؟ لا نقول هذا .

○○○

(١) رواه أحمد فى المسند [٢٤٦/٢] عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه وقال الأرناؤوط : إسناده صحيح .

الطواف حول بيت الله

السؤال : المستشرقون وأعداء الإسلام يقولون : إن الإسلام حرم الوثنية ، وبالرغم من ذلك فالمسلمون أنفسهم يطوفون حول الكعبة ، فكيف يمكن الرد عليهم ؟

الجواب : إذا كان المرجفون في دين الله والمحجوبون عن فقه التكاليف فضلاً عن أسرارها - يتشدقون بأن الإسلام قد أبقى على مظاهر الوثنية حين أمر بتعظيم البيت طوافًا حوله ، وحين كلف بتعظيم الحجر استلامًا له : إذا كان ذلك - فإن هؤلاء وهؤلاء يهرفون بما لا يعرفون ويغارون غيرة دعائية على الإخلاص لعبادة إله لم يؤمنوا به ولم يفقهوا عنه ، ولقد فرق الفاروق عمر بن الخطاب رضى الله عنه بين حق من الله وباطل من أعدائه ، فقال مخاطبًا الحجر : « أني لأعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع ، ولولا أني رأيت رسول الله يقبلك ما قبلتك »(1) . وبهذا أعلن رضى الله تعالى عنه فصل الخطاب

(1) روى البخارى [١٥٩٧] ومسلم [١٢٧٠/٤٨] عن عمر رضى الله تعالى عنه : أنه جاء إلى الحجر الأسود فقبله ، فقال : إنى أعلم أنك حجر ، لا تضر ولا تنفع ، ولولا أنى رأيت النبى صلى الله عليه وسلم يقبلك ما قبلتك .

قال الحافظ فى الفتح ؛ قوله : « لا تضر ولا تنفع » أى : إلا بإذن الله ، وقد روى الحاكم من حديث أبى سعيد أن عمر لما قال هذا قال له على بن أبى طالب : إنه يضر وينفع ، وذكر أن الله لما أخذ المواثيق على ولد آدم كتب ذلك فى رق وألقمه الحجر ، قال : وقد سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « يؤتى يوم القيامة بالحجر الأسود وله لسان ذلق يشهد لمن استلمه بالتوحيد » وفى إسناده أبو هارون العبدى وهو ضعيف جدًا .

وقد روى النسائى من وجه آخر ما يشعر بأن عمر رفع قوله ذلك إلى النبى صلى الله عليه وسلم أخرجه من طريق طاووس عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما قال : « رأيت عمر قبل الحجر ثلاثا ثم قال : إنك حجر لا تضر ولا تنفع ، ولولا أنى رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم قبلك ما قبلتك » ثم قال : « رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فعل مثل ذلك » . =

= قال الطبرى : إنما قال ذلك عمر لأن الناس كانوا حديثى عهد بعبادة الأصنام فخشى عمر أن يظن الجهال أن استلام الحجر من باب تعظيم بعض الأحجار كما كانت العرب تفعل فى الجاهلية فأراد عمر أن يعلم الناس أن استلامه اتباع لفعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لا لأن الحجر ينفع ويضر بذاته كما كانت الجاهلية تعتقده فى الأوثان .

وقال المهلب : حديث عمر هذا يرد على من قال : إن الحجر يمين الله فى الأرض يصافح بها عباده ، ومعاذ الله أن يكون لله جارحة ، وإنما شرع تقبيله اختبارا ليعلم بالمشاهدة طاعة من يطيع وذلك شبيه بقصة إبليس حيث أمر بالسجود لآدم .

وقال الخطابى : معنى أنه يمين الله فى الأرض أن من صافحه فى الأرض كان له عند الله عهد ، وجرت العادة بأن العهد يعقده الملك بالمصافحة لمن يريد موالاته والاختصاص به فخاطبهم بما يعهدونه .

وقال المحب الطبرى : معناه أن كل ملك إذا قدم عليه الوافد قبل يمينه ، فلما كان الحاج أول ما يقدم يسن له تقبيله نزل منزلة يمين الملك ولله المثل الأعلى .

وفى قول عمر هذا : التسليم للشارع فى أمور الدين وحسن الاتباع فيما لم يكشف عن معانيها وهو قاعدة عظيمة فى اتباع النبى صلى الله عليه وسلم فيما يفعله ، ولو لم يعلم الحكمة فيه ، وفيه دفع ما وقع لبعض الجهال من أن فى الحجر الأسود خاصة ترجع إلى ذاته ، وفيه بيان السنن بالقول والفعل ، وأن الإمام إذا خشى على أحد من فعله فساد اعتقاده أن يبادر إلى بيان الأمر ويوضح ذلك .

قال شيخنا فى « شرح الترمذى » : فيه كراهة تقبيل ما لم يرد الشرع بتقبيله ، وأما قول الشافعى ومهما قبل من البيت فحسن فلم يرد به الاستحباب ؛ لأن المباح من جملة الحسن عند الأصوليين .

« تكميل » : اعترض بعض الملحدين على الحديث الماضى فقال : كيف سودته خطايا المشركين ولم تبيضه طاعات أهل التوحيد ؟

وأجيب بما قال ابن قتيبة : لو شاء الله لكان ذلك ، وإنما أجرى الله العادة بأن السواد يصبغ ، ولا ينصبغ على العكس من البياض .

وقال المحب الطبرى : فى بقائه أسود عبرة لمن له بصيرة ، فإن الخطايا إذا أثرت فى الحجر الصلد فتأثيرها فى القلب أشد .

قال : وروى عن ابن عباس رضى الله تعالى عنه إنما غيره بالسواد لئلا ينظر أهل الدنيا إلى زينة الجنة ، فإن ثبت فهذا هو الجواب .

قلت : أخرجه الحميدى فى فضائل مكة بإسناد ضعيف . والله أعلم .

وأبان وجه التكليف بلا إسراف ودون تزييف ، وكأنى بعمر رضى الله تعالى عنه ينفى عن الحجر أن ينفع بذاته وهذا لا يمنع أن يشهد الحجر لمن استلمه عند من يملك وحده النفع والضر .

○○○

حجوا قبل ألَّا تحجوا

السـؤال : ما المقصود بقوله صلى الله عليه وسلم :

« حجوا قبل أن لا تحجوا »[1] ؟

الجواب : هذا القول - على فرض صحته - يعنى : أنه إذا تيسرت ظروفك ، وكان باستطاعتك الحج فى وقت معين فى حياتك ، فانتهز هذه الفرصة بسرعة ، وأد هذا الفرض ، فربما يأتى وقت آخر لا تستطيع فيه أن تحج .

وكذلك أيضًا بالنسبة للصلاة ، فمطلوب فيها أن تؤدى فى أول وقتها وذلك لأنه من الذى يضمن لنا أن نعيش إلى آخر الوقت ؟ صحيح أنه لو أبقى الله حياتنا إلى آخر الوقت فلا إثم علينا ، فالقادر المستطيع الذى لم يحج نقول له : إنك حتى هذا الوقت غير آثم ، ولكن إذا توفاك الله تكون آثمًا .

كذلك الصلاة ، إذا مات الفرد قبل أدائها مع حلول وقتها : يكون آثمًا لأنه أخَّر الأداء عن أول الوقت .

○○○

(١) رواه الحاكم فى المستدرك [١/٦١٧/١٦٤٦] وقال الذهبى : حصين واه ويحيى الحمامى ليس بعمدة .

السؤال : ما معنى المزدلفة ؟

الجواب : عندما تمثل الشيطان لإبراهيم رجمه بالحصى سبعًا فى المرة الأولى ، ثم عاوده مرة أخرى فرجمه سبعًا ، وجاءه فى الثالثة فرجمه سبعًا ، بعدها لم يأت له ثانية ، فجرى إبراهيم الخطى مخافة أن يلاحقه ، ولذلك سُمى المكان بالمزدلفة ، والمزدلف هو المسرع ، ويسمى « ذا المجاز » أى أنه اجتاز المزدلفة ، ويكون قد عرف المسألة عند عرفة [1].

○○○

(1) والمزدلفة هى : موضع بمكة يُتَقرَّب إلى الله فيها ، وسميت المزدلفة من الازدلاف وهو الاجتماع ؛ لاجتماع الناس بها . ا.هـ .

السؤال : ما موقف السيدة هاجر عندما تركها زوجها وطفلها الرضيع سيدنا إسماعيل ؟ وكيف جازاها الله على صبرها وابتلائها ؟

الجواب : لما كانت عندها حُجة على صدقها فى قولها : « إذن لن يضيعنا » ويريد الحق أن ينتهى سعيها سبع مرات بلا نتيجة ، وتعود إلى وليدها ؛ فتجد الماء عند قدم الوليد ، وهكذا صدقت هاجر فى يقينها ، عندما وثقت أن الله لن يضيعها ، وأراد الله أن يقول لها : نعم لن أضيعك ، وليس بسعيك ؛ ولكن بقدم طفلك الرضيع ؛ يضرب بها الأرض ، فينبع منها الماء . وضرب الوليد للأرض بقدمه سبب غير فاعل فى العادة ؛ لكن الله أراده سببًا حتى يستبقى السببية ولو لم تؤد إلى الغرض فى العادة .

وحين وجدت هاجر الماء عند قدم رضيعها أيقنت حقًّا أن الله لم يضيعها . وظل السعى شعيرة من شعائر الحج والعمرة إلى بيت الله الحرام ، استدامة لإيمان المرء بالمسبب وعدم إهماله للسبب ، وحتى يقبل الإنسان على كل عمل وهو يؤمن بالمسبب . ولذلك يجب أن نفرق بين التوكل والتواكل .

إن التوكل عمل قلب وليس عمل جوارح ، والتواكل تعطيل عمل جوارح . ليس فى الإسلام تواكل ، إنما الجوارح تعمل والقلوب تتوكل . هكذا كان توكل هاجر ، لقد عملت وتوكلت على الله ، فرزقها الله ما تريد بأهون الأسباب ، وهى ضربة قدم الوليد للأرض وبقيت تلك المسألة شعيرة من شعائر الحج والعمرة وهى سبعة أشواط بين الصفا والمروة .

وعندما غفل الناس عن عبادة الله ، ودخلت عبادة الأصنام الجزيرة العربية ، أوجدوا على جبل الصفا صنمًا أسموه « إسافا » وعلى المروة صنمًا أسموه « نائلة » . وكانوا يترددون بين إساف ونائلة ، لا بين الصفا والمروة ، لقد نقلوا العبادة من خالصية التوحيد إلى شائبية الوثنية .

فلما جاء الإسلام أراد الله ألا يتوجه المسلمون فى صلاتهم إلى البيت الحرام إلا بعد أن يطهر البيت ويجعله خالصًا لله ، فلما ذهب بعض المؤمنين إلى الكعبة تحرجوا أن يسعوا بين الصفا والمروة ؛ لأن « إسافا » و « نائلة » فوق الجبلين ، فكأنهم أرادوا أن يقطعوا كل صلتهم بعادات الجاهلية ، واستكبر إيمانهم أن يترددوا بين « إساف » و « نائلة » فأنزل الله قوله الحق : ﴿ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة : ١٥٨] ، أى لا تتحرجوا من هذا الأمر ؛ لأنكم ستسعون بين الصفا والمروة ؛ لا بين إساف ونائلة كما كان يفعل المشركون الوثنيون ، إذن فالعمل هنا كان بالنية .

لقد كانت نية السعى الأولى عند هاجر هى الإيمان بالله والأخذ بالأسباب ، لكن الوثنية قلبت قمة الإيمان إلى حضيض الشرك ، وكان لابد أن يستعيد المسلمون نية الإيمان الأولى عند زيارة البيت المحرم بالسعى بين الصفا والمروة ، فنحن فى الإسلام نخضع لأمر الآمر ، قال لنا : « قبلوا الحجر الأسود » ، وفى الوقت نفسه أمرنا أن نرجم الحجر الذى يرمز إلى إبليس ، هكذا تكون العبرة بالنية ، وليس بشكل العمل ، وتكون العبرة فى إطاعة أمر الله . وكأن الحق بهذه الآية يقول للمؤمنين : إن المشركين عبدوا « إسافا » و« نائلة » ، لكن أنتم اطرحوا المسألة من بالكم ، واذهبوا إلى الصفا والمروة ، فالصفا والمروة من شعائر الله ، وليستا من شعائر الوثنية ، ولكن ضلال المشركين هو الذى خلع عليهما الوثنية فى إساف وفى نائلة . لقد أراد الوثنيون بوضع « إساف » على الصفا « ونائلة » على المروة أن يأخذوا صفة التقديس للأوثان ، فلولا أن الصفا والمروة من المقدسات سابقًا لما وضعوا عليهما أحجارهم ، ولَمَّا جاءوا بأصنامهم ليضعوها على الكعبة ، هذا دليل على أن قداسة هذه الأماكن أسبق من أصنامهم ، لقد حموا وثنيتهم بوضع « إساف » و« نائلة » على الصفا والمروة .

وبعد أن بين الحق للمؤمنين أن الصفا والمروة من شعائر الله ، ينبه على أن المكين – ساكن المكان – لا ينجس المكان ، بدليل أن الإيمان عندما كُتِبَتْ له الغلبة ، كسر الأصنام وأزالها من الكعبة وأصبح البيت طاهرًا ، وعندما كان المؤمنون يتحرجون أن يفعلوا فعلاً من

أفعال الجاهلية طمأنهم الحق سبحانه وتعالى ، وقال لهم : ﴿ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ ﴾ .

وكلمة « صفا » معناها الحجر الأملس ، وأصبح كذلك من كثرة الملامسين له على مرّ الزمان ، وقيل : إن الصفا منسوبة إلى اصطفاء آدم ، وقيل : إن المروة منسوبة إلى المرأة التى هى حواء ، لكنه كلام يقال ولا نتوقف عنده كثيرًا ، لأن علمه لا ينفع وجهله لا يضر ، فالمهم بالنسبة لنا أنه مكان ترددت بينه هاجر وهى تطلب الماء لابنها ، إن الحق جعل السعى بينهما من شعائر الله ، والشعائر هى معالم العبادة ، وتطلق دائمًا على المعالم المكانية ، ويقال : هذا مطاف ، وهذا مسعى ، وهذا مرمى الجمرات ، وهذا المشعر الحرام .

إن كلمة « المشعر » تعنى المكان الذى له عبادة مخصوصة ، وبما أن الصفا والمروة مكانان فقد جاء وصفهما بأنهما ﴿ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ ﴾ [البقرة : ١٥٨] ﴿ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ﴾ كأن الحج والعمرة لهما شىء يجعلهما فى مقام الفرضية ، ولهما شىء آخر يجعلهما فى مقام التطوع ، فإن أدى المسلم الحج والعمرة مرة يكون قد أدى الفرض ، وهذا لا يمنع أن تكرار الحج والعمرة هو تطوع مقبول بإذن الله .

وساعة نقول : « لا جناح عليك أن تفعل كذا » فمعنى ذلك أنك إن فعلت فلا إثم عليك ، لكن ليس خطأ فى أن تفعل ، وليس فرضًا فى أن تفعل ، وهذا ما جعل بعض الناس يقولون : إن السعى بين الصفا والمروة ليس ركنًا من أركان الحج ، ونقول لهؤلاء : هذه آية جاءت لسبب ، وهو أنهم كانوا يتحرجون من الطواف فى مكان يطوف فيه المشركون فقال لهم : ﴿ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ﴾ .

إن نفى الجناح لا يعنى أنك إن لم تفعل يصح ، لا ، إنه سبحانه يرد على حالة كانوا يتحرجون منها ، وقوله تعالى : ﴿ يَطَّوَّفَ بِهِمَا ﴾ يستدعى منا وقفة ، إن الحاج أو المعتمر يسعى بين الصفا والمروة ، فلماذا وصف الحق هذا السعى بـ : ﴿ يَطَّوَّفَ بِهِمَا ﴾ ؟

لكى نعرف ذلك لابد أن نوضح معنى « طاف » و« جال » و« دار » . إن « طاف » تعنى : « دار حول الشىء » ، فما الدورة التى بين الصفا والمروة حتى يسميها الحق طوافًا ؟ إن الدائر حول الدائرة يبدأ من أى نقطة منها كبداية ، لتكون تلك النقطة نهاية ، فكل طواف حول دائرة تجد فيه أن كل بداية فيها تعتبر نهاية ، وكل نهاية تعتبر بداية ، وأى حركة من وإلى شىء واحد يصنع دائرة .

وصحيح أن من يسعى بين الصفا والمروة لا يدور ، ولكنه سيذهب من الصفا إلى المروة ، ثم ينقلب عائدًا إلى الصفا ، ثم منها إلى المروة ، وهكذا يصير الأمر طوافًا ، ومثال آخر من حياتنا اليومية ، إن الشرطى الذى يطوف لحراسة الشوارع والمنازل بالليل ، قد يلف المدينة كلها ، ويمكن أن يلف شارعًا واحدًا هو مكان حراسته ، هذا الدوران فى الشارع من أوله إلى آخره عدة مرات يسمى طوافًا بينهما ، وهكذا نفهم معنى ﴿ يَطَّوَّفَ بِهِمَا ﴾ ، أى يمشى بينهما عدة مرات من بداية هى نهاية .

وهكذا نجد أن السعى بين الصفا والمروة هو جزء من شعائر الحج والعمرة . ونجد أن الفرضية فى الحج والعمرة أساس ، والتطوع بتكرار الحج والعمرة هو خير . ﴿ وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة : ١٥٨] .

وهذا القول يقتضى أن نفهم أن الشاكر أصابته نعمة من المشكور .

٥٥٥

عرفة وسر التسمية

السـؤال : لماذا سميت عرفة بهذا الاسم ؟

الجواب : لقد رأى إبراهيم عليه السلام فى الرؤيا أنه يذبح ابنه إسماعيل ، وهى مسألة شاقة على النفس ؛ لأنه ابنه الوحيد ولأنه سيذبحه بيده .

وجلس إبراهيم فى هذا المكان يدير فكره ويتروى ، ولذلك سمى اليوم الذى قبل عرفة يوم « التروية » .

وفى اليوم التالى تأكد أن الرؤيا حق .. وعرف أنه لابد أن يذبح ابنه ، فسمى المكان الذى عرف فيه حقيقة الرؤيا « عرفة » .

أو أن جبريل كان يعلم إبراهيم عليه السلام مناسك الحج فى هذا المكان .. ويقول له عرفت ؟ فيرد إبراهيم عرفت .

وقد يكون بمعنى أن الإنسان يعرف فيها سعة رحمة ربه ، فيأتى إلى هذا المكان وكل واحد يعرف ذنبه ويستغفر الله فى ذل وخضوع .

وعلى كل حال فإن اختلاف المعانى ، واختلاف الملابسات التى أدت إلى هذه التسمية بيوم عرفة أو يوم التروية .. لا تعارض بينها ، والله تعالى أعلم .

٥٥٥

السـؤال : ما المقصود بقول الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم : « إن الله يُهبط فى الحرم – الكعبة – مائة وعشرين رحمة ؟

الجواب : الحق سبحانه وتعالى يريد بنا اليسر .. وكل من فى الحرم له ثوابه .. ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إن الله تعالى ينزل فى كل يوم وليلة عشرين ومائة رحمة ينزل على هذا البيت ؛ ستون منها للطائفين ، وأربعون للمصلين ، وعشرون للناظرين »[1] .

إنك إذا جلست تنظر إلى الكعبة نزلت عليك الرحمة .. وأنت عندما ترى الكعبة وتنظر إليها تختفى كل همومك ولا يبقى فى بالك إلا الله سبحانه وتعالى .. ولو جلست ساعات أمام الكعبة فإن نظرك لا يتحول عنها .. ولا تستطيع أن تنزع نفسك منها ، ما دمت جالسًا أمامها .. وإذا أردت تفسيرًا لذلك فقد لا تصل إليه ؛ فإن فى النفس البشرية ملكات لا يعرفها إلا الله سبحانه وتعالى .

○○○

(١) رواه الطبرانى فى المعجم الكبير [١١٤٧٥/١٥٦/١١] عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما .

السـؤال : ما المغزى من رجم الشيطان وهـو حجر نرميه بحجر ؟ وما علاقة الشيطان بهـذا الحجر ؟ وهل الشيطان موجود فيه ؟

الجواب : بعض العلماء يقولون إن الشياطين تحبس فى هذه الأحجار فى أيام منى .. ونحن نقول لهم سواء أكان هذا صحيحًا أم غير صحيح .. فإنه اختبار كما قلنا للإيمان فى القلب .. فعلّة الأسباب الإيمانية ليست فى أن نفهمها .. أو نعرف الحكمة منها .. ولكن علة الأشياء فى أن الله سبحانه وتعالى قد أمرنا بها .. إننا نقبّل حجرًا ونرجم حجرًا .. والسبب فى هذا أنك حين ترجم الشيطان لابد أن تعرف أنه لا يترك قضية إيمانية إلا حاول إفسادها ، وقد لاحق الشيطان سيدنا إبراهيم عليه السلام .. وكلما ردّه إبراهيم كان يعاوده مرة ثانية .. ونحن بالرجم نمتثل أمر الله أولاً ، ونحيى سنة أبينا إبراهيم عليه السلام الذى سمانا مسلمين من قبل وفاءً لمن وفىّ .. كما يقول الله تبارك وتعالى عنه فى كتابه الكريم : ﴿ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴾ [النجم : ٣٧] .

إننا حين نرجم إبليس فى الحج يجب أن يكون عزمنا هو ألا نطيعه بعد العودة وأن يكون شعورنا أننا تغلبنا عليه ، ويجب أن تستمر هذه الغلبة بعد الحج لأنه رغم دسه ووسوسته ليجعلنا لا نؤمن بالله .. سبحانه .. آمنا .. ورغم محاولته لأن يجعلنا نشرك بالله لم نشرك ، ثم أتينا إلى الحج فأدينا المناسك وازددنا فى الطاعة ..

إن الرجم هنا رمز لانتصارنا على الشيطان ، وهو يوم لعنة وخسران مبين للشياطين .. والشيطان ملعون من الله ومن الملائكة ومن المؤمنين ، لعنة الله غيب عنا ولكنها موجودة ومستمرة .. ولعنة الملائكة غيب عنا ولكنها موجودة ومستمرة . أما نحن فإننا نعلن لعنتنا للشيطان بطريقة مادية ، وهى الرجم فى منى ، فى هذا اليوم يُرى الشيطان فى أحقر وأذل حالاته .

إنه يوم الثأر والقصاص من الشيطان الذى وسوس لك ، إنه يوم الانتصار على أعدى أعدائك .. ويجب أن يظل عدوك اللدود .. وفى نفس الوقت أخذت الدرس فيما بقى من حياتك .. لا تدعه ولا تعطه الفرصة لكى ينتصر عليك مرة أخرى .. تقبل أوامر الله ونواهيه بعشق وارض بقضاء الله .. فإن فعلت أغلقت جميع منافذ الشيطان .. فلا يكون له عليك أى سلطان .. فليس أى ابتلاء من الله لك يعنى أنه غاضب عليك لأنك لا تدرى ماذا أخفى الله فى قضائه .. فلعله ابتلاك به لأنه يريد أن تزداد ثوابًا على الطاعة وتزداد أجرًا على عدم الوقوع فى المعصية أو ليرفع درجاتك والله سبحانه يعلم - وهو العليم - صدق توجهك ورضائك فى كل ما تأتى به المقادير ليجزيك عن الصدق والرضا أحسن الجزاء .

○○○

معلوم أن زيارة المسجد النبوى الشريف ليست من نسك الحج ، حتى نبين للناس الذين يقولون : « من لم يزر فكأنه لم يحج » إن هذا ليس بحديث نبوى ، ولكنه معنى نفسى .

الحاج يقول : كيف أذهب للحج ولا أزور حضرة النبى صلى الله عليه وسلم ؟! هذه مسألة غير مستساغة ، وإن كانت ليست من النسك .

وأنا فى رأيى أن الله سبحانه وتعالى قدر لرسوله صلى الله عليه وسلم أن يقيم بالمدينة ويقول لأهلها من الأنصار رضى الله تعالى عنهم : « المحيا محياكم والممات مماتكم » ، وهذا يعنى : سنموت هنا ونحيا هنا ، وحتى لا يظن ظان أن هذا الكلام يتعارض مع قول الله تعالى : ﴿ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ﴾ [لقمان : ٣٤] قال صلى الله عليه وسلم ذلك بعد ما قسم الغنائم ولم يعط الأنصار شيئا ، فاشتد على الأنصار ، فعل النبى صلى الله عليه وسلم فقال لهم : « أما ترضون أن يذهب الناس بالشاة وتذهبون أنتم برسول الله سالمًا ، لو سلك الأنصار شعبًا لسلكت شعب الأنصار ، المحيا محياكم والممات مماتكم »(١) .

(١) روى ابن حبان فى صحيحه [٤٧٦٠] عن عبد الله بن رباح قال : وفدت وفود إلى معاوية فى رمضان أنا فيهم وأبو هريرة ، وكان بعضنا يصنع للبعض الطعام ، وكان أبو هريرة يكثر أن يدعونا على رحله ، فقلت : لو صنعت طعامًا ثم دعوتهم إلى رحلى فأمرت بطعام فصنع ، ثم لقيت أبا هريرة من العشى فقلت : يا أبا هريرة الدعوة عندى الليلة . فقال : سبقتنى . قال : فدعوتهم إلى رحلى إذ قال أبو هريرة : ألا أحاملكم أو أحادثكم إنى أحدثكم بحديث من حديثكم يا معشر الأنصار حتى يدرك الطعام فذكر فتح مكة فقال : أقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم فدخل مكة فبعث الزبير على أحد الجنبتين ، وبعث خالد بن الوليد على اليسرى ، وبعث أبا عبيدة على الجسر فأخذوا الوادى ورسول الله صلى الله عليه وسلم فى كتيبته ، وقد بعث قريش أوباشا لها وأتباعا لها فقالوا : نقدم هؤلاء وإن كان لهم شىء كنا معهم وإن أصيبوا أعطينا ما سألوا ، فنظر رسول الله صلى الله عليه وسلم فرآنى فقال : يا أبا هريرة اهتف =

قوله صلى الله عليه وسلم : « المحيا محياكم والممات مماتكم » يعنى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلم بأن الموت سيكون فى المدينة ، ولكن كيف ذلك والله يقول : ﴿ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ﴾ [لقمان : ٣٤] ؟

أقول : خذ كلمة « ما تدرى » أى : دراية ذاتية إنما « أن تدرى » ، يدريها الذى يعرف ؛ ولذلك يقولون : فلان لا يعلم الغيب ، نقول : هو لا يعلم بذاته ، إنما يعلم الغيب من الله ، هذا أمر آخر قال تعالى : ﴿ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ ﴾ [الجن : ٢٦] إذن .. فالممنوع أن يعلم الإنسان الغيب بذاته .

= بالأنصار فلا يأتينى إلا أنصارى ، فهتف بهم فجاءوا فأحاطوا برسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أما ترون إلى أوباش قريش وأتباعهم » وضرب بيده اليمنى مما يلى الخنصر وسط اليسرى وقال : « احصدوهم حصدا حتى توافونى بالصفا » .
قال أبو هريرة : فانطلقنا فما يشاء أحد منا أن يقتل من شاء منهم إلا قتله وما يوجه أحد منهم إلينا شيئًا . فقال أبو سفيان : يا رسول الله أبيحت خضراء قريش ، لاقريش بعد اليوم . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من أغلق بابه فهو آمن ، ومن دخل دار أبى سفيان فهو آمن » فأغلقوا أبوابهم . وجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى استلم الحجر وطاف بالبيت وفى يده قوس وهو آخذ القوس ، وكان إلى جنب البيت صنم كانوا يعبدونه ، فجعل النبى صلى الله عليه وسلم يطعن فى جنبه بالقوس ويقول : جاء الحق وزهق الباطل ، فلما قضى طوافه أتى الصفا فعلا حيث ينظر إلى البيت فجعل صلى الله عليه وسلم يرفع يده ، وجعل يحمد الله ويذكر ما شاء أن يذكره والأنصار تحته . قال بعضهم لبعض : أما الرجل فقد أدركته رغبة فى قريته ورأفة بعشيرته ، ونزل الوحى على رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال أبو هريرة : وكان لا يخفى علينا إذا نزل الوحى ليس أحد منا ينظر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بل يطرق حتى ينقضى الوحى ، فلما قضى الوحى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يا معشر الأنصار قلتم أما الرجل فقد أدركته رغبة فى قريته ورأفة بعشيرته ؟ قالوا : قد قلنا ذاك يا رسول الله . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : كلا إنى عبد الله ورسوله هاجرت إلى الله وإليكم . المحيا محياكم والممات مماتكم فأقبلوا يبكون ويقولون : والله ما قلنا الذى قلنا إلا ضنا بالله وبرسوله قال : وإن الله ورسوله يصدقانكم ويعذرانكم »(١) .
قال أبو حاتم رضى الله تعالى عنه : فى هذا الخبر بيان واضح أن فتح مكة كان عنوة لا صلحا .

---

(١) قال الأرناؤوط : إسناده صحيح على شرط مسلم ، والحديث رواه مسلم [١٧٨٠/٨٤] .

وكأن الله اختار لرسوله صلى الله عليه وسلم أن يقيم هناك حتى لا تكون زيارته تبعًا لزيارة البيت ، بل الذى يذهب للزيارة تكون زيارة مستقلة ، ويقطع لها مسافة طويلة أربعمائة وخمسين كيلومترا .

إذن .. فالذى عنده حب يظل ذاهبًا إلى هناك ، فإذا ما ذهب إلى هناك ، طبعا معلوم إنه فى الحرم المكى له حدود ، وأيضًا الحرم المدنى له حدود ، لابد أن يفطن إليها حتى لا يقع فى مخالفات هناك ، فلا يصيد صيدًا ولا يهيج صيدًا ، ومعنى لا يهيجه ، أى : ينفره حتى يخرجه خارج الحرم ، حيلة لاصطياده .

ولا يقطع شجره ، ولو كان ذا شوك ، وهذا من الأدب ؛ لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم حرم المدينة كما حرم إبراهيم الخليل عليه السلام مكة (١) .

ورسول الله صلى الله عليه وسلم مفوض من ربه أن يشرع ، كل رسول استقبل الحكم من الله ، وليس له أن يشرع من عنده ، إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإن الله أمنه على أن يشرع لأمته ، قال الله تعالى : ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ﴾ [الحشر : ٧] فالنبى عليه الصلاة والسلام قال : « إبراهيم حرم هناك وأنا حرمت هنا » ونص الحديث على أن التحريم كان « بين لابتيها »(٢) .

لابتيها : يعنى : الحرتين ، اللابة : هى الحجارة السوداء ، واحدة ناحية الميقات فى أبيار على ، وواحدة ناحية سور هذه عير وهذه سور . هذا الحرم

فليلزم حدود الآداب التى لزمها فى حرم مكة ، يلزمها فى حرم المدينة .

---

(١) روى مسلم [١٣٦٠/٤٥٤] عن عبد الله بن زيد بن عاصم رضى الله تعالى عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن إبراهيم حرم مكة ودعا لأهلها ، وإنى حرمت المدينة كما حرم إبراهيم مكة ، وإنى دعوت فى صاعها ومدها بمثلى ما دعا به إبراهيم لأهل مكة » . وهو فى البخارى ومسلم فى أكثر من موضع بألفاظ متقاربة .

(٢) روى البخارى [٤٠٨٤] عن أنس بن مالك رضى الله تعالى عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم طلع له أُحُدٌ فقال : « هذا جبلٌ يحبنا ونحبه ، اللهم إن إبراهيم حرَّم مكة ، وإنى حرَّمتُ ما بين لابتيها » . ومسلم [١٣٦٥/٤٦٢] والترمذى [٣٩٢٢] .

لكن إذا ما دخل المسجد ، فيه خلاف عن دخول المسجد الحرام فالمسجد الحرام لأنك قادم لأداء نسك فلابد من الطواف أولًا ، ثم إن تحية المسجد الحرام الطواف . لكن المسجد النبوى لابد أن تحيى المسجد أولا بصلاة ركعتين ، ثم بعد ذلك تزور حضرة النبى صلى الله عليه وسلم ، والزيارة تكون بالأدب الخاشع ، استحضار عظمته ، استحضار مكانته عند الحق سبحانه وتعالى .. وبعد ذلك تسلم عليه ؛ لأن تشريع السلام على حضرة النبى صلى الله عليه وسلم وعلى صاحبيه رضى الله تعالى عنهما بل وعلى عموم الأموات من المسلمين إيذانًا بأن لهم دراية بالسلام ، أو شعورا بالسلام . وإلا لو لم يكونوا عندهم شعور بالسلام لكان التسليم عليهم عبث ، فهم فى حياة لا نعلم كنهها ، ولكنا أخبرنا عنها .

فعندما تقول مثلًا : « السلام عليكم ديار قوم مؤمنين ، أنتم السابقون وإنا إن شاء الله بكم للاحقون »[1]. فلو لم يكن للسلام عندهم استقبال انفعالى ، لكان التسليم عبثا . وحاشا لله أن يشرع رسول الله صلى الله عليه وسلم عبثًا .

وهذا هو رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أول غزوة غزاها فى بدر ، وقف على بئر ألقى فيه بقتلى المشركين « القليب » وقال : يا فلان ، يا فلان ، يا عتبة يا شيبة يا ... ، فقال له الصحابة : أتكلمهم وقد جيفوا - يعنى : أصبحوا جيفا - قال : « ما أنتم بأسمع منهم ولكنهم لا يجيبون »[2] .

الناس تفهم أن السماع لا يكون إلا بالأذن ؛ وأن الرؤية لا تكون إلا بالعين ، وتكون حياتهم كحياتنا !! لا .. لكل حياة قانون ، فحياتك هنا لها قانون ، وحياتك بعد موتك لها قانون .

---

(1) روى مسلم [١٠٢/٩٧٤] عن عائشة رضى الله تعالى عنها قالت :كان رسول الله صلى الله عليه وسلم كلما كانت ليلتها من رسول الله صلى الله عليه وسلم يخرج من آخر الليل إلى البقيع ، فيقول : « السلام عليكم دار قوم مؤمنين وأتاكم ما توعدون غدا مؤجلون ، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون » .

والنسائى [١٥٠] وأبو داود [٣٢٣٧] عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه . وصححه الألبانى .

(2) رواه البخارى [١٣٧٠] ومسلم [٢٦/٩٣٢] عن ابن عمر رضى الله تعالى عنهما ، وأحمد فى المسند [٢٨٧/٣] عن أنس رضى الله تعالى عنه .

وضربنا لذلك المثل فقلنا : « الحى له قانونين : قانون يقظة وقانون نوم ، قانونه فى النوم أشف وأخف من قانونه فى اليقظة ، يقول لك : أنا رأيت فى الرؤية فلان لابس أبيض فى أبيض وراكب حصان شكله كذا وصفته كذا ، وقال لى كذا .

كيف رأيت هذا وأنت نائم عينيك مغمضة ؟!

إذن .. فقد رأيت بغير عين وسمعت بغير أذن ، وأدركت بغير وسيلة إدراك . فهذا دليل على أن النوم له قانون . ومادام النوم له قانون فالموت أيضًا له قانون ليس كقانون الحياة . ومادام الموت له قانون أشف من قانون النوم ، والنوم له قانون أشف من قانون اليقظة ، إذن .. فالبعث له قانون أشف من قوانين الجميع .

إذن .. فخذ كل شيء بقوانينه ، وسلم على حضرة النبى صلى الله عليه وسلم بالسلام الذى يلهمك الله به ، ولكن بأدب ، بخشوع ، لا ترفع صوتك عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولابد أن تلحظ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يسره منك أن تضعه فى موضع أعلى من موضعه الذى وضعه الله تعالى فيه ، فإياك أن تغالى فيه كما غالت بعض الأمم الأخرى فى أنبيائهم ؛ لأن هذا لا يرضى حضرة النبى عليه الصلاة والسلام لكن تكلم عنده بأدب ، سلم عليه كأن تقول :

السلام عليك يا رسول الله ، يا رحمة الله للعالمين ، يا خاتم الأنبياء والمرسلين ، يا كذا يا كذا ، قل ما شئت من مكارم أخلاقه ، وما وصفه به رب العالمين فى القرآن الكريم ، أو صل عليه الصلاة التى اعتدت دائمًا أن تصليها عليه فى الصلاة ، فى التشهد وهى الصلاة الإبراهيمية .

وبعد ذلك تسلم أيضًا على صاحبيه : سيدنا أبى بكر رضى الله تعالى عنه ، وسيدنا عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه ، وتسلم عليه بلاغًا بسلام تحملت به من أحد الأهل أو الأقرباء والأصدقاء ، فإذا قيل لك حين تذهب إلى المدينة المنورة سلم على رسول الله ، فيمكنك مثلًا أن تقول : السلام عليك يا سيدى يا رسول الله عنى وعن فلان الذى كذا وكذا وعن كذا ..

وبعد ذلك صلِّ ركعتين فى الروضة الشريفة وهى بين المقام والمنبر ، ثم تسأل الله تعالى ما تشاء (1) .

واعلم أنك ساعة أن تقف أمام رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس معناه أنك ستحضر نفسك لتقول ؛ لأن هذا موقف أبلغ البلغاء حيث يقفه يكون أبكم ، لا يدرى ما يقول ، ولا يجد إلا أن يقول صلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وسلم ... اضطرب ، لماذا ؟

لأن المقام حين يهول الإنسان يقول : إن أساليبى لا تنهض بأن توفى حضرة النبى عليه الصلاة والسلام حقه ، ويقول : ماذا أقول للنبى عليه الصلاة والسلام ؟ فتقول لهذا : قل له كما علمك الله ، وصل عليه ، وصل عليه بتسليم ، وصل على آله ، وصل على إخوانه من الأنبياء ، وقف أمامه بأدب وبخشوع واستحضر مكانته عند ربه ومكانته عند الرسل ، وبعد ذلك فالذى يلهمك الله به قله .

الإنسان منا فى المسائل التى مثل هذه لا يقدر أن يحضر للموقف . ولكن الله سبحانه وتعالى هو الذى يكيف الفهم ويطلق الألسنة إلا أن الإنسان مطلوب منه الانضباط الأدبى مع سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم . فإذا انضبطت الانضباط الأدبى فمن العسير على من تحب أن تمشى وتتركه ، ولذلك فإنك تضع الصيغ التى تنصرف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بأدب المحبين ؛ أدب المحبين - مثلًا - كما علمنا العارفون : « اللهم أسألك أن تصلى وتسلم عليه وعلى آله ، وضاعف اللهم محبتنا فيه وعرفنا بحقه وقدره ، ووفقنا لاتباعه والقيام بآدابه وسنته ، واجعل صلاتنا عليه نورًا فائضًا ماحيًا عنا كل ظلمة وظلم ، وكل شك وشرك وإفك وغفلة ، واجعلها سببًا للوصول حتى لا تبقى فينا ربانية لغيرك ، وحتى نصلح لحضرتك ، ونكون من أهل خصوصيتك متمسكين من آدابه صلى الله عليه وسلم بالحبل المتين ، مستمدين منك يا ربنا ومن حضرتك العلية كل توفيق فى أمور الدنيا وفى أمور الدين » .

---

(1) روى البخارى [1196] عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « ما بين بيتى ومنبرى روضة من رياض الجنة » ، ومسلم [1391/502] والترمذى [3916] .

فإذا ما أردت أن تنصرف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وصاحبيه ، فتعلم أدب الانصراف من سيدنا الإمام على رضى الله تعالى عنه وكرم الله وجهه ، حين وقف وقال : « السلام عليك يا سيدى يارسول الله عنى وعن ابنتك النازلة فى جوارك ، والسريعة اللحاق بك ... إلى أن قال : والسلام عليكم ، سلام مودع لا قال ولا سئم ، فإن تنصرف فلا عن ملالة ، وإن نقم فلا عن سوء ظن بما وعد الله به عباده الصابرين » .

قيل الله حج من حج ، ويسر وأعان بمنه ورحمته من لم تمكنه الاستطاعة من الحج إلى أن يحج ، والمؤمن غير الحاج يستطيع أن يجعل تقبلاته لفيوضات الحق على أهل الحجيج أن تهب عليه ؛ لأن أجهزة الاستقبال الإيمانية ، تستطيع إن صفت واستحضرت مواقف الحجيج عند الله ، أن يهب عليها من الرحمات ما عند الله .

ألم يقل الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ ﴾ [يوسف : 94] .

ألم يقل رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو فى المدينة أثناء غزوة مؤتة ، ومؤتة بعيدة جدا : « أخذ الراية فلان فقاتل وقتل ، وأخذ الراية فلان فقاتل وقتل » من الذى أعلمه ؟ إنها هبات الصفاء فى الإرسال من هناك ، وفى الاستقبال من هنا .

وسيدنا عمر رضى الله تعالى عنه أيضًا حين قال : « يا سارية الجبل » فإن الإرسال من هناك والاستقبال من هنا إذا صحت آلة الاستقبال لا يغيب عنك شيء من رحمات الله تعالى ولا من فضله .

أسأل الله سبحانه وتعالى للحاجين أن يعودوا ، ولغير المستطيعين أن يستطيعوا ، وأسأل الله سبحانه وتعالى لجميع المؤمنين والمؤمنات فى جميع بقاع الأرض صلاح الحال .

○○○

الفهـــرس

الموضـــوع	الصفحة

مطابع الشرطة
مطابع الشرطة للطباعة والنشر والتوزيع
شارع المرور - الدراسة القاهرة ٥٩٠٣٥٣٥ - ٥٩٠٢٠٢٠ فاكس : ٥٩٢٧٦٥٥